تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مجلة
فصلية علمية
دينية سياسية
تعنى بشؤون حوزتي
النجف الأشرف
وقم المقدسة

الحوزة

مجلة علمية فصلية

تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العدد السابع والثلاثون / السنة الثامنة / ١٤٤٤ هـ

المشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

هيئة التحرير

حيدر النجار

إبراهيم الأسدي

التصميم والإشراف الفني

أحمد الهاشمي

info@markazalhuda.net

www.markazalhuda.net

دعوة للكتّاب

تود هيئة تحرير مجلة الحوزة ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الحوزة وفق المعايير التالية:

- ❖ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- ❖ تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- ❖ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- ❖ تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- ❖ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- ❖ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

لا تمثل بالضرورة آراء الباحثين والكتاب رأي مجلة الحوزة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الامام الخامنئي ظِلَّهُ

في لقاء جمع من التعبويّين بمناسبة يوم التعبئة

الغرب لن يتمكّن من إسقاط النظام بإيران وسياساتنا الفاعلة أفشلت مخطط أمريكا

في ذكرى الشهادة

❖ **معالم مدرسة الحاج سليماني في إسقاط الهيمنة الأمريكية ...**

أ. عباس النوري ٢٨

❖ **الجذور الفكريّة للقائد الشهيد قاسم سليماني ...**

د. راشد الرّاشد ٤٥

من عبق الفكر المقاوم

❖ **القيم الاقتصاديَّة في الحضارة الإسلاميَّة الجديدة في رُؤيةِ الإمام الخامنئيِّ** ظِلَّهُ

أ. د نور الدين بو لحيّة ٥٥

❖ **الثَّورةُ الإسلاميَّة ومواجهة التّحريفات**

السيد عبد الجبّار الموسوي..... ٩٥

في رحاب المعرفة

❖ **الطَّاقات الرّوحية والجسَدية في القُرآنِ الكَريم**
أ. حسين أميّش..... ١٣٦

❖ **مُستويَات التوازن القرآني في العبادة والعَقيدة**
د. فاطمة الشنّاوي ١٥٨

❖ **نظريّة حق الطاعة مطالعة في جُذور النشأة**
الشيخ إبراهيم حسين ١٩٧

❖ **حُجّية الأثر الاجتماعيّ للنص وأثره عند الفقهاء**
الشيخ د. حيدر نجم عبّود..... ٢٠٦

الامام الخامنئي ظِلَّهُ

في لقاء جمع من التعبويّين بمناسبة يوم التعبئة

الغرب لن يتمكّن من إسقاط النظام يا يران
وسياساتنا الفاعلة أفشلت مخطط أمريكا

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطاهرين، [ولا] سيما بقية الله في الأرضين، أرواحنا فداه.

أيها الإخوة والأخوات الأعزاء، شباب التعبئة الشجعان، أهلاً بكم. لقد نوّرتم حسينيّتنا بنور الدوافع التعبوية الحاضرة فيكم، بحمد الله. مبارك عليكم جميعاً أسبوع التعبئة، بل على الشعب الإيراني بأكمله.

كانت التعبئة من الابتكارات المباركة لإمامنا [الخميني] الجليل. طبعاً، لم تكن ابتكاراته العظيمة، التي كانت تؤسّس لتحركات عظيمة في حياة الناس وتاريخ البلاد، مجرد واحدة أو اثنتين، إلاّ أنّ تأسيس التعبئة كان من أهم هذه الابتكارات وأكبرها، فقد أعلن سماحته في خطابه الشهير ذاك مطلع شهر آذر ١٣٥٨ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩) [ضرورة تأسيس] جيش العشرين مليون في البلاد[١]. إذن، تأسّست التعبئة بعد أمر الإمام، في مثل هذا الشهر من ١٣٥٨ (١٩٧٩). كانت بركات التعبئة وهذا الابتكار العظيم لدرجة أن آذر ١٣٦٧ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨)، أي بعد مرور تسع سنوات، شهد تلك الخطابة[٢] الراقية والبليغة والرفيعة للإمام في مدح التعبئة. ما الذي حدث على يد التعبئة في البلاد خلال السنوات التسع فأثّر في الإمام الجليل على نحو دفعه لاستخدام ذلك البيان الراقي والبليغ وتلك العبارات العجيبة وذلك الأدب المذهل؟

الآن، سأتحدث ببضع جمل عن ذلك الأدب الفاخر للإمام الجليل حتى تتذكروا أن إمامنا العزيز في هذا البيان، أو هذه الخطابة، يتحدث مع التعبئة كأب يُبدي عشقه تجاه أبنائه. سأقرأ هذه العبارات: «التعبئة مدرسة العشق ومذهب الشاهدين والشهداء المجهولين حيث رفع أبناؤه من فوق مآذنه الشامخة آذان الشهادة والشهامة». يا له من أدب فاخر وعبارات راقية! «إنّها شجرة مثمرة يفوح من براعمها عبير ربيع الوصال وطراوة اليقين وحديث العشق». طبعاً، أنا لا أقرأ هذه العبارات بالتسلسل. فاذهبوا واقرؤوها بدقة، فهذه الكلمات موجّهة إليكم. ثم يقول سماحته: «إن افتخاري هو أنني تعبوي». الإمام بتلك العظمة التي هزت العالم والتاريخ يقول: «إن افتخاري هو أنني تعبوي». ثم يقول: «أقبّل أيديكم فرداً فرداً». هذه [كلماتٌ] لا يمكن أن تُنسى حقاً. إذن، أيها التعبويون أنتم اليوم المخاطبون بهذا البيان. لم يقل الإمام تعبئة الثمانينيات. [قال] التعبئة. أنتم والتعبويون الذين من

بعدكم حتى الحقب المستقبلية، جميعاً مخاطبو هذا البيان الذي يقوله الإمام: «أقبّل أيديكم».

حسناً، في هذا البيان نفسه - بيان آذر ١٣٦٧ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٨) - يعلن الإمام تعبئة طلاب الجامعات والحوزات، وهذا له معنى خاص. يطالب الطلاب الجامعيين وطلبة العلوم الدينية بأن يكون لديهم تعبئة وأن يصيروا كذلك. هذا يعني أن التعبئة لا تقتصر على المجال العسكري فقط. يجب أن تكون التعبئة حاضرة في الميادين كافة بما في ذلك ميدان العلم - العلم الديني والعلم المادي -. التفتوا جيداً، فهذه نقطة مهمة. لقد حوّل الإمام الجليل التهديد إلى فرصة بهذا العمل. ما كان ذلك التهديد؟ أصدر الإمام هذا البيان العام في الرابع من آذر ١٣٥٨ (١٩٧٩/١١/٢٥)، وفي الحقيقة، أمر سماحته بتشكيل التعبئة، أي بعد نحو عشرين يوماً من السيطرة على وكر التجسس. جرت السيطرة على وكر التجسس في ١٣ آبان (١٩٧٩/١١/٤)، وصدرَ البيان الأول للإمام وأمرُه في الرابع من آذر (١٩٧٩/١١/٢٥)، بعدما وقعت تلك الحادثة في ١٣ آبان وسيطرَ «الطلاب أتباع نهج الإمام» على وكر التجسس وأخرجوا الوثائق من هناك، فغضب الأمريكيون بشدة طبعاً، وبدؤوا إطلاق التهديدات اللفظية والعملية. كان تهديدهم العملي أنهم أحضروا سفنهم الحربية تدريجياً إلى الخليج الفارسي، وهذه تهديدات طبعاً. بدلاً من أن يرتبك الإمام أو يخاف - عادة ما يرتبك رؤساء الدول، ينفعلون ويخافون ويرتعبون بمجرد أن تعبس أمريكا، لكن الإمام، كلا - جلبَ الشعب إلى الميدان على هيئة تعبئة عامة، أي حوّل هذا التهديد إلى فرصة، وهذا ما أدى إلى ألا تبقى ساحة المعركة محصورة في المؤسسات الرسمية، وأن يدخلَ أفراد الشعب كلهم. هذا هو تحويل التهديد إلى فرصة. كانت هذه من مهارات الإمام والمَلَكات التي وهبها الله له، إذ كان يحول التهديدات إلى فُرَص.

حسناً، ثمة نقطة مهمة هنا، وقد ذكرتها، وهي أنه رغم أنّ التعبئة تألقت في المجال العسكري إنصافاً - طبعاً، عندما أدلى الإمام بهذا البيان، لم تكن الحرب قد بدأت بعد، وفي وقت لاحق، عندما بدأت الحرب عام ١٩٨٠، كان حضور التعبئة في ساحتها فعّالاً للغاية وحلّالاً للعُقَد، وكان بالمعنى الحقيقي للكلمة سنداً مهماً جداً للمنظمات العسكرية الرسمية مثل الجيش و «حرس الثورة الإسلامية» - وأنّ اختبار التعبئة في ساحة الحرب كان اختباراً رائعاً، لكنها ليست مجرد منظمة عسكرية، وهذه هي النقطة الأساسية. التعبئة أسمى من هذا الكلام، أي شأنها ومكانتها أسمى من [مجرد] تنظيم عسكري. ما هي؟ التعبئة ثقافةٌ، والتعبئة خطابٌ، والتعبئة فكرٌ.

ما هذا الفكر؟ ما هذه الثقافة؟ هذه الثقافة هي خدمة المجتمع والبلد دون تباهٍ ودون توقع مقابل، وهذا مهم جداً... دون توّقع، ودون أن يجلس وينتظر أن يقولوا له: «بارك الله». حتى في كثير من الحالات خوض الميدان دون إعطائه ميزانية ومال وإمكانات. في النهاية كل حركة تحتاج إلى إمكانات. إنه يخوض مختلف الميادين دون هذه الأمور ويؤدي خدمة جهادية ويشري أخطار الخدمة الجهادية بروحه. هذه هي ثقافة التعبئة. ماذا تعني ثقافة التعبئة؟ تعني الغرق في الوحل حتى الركب لإزالة الطين من غرف العائلات التي غمرتها السيول، وأن يعرّض نفسه لخطر الإصابة بكورونا والموت من أجل إنقاذ مرضى كورونا وإبعادهم عن الموت. ثقافة التعبئة تعني ألا يعرف الكلل خلال «المساعدة الإيمانية» التي عُرِضَ علينا أحد نماذجها في هذا المعرض[٣] الآن حين كنا ندخل إلى هنا. بالطبع أنا على دراية كاملة بما فعله التعبويون عبر إعلان «المساعدة الإيمانية» والتحرك في هذا الاتجاه، أو في المعسكرات الجهادية. هذه هي التعبئة، وهذا معنى ثقافة التعبئة. لم ينتظروا أحداً ليقول: «بارك الله بكم، أحسنتم». كلا، لقد ذهبوا على أي نحو

استطاعوا، وفي بعض الحالات بأساليب مبتكرة ومثيرة للاهتمام، وعملوا على تنمية هذه المساعدة الإيمانية في البلد بأكمله. كانت التعبئة ذات فعالية في بيئة العلم والأبحاث والمختبرات، فالشباب الذين كانوا من أهل العلم والبحث والمعرفة، والذين لديهم روح التعبئة، [كانوا ناشطين] في المختبرات، سواء في قضية كورونا وغير كورونا أيضاً وفي مختلف القضايا. أحد نماذجها هم شهداؤنا النوويون. هؤلاء كانوا من التعبئة. هؤلاء تعبويون. من الأمثلة على ذلك المرحوم كاظمي[٤] وهذا الجهاز المفصّل الذي دشّنه وبقية الأعمال العلمية والبحثية. هذه هي ثقافة التعبئة. ثم في ميدان مواجهة العدو أيضاً، أي ميدان الحرب العسكرية حيث خوض الميدان دون خوف أو خشية من العدو، ودون إعطائه فرصةً. هذه هي [ثقافة التعبئة]. الدخول في كل معركة سياسية وعسكرية وعلمية واستخدام الطاقات كافة. ثقافة التعبئة هي هذه. أن يكون المرء تعبوياً هي ثقافة المجاهدين المجهولين - كما ورد في بيان الإمام حين أشار إلى هذا المعنى أيضاً - وثقافة المجاهدين الذين لا ينتظرون مقابلاً. إنها [ثقافة] المخاطرة والشجاعة. هي تقديم الخدمة إلى الجميع والبلد. إنها بذل النفس من أجل الآخرين، وحتى أن تُظلَمَ من أجل خلاص المظلوم. لقد رأيتم في هذه الأحداث الأخيرة أن التعبويين المستضعفين تعرّضوا للظلم حتى لا يدَعوا الشعب يتعرض للظلم على يد حفنة من مثيري الشغب، الغافلين أو الجاهلين أو المرتزقة. إنهم يتعرضون للظلم ليمنعوا ظلم الآخرين. لا يسمحون لليأس أن يجد إليهم سبيلا. هذا من المكوّنات المهمة في ثقافة التعبئة. لا يوجد لليأس معنىً لدى التعبوي.

حسناً، كان هذا وصفاً إجمالياً للتعبئة والتعبوي. بالطبع، إذا أردنا الحديث في هذا الصدد، يمكننا التحدث تفصيلاً وإسهاباً بعبارات غنية بالمعاني والمضامين [لكن] مجمل الحديث هو الذي قلناه. لا ينحصر الأمر في [التعبئة] خلال

الثمانينيات أو التسعينيات أو العقد الأول من القرن الجاري. أنتم [شبابَ] التسعينيات والعقد الأول من القرن الجاري وما شابه شبابٌ غِضاض. لم تروا الإمام ولا مرحلة الثورة ولا «الدفاع المقدّس»، لكن الروحية نفسها لذاك الشاب في ميدان الحرب موجودة فيكم. لا ينحصر الأمر في [شباب] الثمانينيات أو التسعينيات أو العقد الأول من القرن الجاري. هذا الكلام عن فجوة الأجيال وما إلى ذلك من الذي يقولونه، [أي] كلام «المثقفين» داخل «القعدات الثقافية»، مغايرٌ للحقائق. تعبئة اليوم هي نفسها تعبئة الثمانينيات.

طبعاً، هناك نقطة مهمة أخرى هي أن البلاد اليوم لديها قابلية لإنتاج التعبئة والتعبويين وإنماء إنباتات جديدة في التعبئة، وكذلك لدى التعبئة هذه القابلية لدفع البلاد نحو الأمام بخُطى وارفة. هذا يعني أن لدى البلاد الجهوزية لإنبات التعبئة وتجديدها، وكذلك التعبئة - منظمة التعبئة وعامة التعبويين، وسوف أتحدث عن هذا الأمر بعد قليل، إذْ لدينا تعبئة منتسبة وغير منتسبة - وعالَم التعبئة في بلادنا جاهزون لتطوير البلاد والمضي بها قُدماً. عندما قلنا إن البلاد لديها القابلية فهذه القابلية لم تنشأ حديثاً طبعاً، فقد كانت منذ زمن بعيد، لكنها كانت تُقمَع ولا يُستفاد منها. لقد كانت روحية إنتاج التعبئة هذه، بنفس الخصائص التي ذكرناها [مثل] الدخول إلى الميدان والشجاعة والتصدي للعدو، موجودة في عهد الحكومات الطاغوتية والعصور الماضية أيضاً، ولكن إما أن الأجانب كانوا يسيطرون على البلاد ويمنعونها ويقمعونها، وإما أن الحكومات نفسها كانت فاسدة.

حسناً، دوّنت هنا بعض الأمثلة على ذلك. فمثلاً خلال مرحلة التدخلات الأجنبية - تتعلق بهذه الحقبة من تاريخنا المعاصر وليست منذ زمن بعيد جداً - كان الشيخ محمد خياباني في تبريز تعبوياً بمعنىً ما، فقد انتفض وتحرك ثم استشهد. وفي مشهد محمد تقي خان بسيان (پسيان) كان على النحو نفسه.

للأسف، إنكم لا تعرفون معظم سيَر هؤلاء. ينبغي أن تقرؤوا الكتب بكثرة وأن تطّلعوا على سيَر هؤلاء وتَعلَموها. في رشت الميرزا كوتشك خان جنكلي (ميرزا كوچک‌خان جنگلی). في أصفهان آغا نجفي [الأصفهاني] والحاج آغا نور الله [النجفي الأصفهاني]. في شيراز السيد عبد الحسين اللاري وبعض كبار العلماء الآخرين [مثل] الشيخ جعفر المحلاتي. في بوشهر رئيس علي الدلواري - بالمناسبة أُنتج فيلم عنه وعُرض - وطبعاً هناك حالات كثيرة في أماكن أخرى أيضاً، وتذكرت هؤلاء الآن فدونتهم. معظم هؤلاء قُمِعوا، أي جميعهم تقريباً - باستثناء حالة واحدة أو حالتين - قُمِعوا. إما أنهم قُمعوا أو لم يتلقوا المساعدة أو أن الحكومات وضعت العقبات أمامهم. [إذن] روحية التعبئة هذه كانت موجودة. لكن خلال مرحلة الثورة تنامت هذه القابلية أولاً، لأن الثورة كانت تمنح الأمل، فقد أدى الانتصار على نظام عمره ٢٥٠٠ عام - وفق قولهم - إلى تعزيز الروح المناهضة للاستكبار والاستبداد لدى الشعب، وغدت قابلية التعبئة هذه قابلية متنامية. ثانياً بثّ شخص على رأس البلاد مثل الإمام [الخميني] الجليل الحياة والروح في التعبئة، فصارت هذه القدرة حية وتحقّقت هذه القابلية.

لقد ذكرنا أن للتعبئة حضوراً فعالاً في «الدفاع المقدس». بالطبع، أحياناً كنا نرى بأنفسنا في تلك الأوقات بعض الأجزاء والزوايا لذلك الميدان العظيم. كنّا قد رأيناها، ولكن ما هو في هذه الكتب والسيَر مئات الأضعاف وربما آلاف الأضعاف لما كنا نراه بأم أعيننا. هناك أشياء عجيبة في هذه الكتب عن سير الشهداء والعظماء في ميدان الحرب بل حتى العظماء المجهولين الذين لم يكونوا قادة لمكان ما وكانوا مجرد تعبئة، لكنهم كانوا عظماء ويتمتعون بالعظمة. [هذا] يُذهل المرء حقاً. كان هذا ما يرتبط بميدان الحرب. [وأما] في البيئة العلمية كان العلماء النوويون وعلماء «رويان» وسائر مراكز العلوم والأبحاث والمراكز المختلفة الأخرى.

بحمد الله، لدينا اليوم في البلاد الملايين من أفراد التعبئة الرسميين والملايين من غير الرسميين. أولئك الشباب في المساجد والجامعات والاتحادات الطالبية والمدارس ومختلف الأماكن... الذين يؤدون أعمال التعبئة، وهم في الحقيقة تعبويّون لكن بصورة غير رسمية، أي ليسوا [أعضاء] في منظمة التعبئة. امتداداً لظاهرة التعبئة هذه في بلدنا توجد التعبئة في العالم الإسلامي. هناك أيضاً ملايين التعبويين في العالم الإسلامي - في مختلف البلدان - الذين لا يُتقنون لغتنا ولا نُتقن لغتهم، لكنّ لغة قلوبنا وقلوبهم واحدة، وتوجّهاتهم هي توجّهاتنا نفسها، وهذه أيضاً من بركات التعبئة.

حسناً، هذا تذكار الإمام [الخميني] وهو باقٍ اليوم وسيبقى غداً - إن شاء الله - وستشهد البلاد ثمراته. فمن بين العبارات التي وصف بها الإمام [الخميني ﷺ] التعبئة: «الشجرة الطيّبة»[٥]. تلك «الشجرة الطيّبة» نفسها التي في القرآن: ﴿**كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ (إبراهيم). ما يميّز الشجرة الطيّبة أنّها تؤتي أُكُلها وتُظهر نتائجها كلّ حين. قُلنا إنّ التعبئة لديها القدرة على دفع البلاد إلى الأمام، وسأقدم الآن بعض هذه الثمرات.

أولاً، أثبت حضور التعبئة في كل مرحلة حيوية الثورة وأنّها لا تزال حيّة. رغم أنوف أولئك الذين يرتعبون ويمتعضون من كلمة «الثورة» واسم «الثورة»، ولا يرغبون في أنْ يُذكر اسم «الثورة»، ويبرزون كُرههم لها وبراءتهم منها، لكن وجود التعبئة يُظهر أن الثورة حية ومتجددة ومبدعة. إذن، من ثمرات حضور التعبئة إظهاره تجدّد الثورة وحيويتها.

ثانياً، الروحية نفسها التي ذكرناها، فروحية العمل الجهادي دون مقابل أو تباهٍ وظهور، هذا بحدّ ذاته يُحدِث نقلة نوعية في البلاد. لا بركة في العمل من أجل

الثناء والتباهي وإظهار النفس لهذا وذاك. إنّ هذا العمل نفسه دون مقابل، والعمل الجهادي، يضع البلاد على عجلة التقدّم ويدفعها إلى الأمام. هذه أيضاً إحدى بركات التعبئة وثمراتها.

ثالثاً، التعبويّ أينما أنجز عملاً، يجعل عنصر الروحانيّة بارزاً في ذاك العمل. هذا العنصر أمرٌ في غاية الأهميّة. العالِم البارز في مركز «رويان» حين يتوصّل إلى تقدّم علميّ معيّن، يسجد سجدة الشّكر. هذا ما أخبرني به المرحوم كاظمي أمام ذاك العالِم وذرفَ كلاهما الدموع. يقول تلميذ العالِم النووي البارز: حرنا في مسألة معيّنة، وكنا نعمل حتى وقت متأخّر من الليل - في جامعة الشهيد بهشتي - فقال لي أن تعال معي، فنهضنا وخرجنا من غرفة العمل، وذهبنا إلى المصلّى، وأخذني إلى داخل المصلّى وبدأ بالصلاة والدعاء، ثمّ فجأة قال: عرفتها! لقد حُلّت المشكلة، ثم نهض وعاد إلى هناك. لاحظوا، [تحضر] السجدة والدعاء والصّلاة في البيئة العلميّة وأجواء العمل النوويّ! حضور التعبويّ يجلب معه الروحانيّة في المجالات كلّها. هذا أمرٌ في غاية الأهميّة.

رابعاً، إلى جانب العملانيّة هو مثاليٌّ أيضاً - كذلك هو التعبوي - لأنّه أهلٌ للعمل والمبادرة. هو لا يكتفي بالكلام بل يعمل، لكن إلى جانب العملانيّة - فلا ينحصر بالعملانيّة فقط - هو لا ينسى المثاليّة، ويتحرّك نحو المُثل، فنسيان المُثل خطرٌ عظيم. هذه أيضاً واحدة من الثّمرات. وإذا أردت أن أعدّد ثمرات هذه الشجرة الطيّبة، فإنّها أكثر من هذا القدر، وقد ذكرتُ الآن ثلاثة إلى أربعة منها. هذه البركات متوافرة لدى التعبئة.

حسناً، لقد وصّفنا التعبئة كلّ هذا الوصف ونقلنا كلام الإمام [الخميني] الجليل والشواهد والأمثلة المتنوعة بشأن التعبويّين. هذه الأمور كلّها مشروطة بأن تحفظوا الروح التعبوية في أنفسكم، فيجب ألّا نغترّ بالاسم. نحن طلّاب العلوم

الدينيّة إذا حافظنا على الروح الحوزوية، فسيكتسب وجودنا البركة، وإذا ابتعدنا عن الروح الحوزوية - إذ كان الإمام [الخميني] يحذّر مراراً المعمّمين الحاضرين في الأجهزة ويقول: حافظوا على الروح الحوزوية في ذواتكم[٦] - وخرجنا من هذه الحالة، تزول البركة. كذلك حال التعبئة، فلا بدّ أن تحافظوا على الروح التعبوية... طبعاً بتلاوة القرآن وأداء المستحبّات بالقدر الذي تستطيعون وبقدر ما لديكم من نشاط. فلتلتفتوا إلى هذه الأمور بقدر ما لديكم من استعداد، ولتقرؤوا شروحات سِيَر الشهداء والشروحات والسّيَر عن هؤلاء التعبويّين الذين ذهبوا واستشهدوا وطُبعت كتب كثيرة [عنهم]، فلتقرؤوا ما استطعتم. حسناً، كان هذا في ما يرتبط بالتعبئة.

ثمة موضوعٌ آخر أريد أن أطرحه هنا حول مكانة التعبئة. أنا أصرّ على أن يعرف التعبويّ قدر التعبئة ومكانتها وفلسفة حضورها. أرغب في أن أناقش هذا الأمر باختصار. ما مَهمّة التعبئة؟ مَن تواجهون؟ هل تواجهون حفنةً من مثيري الشّغب في الشارع؟ هل تقتصر وظيفة التعبئة على هذه فقط؟ للتعبئة مكانةٌ بارزةٌ في الجغرافيا السياسيّة للعالم الإسلامي، ولا بدّ أن أشرح هذا الأمر قليلاً. طبعاً، لا بدّ لأهل الفكر والرأي، وأنتم الشبابَ، أن تلتفتوا بدقة وتفكّروا في هذه المسألة - ليس الآن فقط - وأن تتابعوا هذه القضايا بالمطالعة وإجراء النقاشات والتحاور والتفكير.

تمتلك جبهة الاستعمار الغربي مقاربة محدّدة لمنطقتنا المميزة هذه، غربي آسيا، هذه المنطقة التي يُطلقون عليها اسم «الشّرق الأوسط». وقد صار لدى الاستعمار الغربي، أوروبا أوّلاً ثمّ أمريكا، اهتمام خاصّ بهذه المنطقة بعد الحربين العالميّتين وبنى مقاربة محدّدة تجاهها، لماذا؟ لأنّها منطقةٌ مهمّة. فأهمّ عامل لتحرّك العجلات الصناعيّة للعالم الغربيّ مرتبطٌ بعنصر النفط. وهنا المركز الرئيسي للنفط في العالم. غربي آسيا هي منطقة الوصل بين الشرق والغرب، ومنطقة اتصال آسيا وأوروبا وأفريقيا. من ناحية المكانة الإستراتيجية، وبالتعبير الرائج من ناحية الجغرافيا العسكرية، إنها

أكثر مسألة أهميّة. لذلك أوْلى المستعمرون الغربيّون، الذين كوّنوا ثروة معينة، واكتسبوا قدرات عبر نهبهم الدّول المُستعمَرة، وتقدّموا من الناحية العلميّة أيضاً، وكانوا يحملون سلاح التقدّم أيضاً، اهتماماً خاصّاً بغربي آسيا. وبسبب هذا الاهتمام أنشؤوا الكيان الصهيوني الغاصب في هذه المنطقة. جعلوا هذا الكيان الغاصب قاعدة للغرب في هذه المنطقة، قاعدة لأوروبا أوّلاً ولاحقاً لأمريكا، من أجل أن يتمكّنوا من السيطرة عليها، ويفعلوا ما يحلو لهم، ويُوقعوا بين الدّول، ويُحدثوا الحروب ويفرضوها ويُوسّعوها، وينهبوا. وقد أنشؤوا الكيان الصهيوني لهذه الغاية في الأساس. إذن، كان لديهم رؤية خاصة تجاه هذه المنطقة.

في غربي آسيا هذه هناك نقطة أهمّ من أيّ نقطة أخرى، وهي إيران. ففي هذه المنطقة، تُعدّ إيران الأهم من بين بلدانها، لأنّ ثروتها أكبر ممّا لدى هذه الدول كلّها: النّفط والغاز والمعادن الطبيعيّة، وكذلك النقطة التي يقع فيها هذا البلد أكثر النقطة حساسيّة. هي تَقاطعُ طرقٍ، تَقاطعُ الطرق بين الشّرق والغرب، وبين الشمال والجنوب. فقد كان يقال منذ القِدم إنّ إيران هي التقاطع المهمّ لهذه المنطقة. كانت لديهم حساسيّة تجاه إيران أكبر من الأماكن الأخرى كلّها. لذلك، عقدوا استثماراتهم على إيران. جاء البريطانيّون أوّلاً وتغلغلوا ما استطاعوا، فدخلوا وأنشؤوا المنظمات. لقد أعدّوا لأنفسهم مؤيدين ومرتزقة من فئات مختلفة. طبعاً إن قضية تكوين المرتزقة والمؤيدين هذه على يد البريطانيين في إيران هي قصة مفصلة! تحتوي على كم كبير من الزوايا والأركان المهمة التي قلّ ما رُويت وما كُتب عنها – للأسف – لكنها كانت حاضرة، فقد رأينا هذه الأمور ولمسنا بعضها من كثب وشعرنا بها. ثمّ جاء الأمريكيّون، وفي بداية مجيئهم، وفدوا تحت شعار المساعدة في عهد رئاسة ترومان[٧]. البند الرابع من [مبدأ] ترومان كان المساعدة. جاؤوا تحت هذا الشعار في بداية الأمر، ثمّ بعدما رسّخوا وجودهم تدريجياً، أزاحوا الآخرين أو أضعفوهم، وسيطروا بأنفسهم على إيران. كان كلّ

شيء بأيدي هؤلاء. إذا نظرتم في مذكرات رجال السياسة في العهد البهلوي، فسترون أنه حتى محمد رضا بهلوي، الذي كان خادماً للأمريكيين ويعمل لهم، يشكو منهم لكنه لا يجرؤ على قول ذلك. كان يفصح عن شكواه في اجتماعاته الخاصة مع أسد الله علم وأصدقائه المقربين. فالأمريكيون كانوا قد تقدموا إلى هذا الحد؛ إنّهم يتجبرون ويبتزون لدرجةٍ تجعل شخصاً مثل محمد رضا يشكو منهم. كان لديهم مثل هذه السيطرة على إيران.

طبعاً كذلك كانت الحال في سائر دول «الشرق الأوسط» أيضاً، كلٌّ بطريقة معيّنة. بالطبع، لم تقتصر تدخّلات هؤلاء، أي تدخّلات المستعمرين، على كونها من الغربيّين فقط، فالاتحاد السوفييتي السابق كان يتدخّل أيضاً، لكن لم يكن لديه سيطرة على إيران. أراد التغلغل عبر حزب «توده» والأحزاب اليسارية، وثمة ممارسات أيضاً يجب أن تقرؤوا عنها في التاريخ المعاصر. كان لديه نفوذٌ أكبر في بعض الدول الأخرى مثل العراق وسوريا، لكن الغرب كان مسيطراً في الوقت نفسه. هؤلاء كانوا يريدون التغلغل لكن فرنسا كان لديها حضورٌ حاسم في سوريا ولبنان على سبيل المثال، وأيضاً سائر الغربيّين والمستعمرين. هكذا كانت حال البلد ووضع المنطقة في واقع الأمر قبل انتصار الثورة الإسلاميّة، فقد كان هذا المكان نقطة مركزيّة.

فجأة حطمت الثورة الإسلاميّة في إيران كل أحلامهم. لقد وقع حدثٌ ما، إذ وجّهت الثورة الإسلاميّة ضربة قاصمة إلى هذه السياسة الاستعماريّة، فتاه هؤلاء. قبل أشهر من انتصار الثورة الإسلاميّة، جاء الرئيس الأمريكي[٨] إلى إيران وكان يقول: هنا جزيرة آمنة. كان يقول عن إيران إنّها جزيرة آمنة. بعد أشهر، قرابة ثمانية أو تسعة أو عشرة أشهر، اندلعت الثورة الإسلاميّة في هذه الجزيرة الآمنة نفسها! هكذا جرت مباغتة هؤلاء، وظهرت الثورة أمامهم فجأة على هذا النحو، فدفعتهم إلى غور الانزواء الذي ترافق مع الخوف والتردّد والرّعب. هذه هي الحال التي

أحدثتها الثورة. تحوّلت الثورة إلى سدّ منيع، وطردت هؤلاء. هرب بعض عناصرهم من تلقاء أنفسهم، وبعضهم طُردوا، وآخرون أُعدموا. بَنت [الثورة] سدّاً أمام حضور أمريكا والغرب في المنطقة عامةً.

حسناً، بُنيَت هويّة جديدة. فالبلاد حوّلت هويّة التبعيّة والتشبّث بأمريكا وبريطانيا إلى هويّة الاستقلال والصلابة، والاعتماد على النفس، والتحدّث بقوّة، ورفض الخضوع للابتزاز. كان مجمل الأمر: رفض الخضوع للابتزاز. لقد بَنَتْ سدّاً بهذه الطريقة، وطبعاً لم يبقَ هذا محصوراً في إيران، فقد قلنا حينذاك وقلت ذات مرّة في صلاة الجمعة[٩] - لأنّهم كانوا يروّجون كثيراً في الخارج أنّ إيران تريد تصدير الثورة - قلت في صلاة الجمعة إنّ قضيّة تصدير الثورة في ثورتنا ليست كما حال تصدير الثورة في بعض الثورات الأخرى. ثورتنا كعطر الورود ونسيم الربيع، ولا يقدر أحدٌ على الوقوف في وجهها وهي تنتشر. حين تكون لديكم حديقة مليئة بالورود هنا، سينتفع جيرانكم والمحيطون بكم من عطرها، ولا يمكن لأحد أن يمنع ذلك، وهذا ما حدث ووقع. لقد استيقظت الشعوب في البلدان الأخرى. لم نكن ننوي أن نُنفّذ انقلاباً في بلد ما ونغيّر حكومته. لا، لم نسعَ وراء هذه القضيّة، لكن ثورتنا حوّلت على نحو طبيعيّ قلوب الشعوب المجاورة لنا وشعوب منطقتنا وغيّرتها وأثّرت فيها. طبعاً، هذه خصوصية إيران. وهكذا كانت الحال في النهضة الوطنيّة أيضاً. ففي النهضة الوطنيّة، [صحيح أنّه] عندما عمد مصدّق إلى إنجاز قضيّة النفط وأمثال ذلك تمّت الإطاحة به، لكن في الوقت عينه، كان الجميع يقولون إنّ قيام مصر على يد عبد الناصر[١٠]، وقيام العراقيّين عبر رؤساء الانقلاب العراقيّ، كانا نابعين من التحرّك في إيران. لقد تركت [النهضة] تأثيرها في ذلك الوقت أيضاً. لكن، أين النهضة الوطنيّة من الثورة الإسلاميّة؟

لذلك، كان عليهم التفكير في العلاج. ما الذي سيفعلون؟ ماذا سيفعل

الغربيون الذين كانوا حتى الأمس يسيطرون على إيران وهذه المنطقة وفقدوا الآن كل شيء تقريباً أو يفقدونه؟ كان عليهم إسقاط حكومة الثورة والقضاء عليها. هذا هو الحل، فليس لديهم طريقة أخرى. ينظرون فيرون أنّهم لا يستطيعون ذلك. ما أقوله يعود إلى أربعين عاماً، وليس قضية اليوم. في ذلك اليوم، كانت الثورة لا تزال شتلة، ولم تكن شجرة ضخمة على هذا النحو، لكنهم كانوا خائفين من تلك الشتلة نفسها، إذ كانوا يعلمون أن ليس في استطاعتهم فعل ذلك، فالشعب الإيراني والقوة والثورة حاضرة في الساحات. كانوا يعلمون أنّهم غير قادرين على ذلك. أيضاً، حين بدأت الحرب المفروضة، وقد استمرّت ثماني سنوات، تعاون العالم كله مع صدام. رغم ذلك هُزم صدّام، وأدركوا أكثر أنّه لا يمكن مواجهة إيران، ومن الصعب مواجهتها. كانوا يرون امتداد الثورة الإسلامية والعمق الإستراتيجي لإيران في دول المنطقة. كانوا يرونه، ولذلك، فكّروا بأنّه لا بدّ من الذهاب إلى الدول المحيطة بإيران، هناك حيث العمق الإستراتيجي لها، قبل الهجوم على إيران - سواء الهجوم العسكري أو أي نوع من شأنه أن يُسقط الحكومة والجمهورية الإسلامية -. ولا بدّ أولاً من شلّ كل واحدة من هذه الدول التي هي على علاقة بالجمهورية الإسلامية والسيطرة عليها بطريقة ما. هذه الخطة قد كشفها الأمريكيون أنفسهم. ما أقوله ليس تحليلاً، بل هذه خطة الأمريكيين. هذه الخطة والمؤامرة كشفهما الأمريكيون أنفسهم عبر شخصيات أمريكية بارزة وشخصيات سياسية أمريكية معروفة، وذلك في السنوات الأولى من القرن الجاري، وعام ٢٠٠٦ وما بعده.

قالوا: هناك ست دول لا بدّ أن نطيح بحكوماتها قبل إيران. عندما نسيطر على هذه الدول الستّ ونُطيح بحكوماتها، سوف تضعف إيران. حينذاك، يمكن الهجوم على إيران. أين هذه الدول الست؟ وكل واحدة من هذه الدول لسبب ما. العراق واحد منها، لأنّ صدّام عندما أراد الهجوم على الكويت بعد الحرب [المفروضة]، رمى حبال

الصداقة، فقد أطلق سراح سجنائنا، وكتب رسالة إلى هذا العبد وإلى رئيس الجمهورية آنذاك. كتب رسالة وبعث موفدين. لذا، كان صدام خطيراً. صدام، الذي كانوا يدعمونه حتى ذلك اليوم، غدا عنصراً غير مرغوب فيه عندهم. هذا العراق. ثانياً سوريا. لأن سوريا كانت إلى جانبنا منذ بداية الحرب في عهد حافظ الأسد[١١]. لقد قطعت سوريا طريق النفط العراقي إلى البحر الأبيض المتوسط لمساعدتنا، وبعد ذلك قدموا كل مساعدة ممكنة. كانت رحلتي الخارجية الأولى خلال رئاسة الجمهورية إلى سوريا، أي أنّ علاقاتنا بسوريا كانت وثيقة للغاية. لذلك، تجب الإطاحة بالحكم في سوريا. ثالثاً لبنان. لماذا لبنان؟ لأن هناك قواعد ثورية قوية حليفة لإيران: «حزب الله» وحركة «أمل». رابعاً ليبيا في شمال أفريقيا. لأنهم كانوا يعلمون أن ليبيا قدمت إلينا الدعم في بعض الأحيان. كانت قد قدّمت دعماً عسكرياً كما كانت إلى جانبنا إعلامياً. خامساً السودان. كان للسودان أسبابه الخاصة التي كانت جليّةً، فقد كان قادته يزورونا ويتردّدون علينا. كانوا على اتصال بنا في أوقات مختلفة بعد الثورة هناك وانتصارها. ثم [سادساً] الصومال، لسبب آخر.

كان لا بدّ من إضعاف هذه الدول الست وتدميرها وإسقاط حكوماتها. في الواقع، كان رأيهم أن العمق الإستراتيجي لإيران هو هذه الدول الست، وينبغي أن تسيطر عليها أمريكا والاستعمار، ثم يأتون إلى إيران. حسناً، ماذا فعلت إيران؟ ماذا فعلت الجمهورية الإسلاميّة؟ لمْ تدخل الجمهورية الإسلامية إلى شمالي أفريقيا إطلاقاً. لا في ليبيا ولا في السودان ولا في الصومال... لأسباب واضحة لسنا في وارد ذكرها الآن. لم نرغب في الدخول ولم ندخل. لكن في الدول الثلاث، العراق وسوريا ولبنان، كانت سياسة إيران فعّالة. لم يكن لدينا وجود عسكري هناك، لكن العمل قد أُنجز. أُنجز عمل كبير ومهم. ماذا كانت نتيجة هذا العمل؟ هزيمة أمريكا في هذه البلدان الثلاثة. هؤلاء أرادوا السيطرة على العراق، لكن لم تتحقق تلك.

أرادوا الإطاحة بالحكومة السورية، لكن لم تحدث تلك. أرادوا القضاء على «حزب الله» و «أمل» في لبنان. لم يحدث ذلك. لم يستطيعوا.

كانت هذه خطة ومخططاً أعدهما الأمريكيون بآلاف آلاف الدولارات، أي مليارات الدولارات، وآلاف الساعات من العمل الفكري لمئات أو ربما آلاف مفكريهم السياسيين. لقد أجروا هذه الاستعدادات من أجل إلحاق الضرر بإيران. لكن هذه الخطة والمؤامرة أحبطتهما القوة العظيمة والفعّالة للجمهورية الإسلامية، وكان المظهر والراية لهذه القوة العظيمة شخصٌ اسمه الحاج قاسم سليماني. صار من الواضح لماذا اسم الحاج قاسم سليماني محبوب لدى الشعب الإيراني إلى هذا الحد، ومبغوض لدى أعداء إيران إلى هذه الدرجة، إذ يغضبون ويغتاظون من ذكر اسمه. كان الحاج قاسم سليماني (رضوان الله تعالى عليه) الراية لسياسة الجمهورية الإسلامية في مواجهة العدو وقد أحبط المخطّط العميق للعدو.

حسناً، أيها التعبويين الأعزاء، أيها الشباب، الآن مع هذا البيان الذي أدليت به، جسّدوا مشهد المعركة بين الجمهورية الإسلامية والأعداء: أين ساحة هذه المعركة الكبيرة، أين القضيّة؟ ليست القضيّة بضعة أشخاص من أعداء الثورة داخل البلاد. حينئذ تعرفون سبب إصرار العدو على «الاتفاق ٢»، «الاتفاق ٣» [على شاكلة الاتفاق النووي]. ماذا يعني «الاتفاق ٢»؟ الاتفاق الثاني يعني أن على إيران مغادرة المنطقة كلياً والتخلّي عن حضورها الإقليمي. ماذا يعني الاتفاق الثالث؟ يعني أن تتعهد إيران ألا تنتج أيّ أسلحة إستراتيجية مهمة، وألا تمتلك طائرات دون طيار ولا صواريخ، وإذا ما قرّرنا مهاجمتكم في يوم ما، فتعالوا وواجهوا دباباتنا بـ «ج ٣» (3G) والبندقية! هذا معناه، وهذا [سبب] إصرارهم. وفي الداخل أيضاً، كان بعضهم يردّدون كلامهم، ربّما بسبب الغفلة. [إذن] هذه هي ساحة المعركة، وأنتم تقاتلون في هذا الميدان. إنّ حضور التعبئة في البلاد يعني التصدّي لمثل هذه المؤامرات الكبيرة. أنتم الذين

ناضلتم ودافعتم عن العتبات المقدّسة، ووقفتم ضدّ جماعة أمريكية الصنع، أي «داعش». أنتم الذين ساعدتم مقاتلي لبنان الشجعان بأي طريقة ممكنة، كما ساعدتم الفلسطينيين أيضاً، ولا تزالون تفعلون، فلا نزال نساعدهم.

ميدان المعركة مثل هذا الميدان. هو ليس ميدان أربعة أشخاص من مثيري الشغب في الشارع. بالطبع، هذا لا يعني تجاهل هؤلاء. لا بل تجب معاقبة كل مثير للشغب، وكل إرهابي، ولا شكّ في هذا، لكن الميدان ليس مجرد هذه الساحة، فهو أوسع بكثير من هؤلاء وأعمق بكثير، وأنتم تقفون في منتصف هذا الميدان. أريد أن يعرف التعبوي قدره. اعرفوا قدر التعبئة. إنكم تقاتلون في مثل هذا الميدان. لا تشغلوا أنفسكم بهذه الأمور الجزئية من حولكم. بالطبع، تجب معالجة هذه الأشياء أيضاً، فهذه المواجهة مع مثيري الشغب من أهم مهمات التعبئة، لأن هؤلاء هم أدوات أولئك أنفسهم الذين أخفقوا في تلك الخطة الكبرى. لقد أخفقوا هناك، فيريدون دخول الميدان بطريقة أخرى، ولذا يطلقون أعمال الشغب هذه. أحدهم يهتف وآخر يكتب وثالثٌ يفعل شيئاً آخر. إذن، على التعبويين ألا ينسوا أن الصراع هو مع الاستكبار العالمي، فالمواجهة الرئيسية هناك. الآن هم يواجهون هؤلاء أيضاً، لكن العدو الرئيسي هناك، والمواجهة الرئيسية هناك. هؤلاء الأربعة إما غافلون أو جاهلون أو غير مطلعين أو تلقوا تحليلاً خطأً أو بعضهم مرتزقة. [لذا] العدو الرئيسي هناك، والمواجهة الرئيسية هناك.

هنا ما يبعث على الأسف حقّاً. يدعي بعض الناس الوعي السياسي لكن تحليلاتهم في بعض الصحف أو أجزاء الفضاء المجازي تجعل الإنسان يتأسّف حقّاً. يقولون: إذا أردتم أن تتمكّنوا من إنهاء أعمال الشغب التي بدأت في البلاد خلال الأسابيع الأخيرة وإسكاتها - مَن يقولون هذا هم أولئك الذين يدّعون أنهم سياسيون ومن أهل العمل السياسي وعلى اطلاع على الوضع العالمي! - فعليكم أن تعالجوا مشكلتكم مع

أمريكا. يكتبون هذا صراحة! يكتبون صراحةً أن عليكم حل مشكلتكم مع أمريكا، أو يقولون: يجب أن تسمعوا صوت الشعب. لقد رأيت هذين التعبيرين في الكتابات: عالجوا مشكلتكم مع أمريكا، واسمعوا صوت الشعب!

حسناً، كيف تُحلّ المشكلة مع أمريكا؟ هذا سؤال حقيقيّ وجدّي. نحن لا نرغب في أن نتشاجر مع بعضنا بعضاً، بل نسأل: كيف تُحلّ المشكلة مع أمريكا؟ هل تُحلّ بالجلوس والتفاوض وأخذ الالتزامات منها؟ هل تحلّ بأن نجلس ونتفاوض معها ونأخذ الالتزامات كأنّ عليكم أن تفعلوا كذا وألّا تفعلوا كذا؟ في «إعلان الجزائر» بشأن قضيّة تحرير الرهائن عام ١٩٨١، جلستم مع أمريكا وتحدّثتم إليها. كنت آنذاك نائباً في «مجلس الشورى» - طبعاً لم أكن داخل المجلس بل في الجبهة، في الأهواز - وقد جلس هؤلاء السادة في طهران وتحدّثوا مع الأمريكيّين عبر الجزائر دون أن يقابلوهم - طبعاً كان قراراً من «مجلس الشورى» ولم يكن عملاً غير قانوني - فأبرموا اتفاقاً وأخذوا التزامات عدة: فلتحرّروا ثرواتنا، ولتزيلوا الحظر، ولا تتدخّلوا في شؤون بلدنا، ونحن في المقابل سوف نحرّر الرهائن. حرّرناهم، فهل عملت أمريكا بالتزاماتها تلك؟ هل رفعت الحظر؟ هل أعادت إلينا ثرواتنا المجمّدة؟ كلا! أمريكا لا تفي بالتزاماتها. حسناً، هذا في ما يرتبط بالتفاوض والجلوس مع أمريكا... أو بشأن بالاتفاق النووي. قالوا: لو قلّصتم نشاطكم الصناعي النووي - طبعاً لم يجرؤوا على القول بإيقافه كلياً - وخفّضتموه إلى هذا المقدار، فسوف نفعل هذه الأعمال: سنُزيل الحظر ونفعل هذا العمل وذاك. هل فعلوا تلك الأعمال؟ لم يفعلوها طبعاً. التفاوض لا يحلّ مشكلتنا مع أمريكا.

نعم، ثمة شيء وحيد يحلّ مشكلتنا مع أمريكا. ما هو؟ أن نرضخ لابتزازها. ليس مرّة واحدة، فالأمريكيّون لا يقتنعون أيضاً بالرّضوخ للابتزاز مرّة واحدة. نرضخ لهم اليوم فيعودون غداً ليعاودوا الابتزاز، ثمّ نعاود الرّضوخ، فيعودون بعد غد

ويبتزّون بشيء آخر، ثمّ علينا الرّضوخ مجدّداً. اليوم يقولون: أوقفوا [التخصيب] النووي - أولاً يقولون: أوقفوا التخصيب بنسبة ٢٠٪، وبعدها ٥٪، ثم لملموا بساط البرنامج النووي – وبعد ذلك تغيير الدستور، ثم إزالة «مجلس صيانة الدستور»... الأمريكيّون يمارسون الابتزاز. عليكم أن تفعلوا هذا الأمر إذا رغبتم في حلّ مشكلتكم معها: أن ترضخوا للابتزاز باستمرار. هذا ما تريده أمريكا: أن تحبسوا أنفسكم خلف حدودكم، وتنفضوا أيديكم، وتوقفوا صناعاتكم الدفاعيّة. أيّ إيرانيّ غيور مستعدٌّ للرضوخ لمثل هذا الابتزاز؟ لا أتحدّث عن [المناصر] للجمهوريّة الإسلاميّة، فقد يكون أحدهم غير مقتنع بالجمهوريّة الإسلاميّة لكنّه إيراني ولديه الحميّة الإيرانيّة، وهو أيضاً ليس مستعدّاً للرضوخ لهذه الابتزازات. أمريكا ليست مقتنعة بأقلّ من هذا. لماذا لا يستوعبون؟ التفاوض مع أمريكا لا يحلّ أيّ مشكلة. إذا كنتم مستعدّين أن ترضخوا للابتزاز، وليس مرّة أو مرّتين، بل على نحو متتالٍ وفي القضايا الأساسيّة كلّها، وأن تتنازلوا عن خطوطكم الحمر، نعم، حينئذ لن يكون لأمريكا شأنٌ بكم، كما كانت الحال في العهد البهلوي. لقد ثار الناس [للتخلص من] هذا الأمر، وقدّموا هذا الكم من الشهداء من أجل ذلك. هذا البلد الذي يتقدّم على هذا النحو، وهؤلاء الشباب الذين يعملون على هذا النحو في الميادين كافّة، هل ينبغي التحدّث معهم بهذا الأسلوب؟ هل ينبغي أن يقال لهم هذا؟

أو يقولون: اسمعوا صوت الشّعب! لقد علا دويّ الشّعب كالرّعد في «١٣ آبان» من هذا العام، فهل سمعتموه؟ فلتسمعوا أنتم صوت الشعب. كم مرّ على تشييع جثمان الشهيد سليماني؟ تلك الحشود الضخمة كانت صوت الشعب الإيراني، وتشييع عشرة ملايين لذاك الجثمان أو يُمكن القول إنّهم كانوا أكثر من عشرة ملايين كان صوت الشعب الإيراني. تشييع جثامين الشهداء اليوم هو صوت الشعب

الإيراني. ما إن يُستشهد شخصٌ في أصفهان وشيراز ومشهد وكرج، وفي أيّ مكان آخر، حتّى تنطلق جموع النّاس الغفيرة ويطلقون الشعارات ضدّ الإرهابيّ ومثير الشّغب. هذا هو صوت الشعب الإيراني، فلماذا لا تسمعون صوت الشّعب؟

حسناً، هذا ما أردت قوله في ما يتعلق بموضوع التعبئة. الوقت بدأ ينفد الآن، وأودّ أن أقدّم بعض التوصيات إليكم، أيها الإخوة [والأخوات] التعبويّون الحاضرون هنا وفي أيّ مكان آخر من البلاد حيث تسمعون هذا الكلام. النصيحة الأولى هي أن تبقوا تعبويّين! فلتسألوا الله أن يساعدكم على البقاء تعبويّين، ولتحافظوا على الروح التعبوية والإيمان التعبويّ.

الثانية: فلتعرفوا قدر أنفسكم، لا أن تتفاخروا. كلا! ميزة التعبويّ هي تجنب التفاخر، لكن اعلموا أيّ موضع مهمّ وفّقكم الله المتعالي لاختياره وقد اخترتموه، فلتعرفوا قدر هذا الأمر.

الثالثة: فلتعرفوا عدوّكم، ولتدركوا أوّلاً مَن هو العدوّ. لا تخطئوا في تشخيص العدوّ. وعندما تعرفون العدوّ، اعرفوا نقاط ضعفه ومكامن عجزه. يحاول العدوّ دائماً أن يُظهر نفسه لكم قويّاً وضخماً. حاولوا أن تعرفوا الحالة التي يعيشها العدوّ، وما هي مكامن الضعف والعجز ونقاط الضعف لديه. فلتعرفوا العدوّ ومخططاته. كثيرون يُباغَتون من مخططات العدوّ. [احذروا] أن تُباغتوا.

التوصية التالية هي تساميكم الروحي. فلتنظروا في مستوى تساميكم الروحي وتقيسوه. التفتوا هل تتقدّمون إلى الأمام أو تتراجعون إلى الخلف، هذا أمرٌ مهمّ. انظروا ما الأعمال الصالحة التي فعلتموها في الشهر الماضي وما الحركة الحسنة التي أديتموها، وأيّ مساعدة قدّمتم أو - لا سمح الله - ما العمل السيّئ الذي فعلتموه، وهل كَثُرَت أعمالكم الخيّرة في هذا الشهر أو قلّت؟ أو على سبيل المثال: ذاك العمل السيّئ الذي كنتم تفعلونه، هل زادَ فِعلكم له أو تراجع؟ قيسوا

هذه الأمور. اسعوا إلى التقدم وحثّوا الخطى نحو الأمام.

حسناً، قلنا: **فلتعرفوا أساليب العدوّ**. إنّ أهمّ أساليبه اليوم التزييفُ ونشر الأكاذيب، فأهمّ ما يفعله العدوّ الآن، أي قنوات التلفاز هذه التي تعلمون وترون أنها تابعة للعدو أو الفضاء المجازي هذا حيث ينشرون خبراً كاذباً، وتحليلاً كاذباً، ويُقدّمون قتيلاً مزيّفاً، وكذباً يجعلون الأشخاص أحدَهم سيّئاً والآخر صالحاً، ويُصدّق بعض الناس ذلك أيضاً. فلتعلموا أنّ العدوّ يعمل اليوم من منطلق الكذب ونشر الأكاذيب. حسناً، حين تعلمون بذلك تترتّب مسؤوليّة على عاتقكم بطبيعة الحال. فلتُبيّنوا. هنا أحد مواضع «جهاد التبيين» الذي تحدّثنا عنه[١٢].

قلنا: تعرّفوا إلى نقاط ضعف العدو. واحدة من النقاط التي تضر العدوّ هي امتلاككم البصيرة، فهو يتضرّر من بصيرتكم. اسعوا إلى تعزيزها. يسعى العدو للسيطرة على العقول، فالسيطرة عليها ذات قيمة أكبر بكثير لديه من السيطرة على البلدان. إذا تمكنوا من السيطرة على عقل شعب ما، فإن ذاك الشعب سيقدّم أرضه إلى العدو بكلتا يديه. لا بدّ من صون العقول... [إذاً] السيطرة على العقول! بعض الأشخاص لم يكذبوا بأنفسهم لكنّهم أيّدوا كذبة العدوّ، للأسف. احرصوا ألا تقعوا وأناسكم في مثل هذه الأخطار، فلتساعدوا أناسكم.

أيضاً فلتحافظوا على استعدادكم العمليّ. لا تنبغي مباغتتكم. تحدث هذه المباغتات في عالم السياسة كثيراً. لديهم أساليب متعدّدة أيضاً، وسوف أذكر إحداها الآن. من ممارسات العدوّ أنّه ينفذ أمراً معيّناً في نقطة ما مع إثارة الجلبة والضجة لكي يلفت الأنظار كلّها إلى تلك النقطة، ثمّ ينفذ ذاك العمل الأساسي الذي يريده [في مكان آخر]. تكون الأنظار كلّها شاخصة نحو تلك الجهة، وغير ملتفتة إلى هذه الجهة. علينا جميعاً أن نكون حذرين خاصّة مسؤولي البلاد. ينبغي لمسؤولي البلاد أن يلتفتوا إلى أطراف البلاد وداخلها وخارجها والنواحي كافة،

فأطراف البلاد مهمّة لنا أيضاً. بالنسبة إلينا غربيُّ آسيا منطقة مهمّة، والقوقاز مهمّة أيضاً، وكذلك المناطق الشرقيّة للبلاد. إنها كلّها مهمّة. يجب أن نكون متنبّهين إلى هذه الأماكن كلّها لندرك ما الذي يسعى العدوّ لفعله، وعلى الجميع أن يبذلوا الجهود في هذه المجالات. هنا توجد نقطة أيضاً، خاصّة خلال كأس العالم [لكرة القدم]. لقد أعدّوا لي فهرساً يضمّ الأعمال التي جرت خلال مختلف الفترات السابقة لكأس العالم، إذ استغلّوا عنصر المباغتة، لأنّ الأنظار كلّها شاخصة نحو كأس العالم خلال مدة كأس العالم التي تمتد أسابيع عدّة أيضاً. كثيرون يستغلون هذه الغفلة العالميّة وينفذون بعض الأمور. حسناً، ذكرنا كأس العالم. أقرَّ لاعبو منتخبنا الوطني عيون شعبنا يوم أمس، قرّت عيونهم، إن شاء الله. لقد أفرحوا الناس يوم أمس. كانت هذه توصية أيضاً.

قبل أن أقدّم التوصية الأخيرة، فلتحذروا من تغلغل العدوّ داخل مجموعة التعبئة. فلتلتفتوا إلى هذا الأمر: أحياناً قد يرتدي إنسانٌ فاسد وسيئٌ زيّاً مزيّفاً، ويزجّ بنفسه ضمن فئة ما، فيرتدي زيّ الحوزويين ويزيّف نفسه برداء الحوزويين. الشخص الفاسد والسيئ قد يُظهر نفسه بالزّي الحوزوي أو الزيّ التعبوي، فانتبهوا إلى هذا الأمر أيضاً، وهذه توصيةٌ أخرى أيضاً.

توصيتي الأخيرة هي آيةٌ قرآنيّةٌ: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ (آل عمران، ١٣٩).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش

[١] «صحيفة الإمام» (النسخة الفارسية)، ج ١١، ص ١١٧، خطاب في جموع حرس الثورة بطهران، (١٩٧٩/١١/٢٥).

[٢] «صحيفة الإمام» (النسخة الفارسية)، ج ٢١، ص ١٩٤، نداء إلى الشعب الإيراني وقوات التعبئة

بمناسبة أسبوع التعبئة، (١٩٨٨/١١/٢٣).

[٣] أقيم معرض لإنجازات التعبئة في مختلف المجالات في حسينية الإمام الخميني (قده).

[٤] د. سعيد كاظمي أشتياني (الرئيس السابق لمعهد رويان للأبحاث).

[٥] «صحيفة الإمام» (النسخة الفارسية)، ج ٢١، ص ١٩٤، نداء إلى الشعب الإيراني وقوات التعبئة بمناسبة أسبوع التعبئة، (١٩٨٨/١١/٢٣).

[٦] «صحيفة الإمام» (النسخة الفارسية)، ج ١٨، ص ١٢، خطاب في لقاء أعضاء مجلس خبراء القيادة، (١٩٨٨/١١/٢٣).

[٧] الفترة الممتدة بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٣.

[٨] جيمي كارتر.

[٩] خطبتي صلاة الجمعة في طهران، (١٩٨٠/٣/٢٨).

[١٠] جمال عبد الناصر.

[١١] رئيس الجمهورية العربية السورية في تلك المدة.

[١٢] كلمته في لقاء مع مداحي أهل البيت عليهم السلام بمناسبة ذكرى ولادة السيدة الزهراء عليها السلام، (٢٠٢٢/١/٢٣).

✍ في ذكرى الشهادة

أ. عباس النوري
باحث وأكاديمي من العراق

معالم مدرسة الحاج سليماني في إسقاط الهيمنة الأمريكية وتحديات مشروع المقاومة

يحدد إندور روبرتس صاحب كتاب: «القيادة في الحرب: دروس أساسية من أولئك الذين صنعوا التاريخ» عشرة دروس يتصف بها القادة العظماء: الطاقة على العمل، والقدرة على التخطيط والتكيّف، وذاكرة عظيمة، والحظ، وفهم الوجدان العام، وأعصاب متماسكة، وإصرار ملهم، والتعاطف، والوعي السياسي، وأخيراً اللامنطق في التوقيت المناسب. يمكن أن تنطبق هذه الصفات بسهولة على قاسم سليماني، بل كأن الكتاب عنه. لكن الصفة الأهم ربما في حالة الشهيد سليماني هي الأخيرة، أي القدرة على تجاوز المنطق في الوقت الصحيح. بمعنى أن على القائد امتلاك خيال سياسي خصب فلا تكبّله الوقائع الماثلة بين يديه، وقد كان سليماني يتمتّع بكل الخصائص التي تجعله شخصية لا يمكن أنْ تمحى من ذاكرة التاريخ، فهو مفكرٌ استراتيجيٌّ بامتياز ومخطط. كان يتمتع ببنيةٍ استراتيجية ذكيّة

وكانت له استشاراتٌ مع الجميع ويخوض مباحثاتٍ عميقةً حول مسائل المنطقة والوضع الدولي، وفي الوقت نفسه فقد مثّل المدرسة العسكرية النموذجية على مدى عقود، حتى أن الكثير من الخبراء والضباط المشاركين في حرب ١٩٦٧ يؤكدون على أنها يجب أن تُدرّسَ في الجامعات والأكاديميات الحربية.

ــ وكان رائداً في الدبلوماسية الجهادية بل ربما هو الذي أبدعها، في نفس الوقت الذي كان فيه جهادياً مقاوماً في الجبهات ومحارباً الاستكبار والاستعمار. فكان بالتزامن مع جهاده يحلّ القضايا السياسية بذكاءٍ قلّ نظيرُه كما فعل في قضية كردستان العراق نموذجاً، فكان دوره السياسيّ في ظل الأزمات الداخلية بارزاً، حيث كان قائداً تتخطّى قيادته وإدارته العسكرية والتنظيمية وتشكيله الجيش الدولي وقواته، حدود الوطن، والإقليم والفصائل والمذاهب والمجموعات.

ـ كان قارئاً جيداً، يقرأ الكتب. حتى وسط الحرب والمواجهة، كانت معه دواوين الشعراء. حتى أنه عند استشهاده كان يحمل معه ديوان أحد الشعراء. فلقد كان مثقفاً بامتياز ويدعم الثقافة والفكر والمطالعة والعلم مؤمناً بأنه سلاحٌ لا يقلّ أهميةً عن الجهاد. وفي هذا الصدد، تم نشر ٥٠٠ إلى ٦٠٠ كتاب حول مسائل المنطقة تحت إشراف الشهيد سليماني. وهذا كان أكثر ما صدر على مدى ٥٠ عاماً في هذا المجال.

ــ لعلّ إنجازات قاسم سليماني العسكرية غطّت وطغَت على خصائصه الإنسانية والعاطفية والأخلاقية فهو في الأذهان «العقيد» الذي لا يتصور أحدٌ أنه كان يبني مع البنّائين ويمشي حافي القدمين، وأنه ينزعج أمام المديح والألقاب وكان لا يرى نفسه أكثر من جنديّ!

ـ وهو الرجل الوطني الذي آمن بحركات التحرر العالمية واستشهد في

قلب الميدان وليس خارج الجبهات فاستحق لقب أيقونة التحرر، لقد كان عاشقاً للشهادة على مدة أربعةِ عقود. إنه العشق الإلهي! والثقة بالله، لم تكن أمراً عابراً أو كلاماً زائفاً، كان الشهيد سليماني يعيشُ الشهادةَ ويتنفّسُها، فنراه يردد دائماً على مسامع التواقين للشهادة بأن الشخص الذي لا يعيش الشهادة في حياته وفي سلوكه لن يموت شهيداً.

وبالرّجوع إلى التاريخ لقراءة استراتيجية المواجهة عند الشهيد سليماني مع تحديات المرحلة المتمثلة بمشروع الشرق الأوسط الجديد، فقد ستلم الشهيد سليماني مسؤولية قوة القدس في العام ١٩٩٨ حين كان النظام الإقليمي الأميركي يبدو صلباً ومتماسكاً. لكن خلال ٢٢ عاماً، حتى تاريخ شهادته، تمكّن مشروع المقاومة من أن يجعل الحديث عن «شرق أوسط ما بعد أميركا» مألوفاً حتى في واشنطن نفسها، وأن تمتلىء صفحات التقديرات الأمنية الإسرائيلية بالحديث عن المخاطر الاستراتيجية، وأحياناً الوجودية، التي يمثلها مشروع المقاومة.

في المقابل دأبت كل من واشنطن وتل أبيب وملحقاتهما في الإقليم على محاولة الاستجابة والتكيّف مع التحديات والتهديدات التي فرضها مشروع المقاومة. هنا تحقق القوّتان بعض النجاحات بالاستفادة من موارد القوة المادية الهائلة وطبيعة النظام الدولي وفعالية المؤسسات الأمنية والسياسية والتقدّم التكنولوجي النوعي والمتسارع وكذلك تداعيات الحروب الأهلية والانقسامات المحتدمة على مدى المنطقة. فالصراع هو تفاعل إستراتيجي ديناميكي، وهو في عالم اليوم يشبه لعبة شطرنج تدور بشكل متواز على عدة رقع متجاورة ومتصلة على شكل شبكة. وعليه، من طبيعة الأمور أن يكون مشروع المقاومة بدوره أمام تحديات مستمرة ما دام الصراع محتدما.

لقد قاد الشهيد القائد قاسم

سـليماني حركـة الإطاحـة بمشـروع الشـرق الأوسـط الجديـد مـن خـلال مقارعة الاستكبار في كافـة الجبهـات، حيث كـان الأب الراعـي لكـل فصـائل المقاومة الفلسطينية والحاضر في كـل عملياتها في الميادين والساحات. فلقـد كـان العقـل المـدبر والمعمـار والـزعيم الرئيسي لمواجهة المشـروع التقسـيمي والمشروع التكفيري في نفس الوقت.

لقد شكَّلت كلٌّ من بلاد الرافـدين، بـلاد الشـام، وادي النيـل، هضـبة الأناضـول، والهضـبة الإيرانيـة، محـوراً لحركة التـاريخ ممـا يزيـد علـى ٥ آلاف عام، فمنها بدأت الحضـارة الإنسـانية، وفيها تشكَّلت ملامـح الـدول وظهـرت أولـى الإمبراطوريـات العـابرة لمنـاطق واسعة في القـارات الـثلاث وفقـاً لـذاك الـزمن. وتناوبـت السـيطرة عليهـا إمبراطوريات متعددة، لتعبّر عن حيويـة المنطقـة ككـلّ كمركـز لصـناعة الحضـارات المتتاليـة، بتـداخل ثقـافي متنقل مـن منطقـة إلـى أُخـرى بشـكل تراكمي، حيث لا يمكن الفصل في مـا بينها بحكم التـداخل الشـديد لحركـات شعوبها وما تحمله من تبـادل للثقافـات بألوان خاصّة بكلّ منطقة.

اسـتمرت هـذه المنـاطق فـي سيطرتها على حركة التاريخ حتى مطلع القـرن الثـامن عشـر، حـين بـدأ انزيـاح الفعل الحضـاري نحـو الغـرب، بعـد أن استطاع هضم خلاصـة حضـارات هـذه المنطقة، وأنتج ثـورة معرفيـة متسـارعة ومتوسعة أتاحت لـه السـيطرة والهيمنـة على حركة التـاريخ فـي القـرون الثلاثـة التاليـة، مترافقـة بهـواجس لـم تفارقـه، خشـية عـودة هـذا الشـرق إلـى ذاتـه، وإعادة إنتاج نفسه بصيغة جديدة يتصدر من خلالها المشهد العالمي، بما ينهـي هيمنـة الغـرب علـى مقـدرات العـالم وتوقف عمليات نهب الشعوب.

قادت كلّ من مصر وسوريا مشروع المواجهة مع المشروع الغربي المتمثـل بـ «إسرائيل» منـذ مطلـع الخمسـينيات وحتى حـرب أكتـوبر فـي العـام ١٩٧٣،

لتخرج بعدها مصر تدريجياً من الصراع، إلى أن وقعت اتفاقية «كامب ديفيد» في العام ١٩٧٨، ما دفع سوريا إلى أن تكون شبه وحيدة، مع إحباط شعبي كبير.

لم ينقضِ سوى ثلاثة أشهر من جو القلق المسيطر على شعوب هذه المنطقة حتى بدأت تباشير التغيير بالتعبير عن نفسها من الهضبة الإيرانية، بثورة لم يشهد التاريخ بسعتها وعمقها وحيويتها وشعبيتها.

اتخذت الثورة بعد الإعلان عن نفسها كمشروع دولة إسلامية بعداً تحررياً مستقطباً لكل القوى التحررية في العالم، وتأكيداً للدور المحوري التاريخي للهضبة الإيرانية في وضع أسس مستقبل جديد لها وللمنطقة الممتدة من أفغانستان شرقاً إلى بلاد الرافدين وبلاد الشام غرباً، ومن ثم إلى مركز الحضارة المغيب جنوباً في اليمن.

من هنا تأسَّس الفعل الجديد الذي يعتمد على شرعيتين لاستمرار الثورة، من خلال دولة تعتمد في بقائها واستمرارها على شرعية التأسيس، وبوصلتها ضرورة تحرير فلسطين وإسقاط الكيان الغاصب، والثانية شرعية الدور الذي لا يمكن إنجازه ببقاء هذا الكيان الذي ترتبط به مجموعة كبيرة من الأنظمة السياسية الخادمة له، والتي تعتمد ببقائها على بقائه.

أدركت القيادة الإيرانية طبيعة المخططات الأميركية للمنطقة باكراً قبل احتلال العراق، ما دفعها إلى التفكير في تحويل هذا التهديد الجديد إلى فرصة جديدة من أجل حياكة مشرق خارج الهيمنة الأميركية، والذي بقي العراق فيه عصياً على المشروع المقاوم، رغم توفر عناصر أساسية له.

تبدَّت عبقرية الشّهيد حائك المشرق مع انتقاله إلى العراق للعمل على تشكيل بنية مقاومة في ظروف شديدة التعقيد، وفي أجواء دخل فيها معظم العراقيين في سكرة أحلام العراق المتحرّر على يد جيش

«الشـــيطان الأكبـــر»، والانقســـام السياسي والمذهبي الكبير حتى على مستوى المذهب الواحد، وأجواء تقلب المزاج العام والفردي الذي جعل الكثير من الشخصيات العراقية تُمسي على شيء وتُصبح على شيء مختلف ومناقض، إضافة إلى قدرة الولايات المتحدة على استقطاب قسم كبير من الشارع العراقي. ورغم ذلك، استطاع بطبيعة شخصيته الفولاذية الهادئة أن ينسج بيئة مقاومة أجبرت الأميركيين على الخروج منه في العام ٢٠١١.

بدأت مهمة الشهيد الأصعب لمنع تمزيق نسيج المشرق المقاوم مع منتصف شهر آذار/مارس ٢٠١١، والذي تابع العمل عليه بأناة ودقة، فسقوط سوريا وخروجها من محور المقاومة سيشكل كارثة لكل ما تم بناؤه خلال أكثر من ٣ عقود. وقد تحول إلى الإقامة في سوريا، متنقلاً من منطقة إلى أخرى، لتقديم الاستشارات العسكرية كبداية.

مع تطور وتسارع التدخل الغربي الفاضح، والتمويل القطري-السعودي للمجموعات التكفيرية التي تم تصنيعها في الداخل السوري بعنوان «الجيش الحر»، والإتيان بالتكفيريين من أكثر من ٨٤ دولة، والضخ الإعلامي الكبير، بما يهدد سقوط واسطة عقد المقاومة، كان لا بدَّ من التحرك بشكل أوسع، وخصوصاً أن الحرب غير المتماثلة لا تسمح للجيوش النظامية بمواجهة المجموعات العسكرية السريعة الحركة.

ومن هنا، تأتي أهمية الإنجاز الكبير الذي حقَّقه بالتحوّل إلى المواجهة المتماثلة من خلال استخدام وسائل الجيوش النظامية كعنصر مساعد للحركة السريعة للقوات المدربة على ذلك، إن كان من السوريين أو من عناصر حزب الله اللبناني، الذي كان أوَّل الحاضرين لإنقاذ دمشق وبقية القوات من قوى المقاومة العراقية والأفغانية والإيرانية، وكان القرار المتخذ من قبل القيادة الإيرانية بعد رفض كل

قوى المعارضة لأي حل سياسي بمنع سقوط سوريا هو الدافع الأكبر لعمل هذه القوى لأجل ذلك الأمر، وقد استطاعت القيام بذلك لعدة سنوات، إلى أن رفع حلف الناتو تدخله ودعمه للمجموعات التكفيرية المسلحة.

وهنا، كان لا بد من إقناع القيادة الروسية بضرورة التدخل عسكرياً، ولَم يكن هناك خير من الشهيد سليماني لإقناع الرئيس الروسي بطلب من السيد الخامنئي، وهو ما نجح به، وتم الاتفاق بين الطرفين بموافقة دمشق التي كانت تدرك طبيعة الحرب الدولية التي تُشن عليها لتغيير موقعها الجيوسياسي، بما يخدم استمرار الهيمنة الأميركية وتحقيق أمن «إسرائيل» وحفظ دورها.

كانت رؤية سليماني واضحة من البداية بأن هذا المشرق لا يمكن أن تقوم له قائمة إذا لم يتم توحيد جبهات المواجهة والمقاومة في كل مناطقه، وهو الذي أدركته الولايات المتحدة و «إسرائيل»، فكان لا بدَّ لهما من إطلاق مشروع موازٍ يعمل على تدمير المنطقة، لا دفعها نحو إطار التعاون والشراكة، ولَم تجد خيراً من إطلاق «داعش» لتنفيذ ذلك.

الإيمان بوحدة جبهات المواجهة ووحدة القوى المقاومة دفع سليماني إلى أن يستنفر قواه إلى الحد الأقصى، لقيادة المعارك ضد داعش في العراق وسوريا، إدراكاً منه بأن دحر هذا التنظيم هو إسقاط لمشروع «الشرق الأوسط الجديد» الذي أسقط أول مرة في حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦.

وقد استغرق العمل على ذلك ٣ سنوات، إلى أن استطاعت قوى المقاومة الالتقاء على جانبي الحدود العراقية السورية في مدينة البوكمال في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٧، برمزية عالية المستوى بأن مستقبل هذا المشرق لأبنائه المقاومين، ولا وجود فيه لكل أشكال الهيمنة الغربية، ولا لـ «إسرائيل» ذاتها.

لم تكن حركة الشهيد منذ العام ١٩٩٨ وحتى استشهاده تعرف الاستقرار، فعلى الرغم من تعدد جغرافية جبهات المواجهة، فإنه كان ينتقل في ما بينها ناسجاً بأناة خيوط سجادة جديدة تمتد من أفغانستان إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، بعنوان «محور المقاومة»، مدركاً أنَّ هذه المنطقة الواسعة تحتاج إلى نمط جديد من الحياة يرتكز على القواسم الثقافية المشتركة والتاريخ المتحرك وتداخل شعوبها، وأن عليها أن تنتقل إلى إطار من التعاون والشراكة المبنية على المصالح التي تنعكس على شعوبها جميعاً بحياة أفضل، وأنها بذلك تستطيع أن تستعيد دورها المحوري في عالم جديد يتم العمل على تشكيله بالتحرر من الهيمنة الغربية.

قد عمل هذا القائد الكبير بصمت وتصميم وغالبا خلف الخطوط في مسرح مكشوف وواضح المعالم وشديد التعقيد في آن معا، خاض جهاده في ساحات متشابكة، وفي مواجهة جبهة من الاعداء وفي ميدان مترام الاطراف، وببيئات اجتماعية وسياسية متباينة ومتنافرة، ومع ذلك تمكن من تحقيق الكثير من أهدافه في زمن قياسي وبأساليب مثلى وبأقل الاثمان.

لقد خاضت قوى المقاومة صراعا طويلا مع الاحتلال الصهيوني، وتوّجت المقاومة الاسلامية هذا المسار التي شاركت فيه قوى متعددة الانتماءات والغايات والايدولوجيات، توّجت المقاومة ذلك بتوليد النموذج المؤسس للصراع مع العدو الاسرائيلي في ٢٥ ايار عام ٢٠٠٠، من خلال اجلاء الاحتلال بقوة السلاح دون قيد او شرط، ثم ترّسخ هذا النموذج من خلال الهزيمة المشهودة التي أُلحقت بالعدو عام ٢٠٠٦، وها نحن نتطلّع اليوم وبعد ما شهدته المنطقة من صراعات وغزوات وحروب، الى استكشاف ملامح نموذج مؤسس آخر يستكمل ما بدأته المقاومة، ويبني على انجازاتها في مواجهة

الهيمنة الامريكية بكل وجوهها العسكرية والامنية والثقافية والسياسية، وبكل تجلياتها وامتداداتها وادواتها التي تبدأ بالأنظمة التابعة ولا تنتهي بالرهاب التكفيري من هو غير التكفيري، واذا كان النموذج المؤسس الذي كوّنته المقاومة يعد مثالا لحركات التحرير بوصفها مدخلا للتحرر الوطني وبناء الامم والاوطان، فان النموذج الذي قاده الشهيد سليماني وتحالف المقاومة عموما في صراعه مع الهيمنة، انما يساهم في اعادة بناء النظام الاقليمي، ومن ثم النظام الدولي على قاعدة التعدد والتنوع واحترام الخصوصيات، لقد أخطأت أمريكا والغرب بشكل عام حين اعتبرت أنَّ المجتمعات العربية والإسلامية تختزل بشخص رموزهم، وإن التعامل مع هذه الرموز يغنيهم عن التعامل مع الشعوب، وإذا كان الرمز مناهضا لسياساتها، فالعمل على إخراجه من الساحة يشكل انتصارا استراتيجيا يغير في المعادلات وموازين القوى.

إنَّ المشهد الحقيقي في المنطقة، ما يتطابق مع تصورات المحور المعادي لمحور المقاومة. ومحور المقاومة قائم على أسس واضحة ومنظمة، لكن أهم من كل ذلك، هو أن المحور يحمل قضية ويقاتل من أجلها، بينما المحور المعادي هو محور مصالح فقط، والفرق بين القضية والمصلحة كبير، فالقضية هي مبادئ وفكر وأخلاق، وتجاوز الجغرافيا والزمن، بينما المصلحة محدودة في المكان والزمان وبالتالي غياب اي رمز من رموز المحور لا يلغي المحور ولا يؤثر في فعاليته، رغم الألم الذي يصيب الجميع، فالقائد سليماني، ليس أول قائد ولا آخر قائد يستشهد او يغتال او يعدم، فالقافلة طويلة ومستمرة في عطائها، في سبيل القضية التي استشهدت او أعدمت من أجلها، وهو الأمر الذي يميّز المقاومة ومحور التحرر من الاستكبار أنَّ قادته شهداء، وليس هناك تفاوت، بين جندي و قائد في الإقبال على الشهادة لتحقيق الهدف.

تحديّات محور المقاومة في مرحلة ما بعد (الشهيد الحاج قاسم سليماني)

يمكن إيجاز التحديات الماثلة أمام محور المقاومة في المنطقة ضمن ثلاث فئات:

أ ـ الردع

ب ـ الاحتواء

ج ـ البناء.

أوّلاً: في مجال الردع

١ ـ ضبط الانكشاف الأمني: يعاني مشروع المقاومة من بروز فجوة في الردع الأمني لصالح العدو الإسرائيلي الذي تزداد قدرته على الاختراق الأمني والعمل من دون بصمة داخل ميادين مشروع المقاومة بالتوازي مع صلابة حصانته الأمنية. هذا التقدّم يعكس في جزء منه نجاح المقاومة على مستوى الردع العسكري، ما دفع قادة العدو إلى تخصيص موارد هائلة لأدوات «المنطقة الرمادية». هذه القفزة الأمنية الإسرائيلية لها ظروفها المرتبطة بالتعاون الاستخباري العالمي مع كيان العدو وقدرة عملائه على التحرك بحريّة حول العالم والخبرة المتراكمة للمؤسسة الأمنية وانكشاف مجتمعات المنطقة للتجنيد البشري لأسباب مرتبطة بحروبها الداخلية وتداعياتها. إلا أنه يبدو أن عامل التكنولوجيا تحديداً قد بدأ يترك أثراً جلياً. فلا يُخفى أن كيان العدو من أكثر القوى تقدماً في مجال التكنولوجيا والأمن السيبراني وتطبيقات الذكاء الصناعي، وهذا كله يتم دمجه في المنظومة الأمنية والعسكرية الإسرائيلية. فالأقمار الاصطناعية التجسسية الإسرائيلية تغطي بكفاءة مساحات واسعة من المنطقة، وكذلك أدوات التجسس الرقمي والالكتروني ما يمنح استخبارات العدو كميات هائلة من الداتا الدقيقة مع برمجيات شديدة

التطور قادرة على معالجتها في وقت محدود، وتقديم خلاصات تتيح للعدو فك جملة من الأسرار والألغاز والأحاجي.

يوجب هذا الواقع على مشروع المقاومة تخصيص مزيد من الموارد المتاحة للمجال التكنولوجي لتوظيفه في الجهود الأمنية وتطوير آليات عمل مضادة، دفاعية وهجومية، متكيفة مع التقنيات الإسرائيلية المستجدة وترميم جزء من الردع الأمني بالردع العسكري كما يفعل حزب الله.

٢ـ **حفظ الردع العسكري**: يواصل مشروع المقاومة نجاحه في تحقيق ردع عسكري متقدّم ضد أبرز جيوش العالم، أي الجيشين الأميركي والإسرائيلي. تتفاوت متانة هذا الردع بين ساحة وأخرى، ولكنه متماسك في العموم. إلا إن جيش العدو الإسرائيلي تحديداً يُدخل تحسينات هجومية ودفاعية ملحوظة على منظوماته وهذا ما يوجب على قوى المقاومة مواصلة تعزيز عمليات بناء القوة وتحديثها. هجومياً عبر تطوير مشاريع الصواريخ الدقيقة كماً ونوعاً وفي مدى انتشارها، وكذلك برامج الطائرات المسيّرة وأدوات الحرب السايبرانية. ودفاعياً الاهتمام بكل ما من شأنه رفع الكلفة البشرية لأية مناورة هجومية للعدو (مثل الوحدات الخاصة، والتحصينات والمنشآت، ومنظومات التحكم والسيطرة، والصواريخ الموجّهة في البر والبحر) وتقليص تأثيرات التفوّق الجوي الإسرائيلي (منظومات للدفاع الجوي، وعمليات التضليل الأمني والدفاع السلبي). بالمجمل ينبغي تطوير أساليب القتال وتكتيكاته بما يتناسب مع تحوّل الجيش الإسرائيلي إلى جيش الذكاء الصناعي.

ثانياً: الاحتواء

١ ـ **تعطيل نتائج مسار التطبيع**، وأبرز هذه النتائج محاولة بناء شبكات إقليمية تعزل مشروع المقاومة، وتعزيز هامش المناورة الإسرائيلية في

المنطقة، وإنشاء نواة لحلف إقليمي، وتطويع الوعي العربي بما يكرس تفوّق المشروع الصهيوني وانتفاء جدوى المقاومة. وهنا يكون مشروع المقاومة أمام استحقاقات بناء شبكات تعاون إقليمي موازية (لا سيما في المجالات التي تنعكس على الحياة اليومية لعموم الناس)، ودمج الدول المطبّعة ضمن معادلات الردع العسكرية والأمنية (هنا يصبح لليمن أهمية مضاعفة ضمن مشروع المقاومة)، وتطوير الاتصال الشعبي لتقييد مفاعيل التطبيع الرسمي، ودعم مبادرات المقاطعة ونزع المشروعية عن كيان العدو. وكذلك حماية ثقة شرائح أساسية من مجتمعات وشعوب المنطقة بجدوى مشروع المقاومة وضرورته وقدرته على محاكاة الأسئلة الملحّة في الوجدان العام ولا سيما لدى الشباب والنخبة.

٢ ـ **الالتفاف على العقوبات الأميركية**، ستواصل واشنطن التركيز على استهداف خصومها في محور المقاومة بسلاح العقوبات المالية والحصار الاقتصادي نظراً لكلفته المتدنية وعوائده الملحوظة. أصبحت العقوبات جزءاً من طبيعة النظام الدولي الحالي، ويتيح تقدّم الاستخبارات المالية جعل العقوبات أكثر دقة لتعمل كسلاح موجّه يصيب قطاعات حساسة بذاتها. هنا تجد قوى المقاومة نفسها بحاجة لتقليص الاعتماد على الشبكات الرسمية للنظام المالي الدولي والتسلل إلى الشبكات غير الرسمية وبناء شبكات موازية مع قوى دولية وإقليمية متضررة من العقوبات والانضمام إلى سلاسل توريد معها. وفي الداخل يُفترض تطوير قطاعات التكنولوجيا بشكل أساسي، والسعي نحو الاكتفاء الذاتي في السلع الاستراتيجية أو تأمينها من مصادر مستدامة، وبطبيعة الحال أن تضمن قوى المقاومة نظماً اجتماعية تؤمن شروط الأمان الاجتماعي في الصحة والتعليم والسكن بما يعزز قدرة صمود الشرائح المهمشة.

٣ ـ **منع صعود جماعات العنف التكفيري مجدداً ولا سيما داعش**. تحوّل تنظيم داعش إلى حرب العصابات خلال العامين الأخيرين وهو يستفيد من المناطق الهشة المترامية جغرافياً والمأزومة ديموغرافياً بين سوريا والعراق وكذلك من التوظيف الأميركي المباشر وغير المباشر له، لتنشيط نفوذه وتكثيف ضرباته. يستفيد الأميركيون من هذا التنشيط، إضافة إلى استنزاف قوى المقاومة وحلفائها في سوريا والعراق، لشرعنة بقاء القوات الأميركية في كلا البلدين وربما زيادة عديدها عند الضرورة وكذلك ليحصل البنتاغون على موارد مستدامة تحت عناوين دعم الحلفاء المحليين (مثل قسد) و «ضمان استقرار المجتمعات المحلية». ليس من حل جذري قريب لمسألة داعش ولذا المطلوب استراتيجية بعيدة الأمد للتعامل مع وجودها وفق أولويات ميدانية وسياسية. ففي مناطق محددة ينبغي القضاء على مجموعات داعش، واحتواؤها في مناطق ثانية واستنزافها في أخرى، إلى حين توافر شروط إنهاء تهديدها.

ثالثا: البناء

١ ـ **صيانة المشروعية الداخلية**، تتيح سطوة التكنولوجيا وفجوة الموارد لمنظومة الهيمنة الأميركية أن تخوض حروب معلومات واسعة واستهدافاً ممنهجاً لعقول وقلوب المواطنين في مجتمعات الفواعل المعادية وذلك بفعالية عالية وكلفة محدودة، عدا عن البرامج الموجّهة للنخب خصوصاً. يتزامن ذلك مع ميل المجتمعات المعاصرة إلى رفع توقعاتها حول الرفاهية ومسؤولية السلطات السياسية عن ذلك مع القدرة على ممارسة النقد والاحتجاج. تخوض أميركا وحلفاؤها معركة شرسة لاقناع الرأي العام أن قوى المقاومة، أنظمة وأحزاباً، تتحمل مسؤولية تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بسبب الفساد وسوء الإدارة والانغماس في معارك

إيديولوجية «زائفة»، وكذلك أنها تمارس السياسة بالاقصاء وحكم القلة والسيطرة والاكراه. وتصبح هذه الحملات أشد تأثيراً بمقدار ما يشعر أبناء تلك المجتمعات بالأزمات في حياتهم اليومية ما يتيح خلق انقسامات تهدد استقرار القوى المعادية للمشروع الأميركي وشعبيتها.

لا تُبنى تلك المزاعم الأميركية على مجرد أكاذيب بل تستند أحياناً إلى وقائع مجتزأة أو محرّفة. إن قوى المقاومة معنية بالمواجهة هنا على مستويين: المستوى المعرفي/الخطابي بكشف ارتباط أزمات دول المنطقة ومجتمعاتها بطبيعة النظام الدولي النيوليبرالي وآليات الهيمنة المنطوية داخله وكيف يجري افقارها وامتصاص فوائض القيمة منها وعرقلة نهوضها عبر سياسات ممنهجة من الولايات المتحدة. وانطلاقاً من ذلك إبراز العلاقة المباشرة بين المواجهة العسكرية والسياسة مع المشروع الأميركي ونوعية الحياة اليومية لشعوب المنطقة. وعلى المستوى العملي/السياسوي عبر انشاء مؤسسات حديثة خاضعة للمحاسبة والشفافية مقرونة بهوامش من العمل السياسي والحريات والمشاركة الشعبية تسمح بقيام عمليات كفؤة لاقرار سياسات اقتصادية واجتماعية وقانونية تعزز المصالح العامة من دون التنكر لبعض ضرورات الصراع لكن وفق حاجات الحد الأدنى.

٢ـ **تطوير التحالفات والشراكات،** مع مواصلة تفكك النظام الإقليمي القديم للمنطقة تبرز أدوار لقوى دولية جديدة في المنطقة وتحدث انقسامات بين قوى إقليمية لطالما كانت ضمن المحور الواحد وتصعد حركات اجتماعية معاصرة. هنا يواجه مشروع المقاومة تحدي الاستفادة من هذه التحولات بشكل سريع وبناء مصالح مشتركة مع هذه القوى ولو في مجالات محددة حيث يبدو أن معظم هذه

القوى الدولية والإقليمية والمحلية لا يرغب أن يخوض في سياسة المحاور. إن قوة مشروع المقاومة ثم قدرته على إنشاء وحماية مصالح ذات مزايا تنافسية يرغب الآخرون بالانتفاع منها هي الضمانة لجذب هؤلاء الشركاء المحتملين. إن هذه الشراكات تستوجب الخوض في مساومات لتقاسم المنافع والأعباء ولبناء الثقة على المدى القريب ثم دمج الشركاء المحتملين والتكامل معهم ضمن شبكات مختلفة (الطاقة والتكنولوجيا والتجارة والنقل والمعرفة). والتحدي هنا أن منافسي مشروع المقاومة في المنطقة لديهم خططهم أيضاً في هذا المجال ولديهم أفضلية الموارد والمرونة والسرعة وخاصة بعد انطلاق قطار التطبيع.

٣ـ **انجاز تسويات سياسية/ اجتماعية**، مع الخمود النسبي للحروب الأهلية والانقسامات الداخلية الحادة بعد عقد على بدء الانتفاضات العربية عام ٢٠١١، تجد قوى المقاومة نفسها أمام تحدي التعامل مع مفاعيل تلك الأحداث عبر تسويات سياسية موضعية أو شاملة ومراجعات مشتركة مع بعض قوى الإسلام السياسي والتيارات القومية التي تشترك جميعها في كونها مأزومة ويلزمها البحث عن مسار مختلف. لا بد من تنظيم الخلاف مع ما أمكن من الحركات الاجتماعية وإدارته ثم الخروج منه بحسب السياقات الداخلية والاقليمية لكل حالة. كما أن قوى المقاومة مضطرة للتعامل مع ظاهرة الحراكات الشعبية المستجدة التي يسعى الأميركيون إلى تحويلها إلى ثورات ملونة في المجتمعات المعادية. إن هذه الظاهرة تنطوي على أبعاد حديثة تعكس أزمة النموذج النيوليبرالي والاهتمام المتزايد بالمستوى المحلي وقضايا العدالة الاجتماعية والتباين في توزيع المداخيل والثروات ومعاداة السلطة بما تمثل تحالفاً مع رأس المال بما يؤسس

لحكم «الأوليغارشية». وتتداخل هذه الظاهرة في بلادنا مع منافسات القوى الدولية والإقليمية والانقسامات الهوياتية بما يزيدها إلتباساً. على مشروع المقاومة استعادة مفهوم العدالة الاجتماعية وجعله ركناً في مشاريعه الداخلية ومعياراً للفرز في التحالفات والخصومات. إن القضية الاجتماعية عابرة للانقسامات الهوياتية التي تُفتعل بوجه مشروع المقاومة، وإن حماية إيمان الشرائح المهمشة بقضية المقاومة ضروري وحيوي.

٤ ـ **التشبيك البيني**، إن مشروع المقاومة أمام تحدي «الجغرافيا الوظيفية» الذي لا يقل أهمية في عالم اليوم عن الجغرافيا السياسية. لا غنى عن إقامة شبكات عابرة للحدود بين الدول حيث لقوى المقاومة حضور نافذ. إن إيديولوجيا المقاومة ما فوق الوطنية يجب أن تترافق مع بنى مادية عابرة للحدود تعزز من الروابط المصلحية المرتبطة بحياة شعوب هذه الدول ونموها ورفاهها. يمكن الانطلاق من مشروع واحد واختباره ثم البناء على نتائجه. مع إدراك الحاجات التمويلية الكبيرة لهكذا مشروعات وما ستواجهه من مقاومة ولكن المستفيدين المحتملين كثر أيضاً بما في ذلك قوى دولية ذات مصلحة. يحق لنا مثلاً أن نطمح بخط سكة حديد عصرية يصل من طهران إلى بيروت ينقل البضائع والمعدات والسياح والطلاب والخبرات وينشّط الاستثمارات ومتشابك مع خطوط أخرى تصل نحو تركيا والعمق الاسيوي. مع انطلاق قطار التطبيع سيشتد الصراع على بناء شبكات التكامل الاقتصادي في المنطقة، شبكات تجذب لاعبين وتهمّش آخرين.

خاتمة

مع فداحة الخسارة إلا أنَّ الشهيد سليماني رحل بعد أن أنجز القسم الأصعب من المهمة، أي أنَّ يحوّل

المستحيل إلى ممكن، فجعل ما بدا قبل عقودٍ لا منطقياً وجنوناً يظهر على أنه عين المنطق والضرورة. يشير روبرتس إلى أنَّ القائد العظيم قادر على جعل الجنود والمدنيين يؤمنون أنهم جزء من هدف أكثر سمواً من وجودهم حتى، وأنَّ يستشعروا بروح القائد مغروسة فيهم. لم يعد سليماني شخصاً بل أسطورة ورواية، وهي أمور قد لا يحتاجها كثيراً الأقوى مادياً لكنها لا غنى عنها للذين رأسمالهم الأساس في الصراع هو إيمانهم بقضيتهم وأرواحهم الحرّة وإرادتهم الصلبة على القتال. قتلت أميركا قاسم سليماني وهذا أمر متوقع بعد ٤٠ عاماً من حربه المفتوحة ضد إمبراطوريتها، لكنها في اللحظة عينها توّجته قديساً في حكايات النضال العالمي ضد الاستعمار والهيمنة. مضى الشهيد سليماني لكنه «ما زال حياً» كما ورد في تقدير إسرائيلي حديث. فقادة العدو تحت وطأة كابوس ما يعتبرونه الخطة الكبرى لسليماني وإرثه الأكثر رعباً، ألا وهي زرع محيط كيانهم من لبنان وفلسطين وسوريا وصولاً إلى العراق واليمن حتى إيران بعشرات الالاف من الصواريخ الدقيقة من مديات مختلفة. هذا «اللا منطق» السليماني جعل لنا سهماً في صناعة مستقبل مختلف للمنطقة.

د. راشـــد الرّاشـــد
كاتب وباحث / البحرين

الجـــذور الفـكريّة للقائد الشهـيد قاسم سـليماني

شخصيته ودوره في تطوير محور المقاومة

مقدمة:

إذا أردنا أن نقيم دور الشهيد الحاج قاسم سليماني في محور المقاومة؛ فإنه بالتأكيد يأتي من خلال أهمية الدور الإيراني ومركزيته وفاعليته في هذا المحور؛ لأن الشهيد سليماني كان انعكاساً وتجلياً لهذا الدور بكل تفاصيله؛ وإن كان للشهيد كعامل ذاتي- الدور المميز والحيوي؛ لأنه من الناحية الموضوعية دائما تبقى مساحة مهمة لهذا العامل؛ يحددها صاحبها من حيث قدرته على تجميع عناصر القوة وتفعيلها لاستخدامها من أجل تحقيق الهدف الاستراتيجي الذي وضع، والعمل للوصول إليه، فإيران منذ أربعين سنة لم تتوان - رغم الحروب التي منيت بها، والحصار الأمريكي والغربي الظالم - عن تقديم العون بأشكاله كافة؛ الاقتصادي والمالية والعسكري واللوجستي، للمحطات الأساسية المكونة لمحور المقاومة من العراق إلى سورية إلى لبنان وإلى فلسطين المحتلة واليمن؛ لأنها تدرك أن هذا الدعم يشكل أساس التصدي للهجمة الصهيوأمريكية على شعوب المنطقة، وأن العون المقدّم سيؤدّي في النهاية إلى الهدف الاستراتيجي الكبير وهو

القضاء على الكيان الصهيوني وإخراج الأمريكي من المنطقة لتنعم هذه الشعوب بالحرية والتقدم والازدهار.

من هنا، عندما نتحدث عن الشهيد الحاج قاسم سليماني، فإننا نرصد في الوقت ذاته دور الجمهورية الإسلامية في تحرير هذه المنطقة من قوى الظلام والتجبر والتكبر العالمي على شعوبنا العربية والإسلامية؛ هذا الدور الذي شكل قاعدة منتجة لنمط حضاري جمع بين الأصالة والحداثة المبنية على الأسس والقواعد الإسلامية والمدنية المعاصرة، وعلى الدولة التي حولت الحصار الغربي المتكبر إلى فرص نهضوية في التنمية والتطور في مجالات الاقتصاد كلها، وفي بناء جيش عقيدي امتلك وسائل القوة للدفاع أولا وللدفاع الهجومي ثانية، لتحقيق أمن مستدام لشعوب ودول المنطقة.

شخصية الشهيد الحاج قاسم سليماني امتلكت حضوراً محلياً وإقليمياً ودولياً فإنه من الضروري التعرف على خصائص هذه الشخصية لإلقاء الضوء عليها أولا، والاستفادة من الدروس التي قدمتها في بناء الأجيال؛ وفي الدفاع عن حقوق الشعوب وطرد الغزاة والمتجبرين كحال شخصية الشهيد سليماني، ففي دراستها وتحليل خصائصها استمداد قوة وعزيمة التحقيق النصر المنشود.

لقد تشبعت شخصية الشهيد سليماني من مصدرين مهمين وهما:

المصدر الأول: عقيدي مستمد من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، ومدرسة آل البيت ولاسيما الثورة الحسينية، التي تعد الثورة الأولى في العالم التي قامت خالصة لله تعالي ليس فيها إلا نصرة الحق والمظلومين، فشكلت منصة فكرية أولية انطلقت منها هذه الأسس الفكرية والقيمية، وهذا ما نجده لدى حفيد الحسين عليه السلام روح الله الخميني، الذي وجه الفكر الكربلائي في هذا العصر لتفجير ثورة

شعبية سلمية لم تحمل سلاح، بل حملت الورود لجنود الشاه عند كل مأزق، وانتصرت هذه الثورة رافعةً راية الحق والعدل والحرية تحت عنوان: «كل ما لدينا من عاشوراء، وكل أرض هي كربلاء».

ـ **المصدر الثاني**: ذوبان العام بالخاص؛ ذكرت وسائل الإعلام أن سليماني كان سيترشح للانتخابات الرئاسية في عام ٢٠١٧م (وهذا حقه) إلا أنه قال بحزم: سأبقى دائما جنديا بسيطة في خدمة إيران والثورة الإسلامية)، ان هذا الرد يعكس ذوبان العام بالخاص في شخصية سليماني، وأن البوصلة في المواقف الأساسية هي الوطن والثورة، وذلك في حماية الوطن وتحصينه ومنعته وقوته من جهة، والمحافظة على المنطلقات الأساسية الإنسانية، والوطنية، والدينية للثورة الإسلامية التي فجرها الإمام الخميني ﵀، وتجذرت مبادئها في الشباب الإيراني، ولاسيما في الجيل الأول الذي حمل لواء الثورة، الذي ينتمي إليه الشهيد قاسم سليماني.

وهكذا نصل إلى نتيجة مهمة هي أنَّ شخصية سليماني كانت قيادية متميزة، ميدانية فرضت سطوتها في المعارك التي شارك فيها على الجبهات كلها؛ في لبنان وسورية والعراق وإيران وأفغانستان، وهي شخصية فكرية وسلوكية نموذجية أوجدت القدوة الذي يقتدى به كحامل لفكر ثوري حق، وبتحصيل حاصل فهو مناهض للظلم، مجابه للظالمين حتى النهاية، وعلى الصعيد الشخصي الفردي والجمعي فقد تميز بصفائه وبساطته وعفويته وحبه وإخلاصه لقيمه ودينه وعقيدته، وكان مثال المسلم المجاهد في سبيل الله المنافح عن الحق والعدل والحرية إلى اللحظة التي استشهد فيها.

محورية سليماني في المقاومة

يصعب علينا فهم تطور محور المقاومة منذ تشكله بعد عام ٢٠٠٣ م،

من دون إظهار الدور الكبير الذي أخذه الشهيد البطل قاسم سليماني، فقد عمل في كل الجبهات التي فتحت ضد الوجود الأمريكي في المنطقة بدءا من أفغانستان، حيث أكد السفير الأمريكي ريان كروكر: «إن الدور النهائي للمفاوضين الإيرانيين في أفغانستان كان للجنرال سليماني خلف الكواليس».

وأكد بعض زعماء المقاتلين بأن قاسم سليماني قد دعم المقاومة في أفغانستان ضد الوجود الأمريكي، ولاسيما في الشمال حيث أقام، وقد وصفوه بأنه كان رجلا حكيما وشجاعاً، وكان دعمه لوجستيا و تنظيماً في التدريب وصناعة الألغام؛ وقد اكتسب ثقة الجميع، وكان بي باحترام، وأسهم كذلك في محاربة عصابات المخدرات وتجارها وكان بطرقهم ومسالكهم.

وفي العراق؛ حيث كانت داعش تهدد العاصمة بغداد ومعظم أراضي العراق، عمل الشهيد قاسم سليماني بسرية وجد ونشاط منقطع النظير التشكيل مقاومة شعبية أعادها من خلالها عسكريون من الشباب المندفع لحماية العراق، وشعبه من العصابات التكفيرية، ولا سيما أن المرجعية الدينية كانت قد أصدرت فتواها بوجوب الدفاع عن العراق والتصدي لداعش ودحرها، ولذلك أسهم مع بعض القادة العراقيين كالشهيد أبي مهدي المهندس، في تشكيل الحشد الشعبي، الذي شارك في العمليات القتالية جنبا إلى جنب مع الجيش العراقي في كل المعارك التي تصدوا فيها لداعش، وفي تحرير الموصل والأنبار وصلاح الدين، والمناطق التي استقرت فيها تلك العصابات الإرهابية، هنا نجد أن دور الشهيد سليماني كان بارزة وأساسيا في قيادة معظم الحروب والمعارك التي خاضها الحشد الشعبي، ولاسيما الاستراتيجية منها -كما ذكرنا الموصل والأنبار و صلاح الدين - وقد أثبت من خلالها أنه القائد المميز

المندفع في مقدمة القوات المقاتلة، ولذلك كان الحشد الشعبي في أغلبيته يرى في الشهيد قاسم سليماني أنه عراقي بامتياز، بطل من أبطال هذا الحشد وقائد من قادته، بل لقد هتف باسمه في مواقع كثيرة، ولا سيما في المظاهرات التي كانت تخرج ضد الوجود الأمريكي وقوات التحالف، ولذلك كان الأمريكان يرون عظمة دوره وخطورة وجوده في العراق على بقائهم في المنطقة كلها، فأصبح تصنيفه عندهم إرهابيا، وإذا أضفنا إلى أنه يترأس فيلق القدس، المشهور بشعاره تحرير فلسطين والقضاء على الكيان الصهيوني، نجد أن سليماني أصبح متزعماً لاتجاه وطني إسلامي مقاوم ضد الوجود الصهيوني والقواعد الأمريكية في المنطقة.

شارك سليماني في سوريا في التخطيط والاستعداد والقتال في المعارك الاستراتيجية الحاسمة على مجمل الجغرافية السورية بدءا من معركة القصير، التي كانت فاتحة الانتصارات للجيش والقوات المسلحة والقوات الرديفة (حزب الله...)، إلى معركة باب عمر في حمص ومعركة حلب التي قلبت الموازين كلها، ونقلت الجيش إلى معارك التحرير من الوجود الإرهابي في معظم الأراضي السورية، ولعل أبرزها كدور مميز للقائد قاسم سليماني، هي معركة تحرير دير الزور والتقاء الجيش السوري مع الجيش العراقي المدعوم من الحشد الشعبي وتحرير الضفة اليمينية (الجنوبية لنهر الفرات، في هذه المنطقة ظهرت شخصية سليماني المحورية في القتال والقيادة المباشرة، وقد أغنتها أيضا معارك تدمر ووسط سورية والغوطة.

لقد كان القائد الحاج قاسم سليماني في سورية والعراق ولبنان ممتزجاً بالنسيج الاجتماعي بجميع مجتمعاتها، لقد التقى الجميع على أنه قيادي يضحي بكل شيء من أجل الهدف الأسمى، وهو القضاء على

الإرهاب وسحق الإرهابيين، لذلك كان رحباً محبّاً لمن يشاركهم في القتال وفي التخطيط، ولكنه كان في الوقت ذاته شديداً قاسياً حديدي العزيمة على الإرهابيين، لم يعطهم فرصة الاستراحة والأمان، بل كان متابعة لهذه في مطاردتهم أينما حلّوا.

شارك الحاج سليماني في تقديم المساعدات الكبيرة، ليلا ونهارا، سرا وعلانية، للقرى والبلدات والأحياء التي حاصرتها المجموعات الإرهابية كي تستمر في صمودها ودفاعها عن نفسها ولتكسر شوكة الإرهابيين المتفوقين عدة وعتاداً، مستمد ذلك من عزيمته النابعة من عقيدته وإيمانه بأن الصبر والمصابرة سيؤديان إلى النصر في النهاية.

كان للشهيد الدور البارز في معارك مفصلية في تاريخ المنطقة، وفي نمو قوة محور المقاومة وتحوله إلى قوة صادة للمحور الصهيوأمريكي الرجعي أولا، ثم انتقاله إلى حالة هيمنة وسطوة المقاومة، وتتالي انتصاراتها، لم يخض محور المقاومة معركة إلا وانتصر فيها، بدءا من عام ٢٠٠٠م في تحرير الجنوب إلى حرب تموز في عام ٢٠٠٦م.

هنا يذكر السيد حسن نصر الله أن الشهيد قاسم سليماني كان جزءاً مشرقاً في انتصار تموز، وأنه كان معرضا للإصابة والاستشهاد كغيره من المجاهدين، وهنا أيضا اكتشفنا كم للشهيد سليماني من بقايا حب وعظمة في هذا المحور من كلمات السيد حسن في رثاء الشهيد: «نحن جزء من المقتولين المجروحين، يجب أنْ نحمل دمه ورايته، ونمضي إلى الأمام بعزم راسخ، وإرادة وإيمان وعشق للقاء الله كعشق قاسم سليماني، والرد على دماء قاسم سليماني وأبي مهدي المهندس ورفاقهم بإخراج القوّات الأمريكية من المنطقة». وقال: «لو خيرني عزرائيل كنت لأقول لملك الموت قطعاً: خذني واترك قاسم سليماني، إنَّ سليماني ليس شاناً إيرانياً، بل هو الأمة كلها، ومحور

المقاومة بكامله، ويعني فلسطين والقدس، ولا توجد شخصية بوزن قاسم سليماني للأخذ بالثأر فحذاء سليماني برأس ترامب، وكلُّ المسؤولين الأمريكيين، فلا يوجد عدل لسليمان أو القصاص العادل هو إنهاء الوجود الأمريكي في المنطقة».

الخاتمة:

بعد استعراض الجذور الفكرية للقائد الشهيد قاسم سليماني والتعرف على خصائص شخصيته القيادية المقاومة والمجاهدة ضد الظلم والإرهاب ومن أجل حرية شعوب المنطقة وانتصارها على أعدائها ومستغليها؛ نصل إلى جملة من النتائج يمكن تحديدها بالآتي:

لقد انتصرت دماء الشهيد سليماني على سيف الظلم والعدوان والهمجية، وانتصر سليماني على أعدائه باستشهاده فحقق الهدفين اللذين يسعى إليها كل مجاهد ومناضل من أجل الحرية والعدالة والقيم الإنسانية.

وبعد أنَّ أسهم الشهيد الحاج سليماني في صنع الانتصارات الاستراتيجية على الإرهاب في سورية والعراق، ترك الدروس العظيمة الأحرار شعوبنا في التعلم والارتقاء بالخبرات والأفكار الموجهة عقيدية وبالتكتيكات الميدانية والقيادية في مدرسة المقاومة التي تغتني وتتوسع بقادتها المجاهدين.

ـ لقد عجلت دماء الشهيد المجاهد سليماني في الاندفاع لتحقيق النصر النهائي لشعوب المنطقة ممثلة بمحور المقاومة على محور البغي والعدوان، ويمكن أنْ نرصد عدّة نتائج في هذا الصّدد:

أولاً: أسقطت هذه الجريمة البشعة كل الأقنعة التي كانت تتستر بها الولايات المتحدة كراعية للسلام والأمن العالمي، وكشفت بهذه الجريمة الإرهابية وجهها الحقيقي أمام العالم، كدولة راعية للإرهاب الرسمي في العالم، وليس هناك من تشكيك اليوم

فـــي ذلـــك وأن الولايـــات المتحـــدة الأميركية هي مصدر الإرهاب والإرعاب في العـالم أصـبحت حقيقـة يراهـا كـل العالم بوضوح شديد.

ثانيـــاً: عرضـــت هـــذه العمليـــة الإرهابية والإجراميـة البشـعة العلاقـات الدبلوماسية فـي المجتمـع الـدولي إلـى إنهيـار كامـل فـي منظومـة الأعـراف والبروتوكـــولات الدبلوماســـية فـــي العلاقـــات الدوليـــة، وجعلـــت هـــذه الجريمة الإرهابية العالم ساحة مفتوحـة للإرهاب والإرهاب المتبادل.

ثالثاً: دمرت العملية الإرهابيـة الثقـة فـي المجتمـع الـدولي والنظـام العـالمي القائم بأنه قادر علـى قيـادة السـلام فـي العـالم وحمايـة القـانون الـدولي فيـه وأصبحت الحاجة أكثـر مـن ملحـة فـي العالم لقيـام نظـام عـالمي جديـد يكـون قادراً على حفظ السلام والقانون الدولي.

لقـد أقـدمت الولايـات المتحـدة الأميركيـة علـى تنفيـذ جريمـة إغتيـال الشهيد الفريق الحـاج قاسـم سـليماني وقامت بإختياره هدفاً لعمليتها الإرهابية دون سواه من القيادات العسـكرية مـن المقاومين الـذين يمـلأ حضـورهم كـل سـاحات المواجهـة ضـد الحركـات الإرهابيـة كـداعش وأخواتهـا فـي المنطقة، فما هو السر الذي جعـل مـن الشـهيد الحـاج قاسـم أن يكـون هـدفاً للتصفية الجسدية عند راعيـة الإرهـاب الدولي الولايات المتحدة الأميركية؟

مـن المؤكـد بـأنَّ عمليـة تصـفيته وجريمـة إغتيالـه لـم تـأت مـن فـراغ أو لأسـباب عاديـة وإنمـا هنـاك أسـباب وعوامل مهمة وإستراتيجية جعلت منـه هدفاً للتصفية والإغتيـال والتـي يمكـن أن نلخصها فيما يلي:

أولاً: لأنه الرجل الذي أفشل كـل مشاريعهم ومخططـاتهم فـي السـيطرة على المنطقة والهيمنة عليها، بدءاً مـن مشروع الشرق الأوسط الجديـد ومـروراً بصفقة القرن الذي يراد فيه بيع القضية الفلسـطينية وإنهائهـا بصـورة كاملـة وإنتهـاءاً بمشـروعهم الإرهـابي الكبيـر

الـذي وفـرت لـه ميزانيـات خرافيـة تجاوزت المائتي والخمسين مليار دولار وهو مشروع داعش الإجرامي، وكان الرجل الأول الذي قاد عملية تحطيم هـذه المشـاريع وتحقيـق الإنتصـار المدّوي على داعش وهو مالم يكن يتوقعـه كـل الخبـراء والقـادة الإستراتيجيين في العالم.

ثانياً: لأنه الرجل المؤسس لأقوى قاعدة مقاومة لكافة مشاريع الهيمنة والسيطرة والنفوذ والتحكم في العالم وهو القائد الميداني الأول الذي يتقدم الصفوف الأمامية في مشاريع المجابهة الساخنة لمقاومة الإحتلال والهيمنة، وهو القائد الذي استطاع أن يخلق الذراع الحديدي للمقاومة في المنطقة، والذي استطاع بفعل تصديه وقيادته لمشروع المقاومة ضد مشاريع الهيمنة والإستكبار العالمي أن يخلق جبهة عريضة من المقاومة في المنطقة والتي هي اليوم تمثل القوة الضاربة التي تقف أمام كل مشاريع التوسع الصهيوني والأمريكي للسيطرة والهيمنة.

ثالثـاً: لأنـه الرجـل الـذي أرسـى قاعدة منظومة مقاومة متطورة القدرة على التطور الذاتي المستمر والدائم وقادرة على خوض المعارك مهما كانت قاسية وصعبة كما فعلت مع داعش الإرهابية وأخواتها.

رابعاً: لأنه الرجل الذي أستطاع أن يخلق ويوجد قاعدة صلبة لفكر وثقافة المقاومة وهو من أهم التحدّيات الصعبة على الصهيونية والإستكبار العالمي الذين أصبحوا اليوم عليهم أن يواجهوا ليس نخبة قتالية مقاومة معينة في قطاع جغرافي محدد وإنما عليهم أن يواجهوا الملايين الذين ليس فقط شاركوا بعقولهم وبمواقفهم في التشييع التاريخي غير المسبوق وإنما الملايين من الذين آمنوا بالمنهج والسيرة وأصبحت المقاومة ثقافة أفقية تستوعب مساحة هي الأكبر في المنطقة.

خامساً: لأنه الرجل الذي كان يقود «فيلق القدس» وهو الذي يمثل رأس

حربة في فكر وثقافة التحرير من الإحتلال والهيمنة. والإسم «فيلق القدس» يلخص المشروع الإستراتيجي للشهيد الفريق القائد الحاج قاسم سليماني وأن هذا المشروع يختزل كل التفاصيل المتعلقة بالإعداد وبناء القوة إلى حيث تصل إلى مستوى الجهوزية في تحرير القدس وإستعادة أرض فلسطين المغتصبة، وهذا هو العامل الإستراتيجي الحاسم الذي جعل الصهاينة والأميريين أن يجعلوا من الشهيد سليماني هدفاً للقتل و للتصفية الجسدية.

ولكن أخطأ الأميركيون في تقديراتهم والذين كانوا يتصورون بأن تنفيذهم العملية الإجرامية بتصفية وقتل الشهيد الحاج سليماني بأنهم سيقضون على «المقاومة» التي كان يقف خلف صناعتها وبنائها وقيادتها وأنهم سيقضون على فعالية «فيلق القدس» ودوره الإستراتيجي كمشروع مضاد للهيمنة والإحتلال الصهيوني لأرض فلسطين والتي كانت تشكل رأس حربة في مواجهة وإحباط كل مشاريعهم في السيطرة والهيمنة. وتحول الشهيد سليماني بشهادته الدامية إلى ايقونة ورمزاً أسطورياً للمقاومة المشروعة وأصبح فكر المقاومة الذي تبناه وأرسى دعائمه على الأرض اليوم ثقافة وشجرة يانعة تتبناها الملايين، واصبحت «المقاومة» جبهة عريضة مترامية الأطراف على طول البلاد العربية والإسلامية وليس في ذلك فحسب وإنما إمتدت لتصل إلى عدد من الدول والشعوب الذين يتطلعون للتحرر والإنعتاق من قيود الإحتلال والهيمنة، وأن على الأميركيين اليوم أن يواجهوا هذه الجبهة المليونية العريضة من المؤمنين بخيار ومشروع المقاومة من أجل صون الكرامة والتحرير ورفض الإستغلال البشع للموارد والمقدرات وليس مجرد جسد يمكن تصفيته بعملية إرهابية إجرامية جبانة.

أ. د نور الدين بو لحيّة
باحث وأكاديمي/ الجزائر

القيم الاقتصاديَّة في الحضارة الإسلاميَّة الجديدة في رُؤيةِ الإمام الخامنئيّ دامَ ظِلُّهُ

من الأركان الكبرى التي تتشكل منها الحضارة الإسلامية الجديدة ـ بحسب رؤية قادة الثورة الإسلامية الإيرانية ـ [القيم الاقتصادية]، ذلك أن الاقتصاد هو المعني بتوفير الحاجات المعيشية التي لا تتم أو تستقر أو تكمل الحياة من دونها، ولهذا اعتبر الله تعالى المال سببا لقيام الحياة، فقال: ﴿**وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا**﴾ [النساء: ٥]

وقد قال العلامة ناصر مكارم الشيرازي[١] في تفسيره لها: (هو تعبير جميل ورائع جداً عن الأموال والثّروات، فهي قوام الحياة الناس والمجتمع، وبدونها لا يمكن للمجتمع الوقوف على قدميه، فلا يصحّ إعطاؤها إلى السفهاء والمسرفين الذين لا يعرفون إصلاحها، بل ربّما أفسدوها وأتلفوها وألحقوا بسبب ذلك أضراراً

كبيرة بالمجتمع.. ومن هذا التعبير نعرف جيداً ما يوليه الإسلام من الاهتمام بالأمور والشؤون الاقتصادية والمالية، وعلى العكس نقرأ في الإنجيل الحاضر: (فقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم أنّه يعسر أن يدخل غني إلى ملكوت السماوات) في حين يرى الإسلام أنّ الأُمّة الفقيرة لا تستطيع أبداً الوقوف على قدميها)[٢]

وقد رأينا من خلال استقراء وتحليل ما ورد عن قادة الثورة الإسلامية الإيرانية حول الجانب الاقتصادي، والقيم المرتبطة به، أنها جميعا تنبع من هذا المعنى، أي حماية الاقتصاد من كل ما قد ينحرف به عن الدور الذي أنيط به، وهو كونه وسيلة لقيام حياة الناس وتيسيرها.

ذلك أن من أسباب قيام الثورة الإسلامية ذلك الإسراف والبذخ والترف الذي عاشه الشاه في نفس الوقت الذي عاش الشعب الإيراني في فقر مدقع، بالإضافة إلى كونه كان تابعا مطلقا للمستكبرين يهبهم من ثروات إيران بقدر ما يهبونه من تسلط واستبداد وتمكين.

وبعد قيام الثورة الإسلامية وانتصارها، تعرضت إيران لحصار اقتصادي طويل، وهو الذي دعا كذلك إلى وضع سياسات خاصة تحفظ الاقتصاد، وتجعل الشعب الإيراني بمنأى عن آثار ذلك الحصار والتضييق.

وبناء على هذا رأينا أنه يمكن تقسيم أحاديثهم في هذا الجانب إلى قسمين:

أولهما: دعوتهم إلى التخلص من التبعية الاقتصادية، لتحقيق الاستقلال الاقتصادي، الذي لا يتم الاستقلال السياسي من دونه.

ثانيهما: دعوتهم إلى التخطيط الاقتصادي لمواجهة المؤامرات الاستكبارية التي تريد أن تتخذ من الحصار الاقتصادي وسيلة لإسقاط النظام الإسلامي.

وسنتحدث عن كل الجانبين فيما يلي:

أولا ـ التخلص من التبعية الاقتصادية:

يرى قادة الثورة الإسلامية الإيرانية أن كل ما حصل لإيران، بل للأمة جميعا من مآس وآلام، سببه تبعيتها للمستكبرين، وعدم تخلصها من نيرهم وقيودهم، وهو ما جعلها في الجانب السياسي، لا تملك قراراتها السيادية، وفي الجانب الاقتصادي، تهبهم كل ثرواتها، ليهبوها بدل ذلك بعض الفتات والقشور، الذي يجعلها تعيش في أدنى مستويات الحياة.

وقد أشار الإمام الخميني إلى هذا في قوله: (أميركا وسائر الدول الاستعمارية لا هدف لها سوى الإبقاء على تخلف الدول الضعيفة في مختلف المجالات الثقافية والسياسية والعسكرية.. وابتغاء السيطرة على ثرواتنا وثروات سائر الدول المتخلفة لا يسعهم إلّا أن يكونوا مصدراً لممارسة المزيد من الضغط علينا في مختلف المجالات)[٣]

وقال في خطاب آخر ـ يربط فيه بين أنواع التبعيات المختلفة، وتأثر بعضها ببعض ـ: (إن علينا السعي لتحقيق الاكتفاء الذاتي على جميع الأصعدة، ومن غير الممكن نيل الاستقلال ما لم نكن مستقلين اقتصادياً، لأن التبعية الاقتصادية تقود للتبعية على أكثر من صعيد، وهكذا الأمر على الصعيد الثقافي.. لقد كان للحملات الدعائية على مرّ التاريخ، لا سيما تلك التي رافقت دخول الغربيين بلدان الشرق، دور كبير في تكوين هذا التصور الذي يحمله الشرقي عن الغرب بأنه مركز الحضارة والمدنية ومنبع كل ازدهار، كما أنها كانت وراء نشوء هذه الروح الانهزامية أمام الغرب: الإنجليز والأمريكان وأمام نظيره الشرقي: السوفييت.. بحيث أنه أينما قلبت ناظريك، أو طفت في أرجاء الشرق وجدت الكلام عن الغرب، حتى الدواء أو القماش المصنع محلياً في إيران يجب أن يحك عليه اسم أجنبي كي

يباع للناس.. إنك تجد ـ أينما تذهب ـ الغرب وثقافته وأن علينا الاستعانة به في كل شيء)[٤]

ثم ذكر نموذجا عن ذلك، فقال: (كان من أكثر الدعاة إلى التغريب، رجل توفي الآن، كان عضواً في مجلس الأعيان أو رئيساً له[٥]، كان يقول: إذا أردنا التقدم فعلينا أن نكون انجليزيين في كل أمورنا.. لقد كان خادماً للانجليز، وكان يروج لمثل هذا الكلام وبشكل واسع في إيران، مما أفقدنا ثقتنا بأنفسنا واستقلالنا الفكري وجعلنا نعتمد على الغرب في كل ما نحتاجه)[٦]

ولتحقيق هذا المعنى، نرى قادة الثورة الإسلامية الإيرانية يستعملون كل وسائل التنفير من التبعية الاقتصادية ببيان آثارها الخطيرة، خاصة تلك التي عاشها الإيرانيون في ظل الحكم الاستبدادي التابع للغرب تبعية مطلقة.

في نفس الوقت يذكّرون الإيرانيين بقدرتهم على الاستقلال وتحقيق الاكتفاء الذاتي ويشجعونهم على العمل والإبداع في كل المجالات، للتخلص التام من كل آثار التبعية.

وقد رأينا من خلال تحليل ما ورد عنهم في هذا الجانب تركيزهم على المعاني التالية:

١ ـ بيان آثار التبعية الاقتصادية وأضرارها:

نرى من خلال تتبع كلمات وخطب قادة الثورة الإسلامية الإيرانية ـ وخصوصا الإمام الخميني ـ اهتماما كبيرا بذكر جرائم الشاه الاقتصادية، مقرونة بجرائمه السياسية، وذلك لهدفين:

أولهما: إقناع الشعب بالثورة، وتوعيته بواقعه، حتى ينهض لاسترداد حقوقه المسلوبة، ولهذا نراه في كل خطبه قبل الثورة الإسلامية، يذكر هذا الجانب، ويصف البذخ والترف الذي يعيشه الشاه في نفس الوقت الذي يصف فيه الفقر المدقع للشعب الإيراني.

ثانيها: وهو الأهم، وهو توفير الحصانة للشعب الإيراني من أي اختراق قد يجعله مستهدفا من القوى الاستكبارية التي لا تكف عن المؤامرة والكيد.

وما يذكره الإمام الخميني في هذا الجانب، لا يرتبط فقط بإيران، بل يرتبط بأكثر الدول الإسلامية التي أباحت ثرواتها للأجنبي بغية اعترافه بحكوماتها الهشة، التي لا تستند للشعب بقدر استنادها للدعم الخارجي.

ومن الأمثلة على هذا ما ورد في بعض خطب الإمام الخميني التي يبرر بها الثورة على الشاه، حيث قال: (إنكم ما من شيء تلحظونه الا وتجدونه مختلّا.. فإن نظرتم إلى اقتصاده فبلاء! فكما يقول الخبراء أن زراعة إيران لا تكفيها الا لمدة ثلاثة وثلاثين يوماً في السنة، والبقية يستوردونها من الخارج! وها نحن نرى ذلك بأعيننا)[٧]

وقال في خطاب آخر يكشف البهرج الكاذب الذي يزين به الإعلام المضلل النظام الشاهنشاهي: (إلى أي مجال من مجالات هذه (الحضارة الكبرى)، ينظر الإنسان يجد العناوين شاخصة فيه لكنها فاقدة للمحتوى، العناوين كثيرة ـ كالمهندس والدكتور وغيرها ـ أما المضمون فمفقود.. ونفس الأمر يصدق على التركيبة العسكرية، فلدينا أفواج من ذوي الرتب (المهيب والفريق) ولكن دون محتوى)[٨]

ثم ضرب مثالا على ذلك بمشروع الشاه المرتبط بـ (الإصلاح الزراعي)، فقال: (لنرى الآن مصطلح (الإصلاح الزراعي)، فهو الآخر من تلك المصطلحات التي فقدت معناها.. لقد أفسدوا زراعتنا ودمروها وجعلونا في حاجة إلى كل شيء حتى مددنا أيدينا لإسرائيل طلباً للفاكهة، والاستيراد قائم على قدم وساق للحنطة والشعير وغيرها ولو أوقفه يوماً واحداً لكان على الشعب أن يتحمل ألم الجوع، وهم يقولون أن زراعة إيران لا تلبي حاجة

شعبها سوى ثلاثة وثلاثين يوماً والباقي يجب استيراده من الخارج.. هكذا أصبح حال إيران التي كانت في السابق بلداً مصدراً للمنتجات الزراعية.. أجل إن كلمة (الإصلاح) جميلة جداً لكنها فقدت محتواها.. (الثورة البيضاء)، ثورة لكنها سوداء! كل هذه العناوين عريضة جميلة جذابة ولكن على أي شيء وضعوها؟ ماذا نرى عندما ننظر إلى ما وراء هذه الألفاظ؟ نجدها خالية من مضمونها، فما هي الا مجموعة ألفاظ يراد منها إلهاء الشعب عندما كان لا يستطيع التعبير عن رأيه وغافلًا عن هذه القضايا)[٩]

ثم ذكر الهدف الحقيقي لتلك المشاريع بعيدا عن الزخرف الكاذب الذي زينت به، فقال: (أما الآن فقد تغير الوضع واتضحت حقيقة خواء مصطلح (الإصلاح الزراعي) وأنه يعني إيجاد سوق لأمريكا وشعبها وأذنابها، أي أن نكون سوقاً استهلاكية لهم، فقمحهم كثير وهم يضطرون أحيانا إلى رميه في البحر كي لا يبور، فالأفضل أن يبدأوا بتطبيق برنامج الإصلاح الزراعي لكي لا يضطرون إلى القاء قمحهم الإضافي في البحر.. وبالفعل شرعوا بإصلاحهم الزراعي وتخلصوا من إلقاء القمح في البحر بل أخذوا يبيعونه ويقبضون ثمنه)[١٠]

ثم ذكر بعض الحيل التي يستعملها المستكبرون لتسويق سلعهم، وتحقيق منافع لهم، لا للشعوب المستضعفة، فقال: (إنهم يأخذون منا النفط ويعطوننا الأسلحة، ولكن أية أسلحة؟ الأسلحة التي تستخدم في القاعدة الأمريكية ـ في إيران ـ ضد الاتحاد السوفيتي.. فهم بحاجة لإقامة قواعد لهم في إيران ولأجل ذلك يأخذون النفط منّا ويشيدون لهم قواعد! وهذه من المعجزات الأمريكية.. والا فما حاجة إيران لكل هذه الأسلحة التي تبلغ قيمة كل صفقة منها مليارات الدولارات؟ بل وهل لدينا الخبراء الذين يستطيعون التعامل مع هذه الأسلحة، وأنى لكم ذلك وأنتم

تستوردون الخبراء إذا أردتم تعبيد طريق.. في حين أن تلك الأسلحة والمعدات تحتاج إلى متخصصين، وما موجود في إيران عناوين دون مضامين، بينما صنع المدفع وإصلاحه غير ممكن بالعناوين المجردة، بل يحتاج إلى المضامين التي نفتقدها)[١١]

ثم ذكر لهم نوعا آخر من التلاعب بالألفاظ في هذا، فقال: (إذن جاؤوا بهذه الأسلحة (ثمناً) للنفط، وهذا (الثمن) هو الآخر من الكلمات التي فقدت مضمونها، لأن (ثمن) النفط ينبغي أن يكون من العملة الصعبة، غير أنهم يعطوننا بدلًا من ذلك أسلحة ويشيدون قواعد لهم على أرضنا ليوم عسرهم)[١٢]

ثم وصف الواقع الاقتصادي الإيراني المزري، والذي يدعو إلى الثورة عليه، فقال: (هذا هو وضع إيران، فزراعتها قد دمرت واضمحلت، ونفطها ضاع ويضيع بهذه الصورة، فهذا (البلد الحضاري) يقدم النفط ليشتري طائرة ثمنها ٣٥٠ أو ٥٥٠ مليون دولار، فما حاجتنا لمثل هذه الطائرة ونحن نريد التنقل بين مشهد وقم وطهران.. لا أستطيع أن أتصور ذلك، يصدرون لنا مثل هذا ويأخذون النفط، والشيء نفسه يصدق على المجالات الأخرى)[١٣]

وقال في خطاب آخر ـ قبل انتصار الثور الإسلامية يذكر آثار التبعية الاقتصادية على إيران ـ: (لاحظوا هؤلاء الذين يعيشون في الخيام والأكواخ البالية في ضواحي طهران العاصمة والأكثر قرباً إلى (بوابة الحضارة الكبرى)، وشاهدوا كيف يعيش هؤلاء.. اذهبوا إلى ضواحي طهران وانظروا كيف يعيش الناس في الكهوف والأكواخ البالية والخيام.. لماذا جاء هؤلاء للعيش هنا؟ عندما نفذوا (الإصلاح الزراعي) لم يستطع هؤلاء البقاء في أريافهم، واضطربت أوضاعهم، ولذلك زحفوا نحو المدن وبالأغلب إلى ضواحي طهران، ويعيش

هـؤلاء المسـاكين اليـوم بأسـوأ حالـة وأصـعبها! لـيس جمـيعهم فـي سـنّ الشباب ليبيعوا شيئاً أو يقومـوا بالعتالـة، إن أكثـرهم مـن المسـنين والعجـائز والضعفاء والمساكين! لقد كتبوا إليّ أن هؤلاء المساكين يقيمون في أكثـر مـن ثلاثـين حـي فـي طهـران وفـي مدينـة (حضرة عبد العظيم) وليس لديهم مـاء ولا كهرباء.. وبعضهم يعيش في حفيرة كبيرة ويجب أن يصعدوا مسـافة كبيـرة لجلب إناء من الماء! أما طهران فتقطع الكهرباء في عدة منـاطق منهـا يوميـاً! ويـأتون مـن أقصـى القـرى إلـيّ ويستأذنونني في إعطاء مبلغ من النقود ليضم إلى مبلغ آخر يعد من قبلهم بغية إحداث مخزن للميـاه كـي تجتمـع فيـه ميـاه الأمطـار ليسـتفيدوا منـه عنـدما ينحـبس المطـر، لأن قـريتهم تبعـد فرسخاً ـ كما يقولون ـ عن مخزن المـاء الموجود في المنطقة)[١٤]

ثم دعا إلى عدم الانخـداع بـبعض مظاهر الحضارة التي يهتم لها الإعـلام المضلل، فقـال: (لا تنظـروا إلـى هـذه السـيارات التـي يركبهـا عـدد مـن الاشخاص في طهران! إن طائفـة مـن هـؤلاء هـم مـنهم، وطائفـة تسـتطيع اقتناءهـا.. انظـروا إلـى سـائر المـدن والقرى الإيرانيـة والأكـواخ الباليـة فـي نفس طهران أيضاً، وانظروا ماذا يجـري على هذا الشـعب! لـو كـان لـدينا دولـة حاكمة أمينة، تبيع النفط بأمانة وتنفقـه علـى الشـعب، لـم يكـن وضـع الشـعب على هذه الحالة)[١٥]

ثم ضرب مثالا لذلك ببعض التـرف الذي يعيشه الشاه وأسرته مقارنة بحـال الشعب المزرية، فقال: (إن نداءنا هـو: لماذا تعيش طائفة من المسـاكين علـى هذه الحالة وينفق خمسة ملايين دولار على زراعة الأزهار لفيلا إحـدى أخـوات الشاه؟! لقد كتبوا لي يطلعونني بأنه تـم إنفاق خمسة ملايين دولار لتزيين قصر إحدى أخوات الشاه بالزهور.. مـن أيـن جاءوا بهذه الأموال؟ فقد قام رضا شـاه بانقلاب عسـكري وهـو خـالي اليـدين،

فمن أين جاء هؤلاء بهذا المال؟! وبأي أموال تدار مؤسسة (بنياد بهلوي)؟! إنها بأموال هذا الشعب الذي يسرقون نفطه بهذه الصورة ويعيش هو بهذه الحالة!.. إن نداءنا هو أن يتوقف هذا النهب، ويجب أن يتبدل هذا النظام كليا! وسنهتف بذلك حتى النفس الأخير، وإذا انقطع هذا النفس فالله تبارك وتعالى سيعذرنا)[١٦]

وقال في حوار أجراه قبل انتصار الثورة الإسلامية يرد فيه على اتهام الشاه للثوار بالرجعية والتخلف: (الإسلام دين الرقي والازدهار.. والقرآن منهج الرقي وازدهار الإنسان.. ولكن لنرى لماذا نعارض نظام الشاه؟ إنه نظام عميل وتبعيته لأميركا، ويعمل على تنفيذ المخططات الأميركية في إيران.. إنه يقود إيران إلى الفناء.. ولكي يحافظ على نوع من الموازنة وضع جانباً من موارد البلد وثرواته تحت تصرف السوفيت.. الإسلام يدعو لأن تكون إيران مستقلة.. فأي واحد منهما محافظ؟ لقد صادر نظام الشاه كلّ الحريات في إيران.. فلو كنا محافظين لما كنا نطالب بحرية الرأي وتكافئ الإمكانات الإقتصادية والسياسية.. غير أن الإسلام على درجة من الكمال بحيث يرى تقدمه، منذ نزوله، في حرية البحث والنقاش ورفض المنع.. بيد أن نظام الشاه، وباعتراف أذنابه في المجلس وفي الصحافة وفي الحكومة، غارق في الفساد، وإن مسؤوليه نهبوا وبددوا المليارات من ثروات هذا البلد.. فهل معارضة هذا الفساد، عمل محافظ؟ لقد قوض نظام الشاه الاقتصاد الوطني تماماً.. وقد تم التحذير من ذلك مراراً في السنوات الماضية.. غير أن الشاه وبدلًا من الانصياع للحقائق، أنفق ملايين الدولارات على دعاياته لما أسماه بـ (المعجزة الإقتصادية) و (تنمية إيران بنحو لا مثيل له في العالم).. فهل معارضة تدمير اقتصاد البلد، عمل محافظ؟ لقد ارتكب النظام مئات

الخيانات في إيران يطول شرحها، فهل معارضة هذه الخيانات عمل محافظ؟ الحقيقة هي أنه لا يوجد في إيران صراع بين القوى المحافظة والقوى المترقية.. بل إن الصراع هو بين النظام والشعب بأسره، وهو حقه المشروع في الرقي الحقيقي الذي يتوق إليه.. ليس هذا فحسب بل وحقه في الحياة الحرة الكريمة.. صراع مع نظام يطيع أميركا طاعة عمياء، ويعمل على مصادرة مصداقية إيران.. وينبغي للصحافة العالمية أن تكتب عن ذلك وتوعي شعوب العالم.. إن الدول الكبرى ومن أجل حل أزماتها، تسحق البلدان التي ترزح تحت هيمنتها)[١٧]

وقال في حوار آخر سئل فيه عن (الثورة البيضاء) ومشروع الإصلاح الزراعي الذي أقامه الشاه: (لم يكن الإصلاح الزراعي الذي دعا إليه الشاه سوى مخطط للقضاء على زراعة إيران وفرض الاقتصاد ذو المحصول الواحد على المجتمع، بحيث إن أكثر احتياجاتنا الغذائية يتم استيرادها اليوم من الخارج.. ومع تدهور الحالة الزراعية للفلاحين، اضطروا إلى ترك قراهم ومزارعهم والتوجه إلى المدن.. كما أن سياسة الشاه الخاطئة في مجال صناعات التجميع ليس فقط لم تحل المشاكل ولم تضمن معيشة القرويين المهاجرين حتّى بالحد الأدنى، بل ضاعفت من تبعية البلد للأجانب بنحو لم يعد بالإمكان تحديد آثاره الاقتصادية السيئة)[١٨]

٢. وضع الطروحات البديلة للتبعية الاقتصادية:

لم يكتف قادة الثورة الإسلامية الإيرانية باستنكار الجرائم الاقتصادية للنظام الاستبدادي الذي ثاروا عليه، وإنما كانوا يذكرون البدائل الكثيرة، والمرتبطة بجميع المجالات الاقتصادية، بعد بيانهم للثغرات التي يحملها السلوك الاقتصادي الذي كان يتعامل به الشاه في تلك المجالات.

وسنكتفي هنا بنماذج عن بعض

الحوارات التي أُجريت مع الإمام الخميني قبل انتصار الثورة الإسلامية، سواء في الفترة التي كان فيها في النجف، أو في الفترة القصيرة أثناء تواجده في فرنسا، باعتبارها تمثل السياسة العامة للاقتصاد الإيراني، والتي تم تبنيها بعد ذلك.

ومن الأمثلة عنها ما ورد في حوار أجراه معه مراسل صحيفة العالم الثالث الألمانية؛ فقد سأله قائلا: (هل لديكم نظريات معينة حول تقليص الفارق الطبقي بين أبناء القرى والمدن، وبين الأثرياء والعمال والفلاحين؟)[١٩]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (نعم، إن برامجنا الإسلامية التي سنعلن عنها ونطبقها في المستقبل بإذن الله، بإمكانها أن تتعاطى مع هذه الموضوعات بأحسن وجه وتصبح قدوة لكافة شعوب العالم)[٢٠]

فسأله الصحفي عن موقفه من الفساد المالي والتضخم المتزامن معه، فأجاب الإمام الخميني: (لو تم قطع أيدي السارقين والناهبين المحليين والأجانب، وتطبيق البرامج الاقتصادية في ضوء الاحتياجات المعقولة والمنطقية للمجتمع، والتخلص من القوانين غير الإلهية التي هي وسيلة النفعيين، لن تكون هناك مشكلة باسم التضخم في البلد)[٢١]

وفي حوار آخر سأله المراسل الإنجليزي لصحيفة الاكونوميست قائلا: (ما نظركم للإصلاح الزراعي وأملاك الشاه الخاصة؟ هل ستستمرون في سياسة توزيع الأملاك؟ هل أنتم من أنصار الملكية الخاصة؟)[٢٢]

فأجابه الإمام الخميني بقوله: (لم يكن إصلاح الأراضي من قبل الشاه كما كان معلوماً منذ البدء، واتضح للجميع فيما بعد أنه تدمير للزراعة، أدى إلى هدر قسم كبير من أموال النفط لشراء المواد الغذائية من الخارج وأميركا خاصة.. لكننا لن نعيد هذه الأراضي لأصحابها أبداً، لأنهم لم

يراعوا القوانين الإسلامية لا في تملكها ولا في محاصيلها، ولن ندعها تبور، وسنعمل على حماية الفلاحين بتوفير أفضل الآلات الزراعية وجميع تكاليفها.. أما الأملاك الخاصة، فهي كما هو مسلم به تلقى قبولًا من الإسلام، وحين تسود القوانين الإسلامية الأمور الاقتصادية تسير في جميع الاتجاهات، وتشمل كل المرافق سيراً واعياً وشمولًا نافعاً ستحل مشكلة الفقر وتتم الوقاية من اغتصاب الثورة،، ويصان المجتمع بكامله من الفساد، ولن يكون هناك عائق للتطور والإبداع وسريان الاطمئنان.. وعندما يعرف أحد سعة القوانين الإسلامية وشمولها، يعترف بأنها خارجة عن حدود التفكير الإنساني ولا يمكن أن تكون وليدة الطاقة العلمية والفكرية للإنسان)[٢٣]

فسأله الصحفي: (هل ستحافظون على المعاهدات الموقعة مع الدول الأجنبية، وتتنصلون منها؟ المعاهدات الدفاعية والمعاهدات المتعلقة بمحطات الطاقة، وبناء الطرق وسكك الحديد؟)[٢٤]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (أولًا ليس لدينا اطلاع كاف على مضمون هذه المعاهدات، فنظام الشاه لم يخبر الشعب أو يطلعه على محتواها قط.. والحكومة القادمة ستدرسها مجدداً وستلغي منها كل ما لا يلبي منافع شعبنا، ونبرم ما ينفعه ونستفيد من جميع الإمكانات التي ترغب الدول الأجنبية في وضعها تحت تصرفنا مع المحافظة على استقلال البلاد وحريتها على الإحترام المتبادل)[٢٥]

فسأله الصحفي: (هل ترغبون في بقاء الفنيين والمستشارين في إيران التي فيها من الأمريكيين (٤٥٠٠٠) والالمانيين الغربيين (١٣٠٠٠)، والبريطانيين (١٠٠٠) والفرنسيين (٧٥٠٠) واليابانيين (٧٠٠٠)؟)[٢٦]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (الحكومة القادمة ستبحث ما يخص كل مجموعة من هذه المجموعات

ودور كل منها في إيران ومدى حاجة الدولة لها، وتقرر بناء على ذلك.. وليس للحكومة القادمة تعهد لأحد سوى تعهدها للشعب بصون مصالحه وأهدافه)[٢٧]

فسأله الصحفي: (أعلنتم مؤخراً (أوائل ديسمبر ١٩٧٨) أنكم لن تعترفوا رسمياً بجميع المعاهدات المخالفة للمصلحة الوطنية، فأي المعاهدات تقصدون؟ وكيف تعرفون المصلحة الوطنية؟)[٢٨]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (عندما يقال المصالح الوطنية لا أتصور أن هناك غموضاً في هذا القول، فمثلًا اليوم لا إيراني يشك في أن معاهدة شراء الأسلحة بمليارات الدولارات وإقامة القواعد العسكرية الأمريكية بأثمان النفط الإيراني ووجود آلاف المستشارين العسكريين الأمريكان في إيران ونفقاتهم الضخمة جداً، كلها ليست لمصلحة الشعب الإيراني.. وهذه المعاهدات أبرمها الشاه مع الدول الأجنبية، وهي ليست بقليلة)[٢٩]

فسأله الصحفي: (هل ستستمرون في الإجراءات والمعاهدات التجارية والعرض والطلب مع الغرب؟ ما هي سياستكم التجارية؟)

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (على نحو ما نبيع محاصيلنا إلى الدول المشترية الأخرى ونشتري من الخارج كل ما نحتاج اليه في الداخل، ولكننا سنقوم بهذه التبادلات التجارية على المساواة بين الطرفين، ولن نسمح أن تملي علينا دولة نفوذها السياسي وأهدافها الإستعمارية بالتبادل الاقتصادي)[٣٠]

فسأله الصحفي: (لماذا تنتقدون علاقات الشاه مع أمريكا والغرب؟)[٣١]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (نحن مخالفون للمهمة التي وكلتها القوى الاستعمارية للشاه في تأمين مصالحها وتدمير البلاد حفظاً لتاجه وعرشه المهتز وحكومته غير المستندة

إلى الشعب.. نحن معارضون لعلاقات الشاه مع الأجانب المؤدية إلى زوال استقلال البلاد وحرية الشعب)[٣٢]

وفي حوار آخر سأله مراسل صحيفة العالم الثالث الألمانية، قائلا: (إن مطالبة الشعب بدخل أكبر وظروف اجتماعية واقتصادية أفضل، لها دور أساسي في الأوضاع السياسية الحالية في إيران.. كيف يتسنى تلبية مطالب الشعب وتحقيق ذلك عملياً؟)[٣٣]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (برحيل الشاه سيتسنى لنا إعمار الدمار الحاصل حيث سيتم إصلاح الزراعة التي دمرت بشكل كامل.. أما عائدات النفط، التي تم الإسراف فيها وأنفقت في مواضع زائدة ومضرة، سيتم إنفاقها على رفاهية الشعب الفقير.. وسوف يتحسن توزيع الثروات والعائدات في ضوء العدالة الإسلامية لتحسين أوضاع أبناء الشعب)[٣٤]

فسأله الصحفي: (كيف يمكن برمجة تطوير السلع الاستهلاكية الصناعية في ضوء مصالح التجار والمستهلكين؟)[٣٥]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (إن السياسة الصناعية لنظام الشاه تمركزت حول تنمية الصناعات الاستهلاكية والتجميعية وربط النشاط الصناعي بالصناعة الأجنبية.. غير أن السياسة الصناعية للحكومة القادمة ستكون على أساس إيجاد صناعات أساسية وأصيلة بنحو تزول أية تبعية.. ومع إيجاد صناعات أساسية فإن تطوير المنتجات الصناعية الاستهلاكية سيتزامن مع ذلك وستتم المحافظة على مصالح المستهلكين الإيرانيين قبل أي شيء آخر)[٣٦]

فسأله الصحفي قائلا: (يزعم الشاه، بأن إيران ستتبدل إلى بلد غربي مئة بالمئة خلال العشرين عاماً القادمة.. ومثل هذا مؤشر يدل على الديمقراطية الغربية وعلى ظروف الإنتاج ومستوى المعيشة في الغرب بغض النظر عن الأحزاب الشيوعية..

في تصوركم هل بإمكان ذلك تأمين مستقبل أفضل لإيران؟ وماذا تقترحون كسبيل حل؟)[٣٧]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (إن الشاه ومن أجل خداع الشعب ردد ويردد مثل هذه الأقوال كثيراً.. وليس هناك سواء في إيران وفي كثير من الدول، من لا يشك بأن الشاه يلجأ إلى أكاذيب كهذه ليغطي على جرائمه وهزائمه المتتالية.. إضافة إلى ذلك فإن الشعب الإيراني، ونظراً لامتلاكه عقيدة راقية كالإسلام، ليس بحاجة إلى محاكات النماذج الغربية أو الدول الشيوعية لتحقيق تقدمه وازدهاره)[٣٨]

وفي حوار آخر، سأل مراسلو الإذاعة والتلفزيون الفرنسيين الإمام الخميني قائلين: (بالالتفات إلى الوضع الاقتصادي والاجتماعي الإيراني الراهن والأخذ بنظر الاعتبار نفاد الاحتياطي النفطي في المستقبل وتبعية البلد في مجال المواد الغذائية، كيف ترون السبيل لحل الأزمة الإيرانية؟)

فأجاب الإمام الخميني قائلا: (إذا قطعت أيدي ناهبي النفط والطفيليين الأجانب والمحلّيين عن المستودعات النفطية، وبيعَ النفط بأسعار معقولة، لن نحرم احتياطي النفط في المستقبل القريب، فالتبذير المفرط الذي يمارسه الشاه في بيع النفط، والإسراف الذي يمارسه بشراء المعدّات المعطوبة يُهدّدان بخطر نفاد الاحتياطي النفطي.. ونحن بإقامة الحكومة الوطنية الإسلامية وإحلال الوطنيين المؤمنين محلّ الخونة المبذّرين لدينا حلول معقولة للتخلّص من الأزمة، منها: أولًا: التخلص من ناهبي بيت المال وفي مقدمتهم الشاه الذي ألحق بالاقتصاد الإيرانيّ بإصدار صكوك بملايين الدولارات للسفراء والمتنفِّذين الأمريكيين من بيت المال إبقاءً على عرشه.. ثانياً: وضع حد لإجحاف وخيانة كبار المسؤولين من وزراء ومعاونين ومديرين ورؤساء الدوائر المهمة.. ثالثاً: إلغاء الكثير من الدوائر

الحكومية التي لا جدوى منها سوى تأخير معاملات الناس وفرض نفقات إضافية على بيت المال.. رابعاً: توظيف سليم للطاقات الزراعية تحقيقاً لزراعة مجدية تم القضاء عليها خلال سنوات من ثورة الشاه الأمريكية، وأسقطوا إيران من موقعها الزراعي، وحولوها إلى سوق للأجانب)[٣٩]

وفي حوار آخر سأله السيد كرككروفت (أستاذ جامعة روتكزر الأمريكية) قائلا: (هل تؤيد الحكومة الإسلامية الملكية العامة أم الخاصة؟ وهل سيتم احترام ملكية الشعب لإدارة الأراضي والمصانع؟ وما هو دور الحكومة فيما ذكرته الآن؟ هل ستؤمم الأمور المذكورة أعلاه؟ ما علاقة الحكومة الإسلامية بملكية الشعب؟ كيف تنظم هذه العلاقة وتدار؟)[٤٠]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (الملكية المطروحة في أمريكا ليست في الإسلام أساساً.. الإسلام يقرّ بالملكية، لكن بقوانين تقوّمها، وإذا تم العمل بهذه القوانين الإسلامية لا يملك أحد أرضاً شائعة.. الملكية في الإسلام تقارب مستواها عند الجميع، وحين تكون هكذا لماذا نسمح للدولة بالتدخل ولا نعطي الشعب الحقل والمصنع؟ وأصحاب رؤوس الأموال الكبيرة والإقطاعيون في إيران يستغلون العمال والفلاحين، وعلى هذا الأساس لا يملكون المصانع والأراضي، وسنحاكمهم ونحقق في أملاكهم ورؤوس أموالهم ونعيد الحقوق الحقة للشعب المظلوم الذي سلبوه إياها زمناً طويلًا.. وبهذا لا نسلبهم الاختيار، ولا يمكن لأحد أن يأكل حقوق الآخرين، ولن تبوء حياة بنقص مالي)[٤١]

فسأله الأستاذ الأمريكي: (الإسلام يخالف الفساد والاحتكار ورفع الأسعار والربح الفاحش واستغلال الناس، فكيف تعامل الدولة الإسلامية تجار السوق؟)[٤٢]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (قلت مراراً بأن التجار في الحكومة الإسلامية لن يكونوا بالشكل الذي عليه التجار اليوم.. التجار الذين في إيران اليوم أصبحوا رأسماليين كباراً بعلاقاتهم الاقتصادية غير الإسلامية، وإلا فليس في الحكومة الإسلامية فوارق طبقية كما هو موجود الآن وسوف يعيش الجميع في مستوى معيشي واحد)[٤٣]

فسأله الأستاذ الأمريكي: (نحن نعلم بأن التقاليد لها دور في تحديد القوانين الإسلامية، والكثير من هذه التقاليد متطورة ومتقدمة في إطار المجتمع الحديث الحالي وتدعو إلى التقدم، ولكن هناك أيضاً تقاليد وآداب لم يبق لها أي فائدة في المجتمع الحالي الحديث، ويجب حذفها، لأنها ستشكل ثقلًا على كاهل الشعب، مثل الزواج بأكثر من امرأة في وقت واحد.. فما هو رأيكم؟)[٤٤]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (بعض الأمور التي شاعت غرباً وشرقاً باسم الإسلام هي في الأساس من صنع المستعمرين الظالمين المستبدين، وهم يقومون بتضليل الرأي العام لتنفيذ ما يرغبون فيه.. فشرائع الإسلام ملائمة لكل زمان ومكان، ولا تكون مفيدة في زمن مضرة في آخر.. وأحياناً لا يمكن أن يتحقق موضوع الحكم فيترك ذلك الحكم)[٤٥]

فسأله الأستاذ الأمريكي: (كيف سيكون برنامج التصنيع والتحديث الإيراني في الحكومة الإسلامية؟ ومن أية جهة سيتم تأمين التكنولوجية لها؟ كيف ستتم تنشئة وتعليم المتخصصين والعلماء؟)[٤٦]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (في برنامج تصنيع البلاد لا يمكن أن نذهب وراء التجميع نهائياً.. نحن سنحدث في إيران صناعة أساسية، ونقوم بالتحديث على أفضل وجه، وبالتأكيد يجب أن لا نتوقع انجاز هذه

الأعمال بمجرد رحيل الشاه، لأن الشاه دمر وخرب إيران عامة، وجعلها بلاداً منكوبة، ولذا نحتاج إلى وقت لإعادة أعمار الدمار وإحداث صناعات أصلية.. وسوف نؤمن احتياجاتنا التكنولوجية من كل جهة تكون أكثر نفعاً لبلادنا.. ومن ناحية الخبراء البارعين فنحن أغنياء جداً، فآلاف الخبراء الإيرانيين في مختلف الاختصاصات العلمية في الدول الأجنبية أجبرهم ظلم الشاه وعدم البرامج الصناعية العلمية الأساسية على مغادرة البلاد والعمل لدى المؤسسات الأجنبية.. وبرحيل الشاه سيعود أكثرهم إلى إيران)[٤٧]

فسأله الأستاذ الأمريكي: (قيل بأن إصلاحات الشاه الزراعية أضرت برجال الدين الذين هم ثاني أكبر طبقة مالكة للأراضي.. وهذا أحد أسباب مناهضتكم للشاه، هل هذا الشيء صحيح؟.. هل سيتولى رجال الدين مرة ثانية ادارة هذه الأراضي بعد رحيل الشاه؟.. وما مصير الزراعة الحكومية التي تلاقي قبولًا من قبلكم؟.. وهل ستحل الآلات الزراعية محل العمل اليدوي؟ في هذه الحالة من أين سيتم تأمين هذه الآلات الزراعية؟)[٤٨]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (بشكل عام لم يكن أحد من رجال الدين المعارضين للشاه من الإقطاعيين الكبار، حتى يشمل الإصلاح الزراعي أراضيهم.. وكنت قد أعلنت أننا لن نستعيد الأراضي من المواطنين لأن ملاك الأراضي الكبار لم يدفعوا ضرائبهم الإسلامية وخلافي أنا وجميع رجال الدين مع الشاه لم يكن لهذا السبب قط، وهذه من دعايات الشاه المغرضة التي فقدت صبغتها مرة أخرى.. نحن سوف نحدث زراعتنا، والحكومة الإسلامية ملزمة بتوفير كل ما يحتاج إليه المزارعون بأفضل وجه.. إذا وجدت زراعة صحيحة في إيران فسنكون في المستقبل أحد المصدرين للمواد الغذائية.. لقد كنا أحد مصدري

المواد الغذائية قبل الإصلاح الزراعي الأمريكي المنشأ الذي وضع إيران تحت تصرف أمريكا، فإيران إحدى الدول النادرة التي إذا روعيت فيها الأسس الزراعية الصحيحة فإن محافظة أو محافظتين منها ستؤمن القسم الأعظم من المواد الغذائية الإيرانية والباقي يمكن تصديره.. ولكن إيران في الوقت الحالي تستورد أكثر موادها الغذائية من الخارج.. ولأجل تحديث الزراعة سنستورد الآلات الزراعية من الدول التي تكون أرخص فيها وأكثر مقاومة وحصانة من حيث النوع.. في الحكم الإسلامي ستحافظ إيران على استقلالها الاقتصادي)[٤٩]

وفي حوار آخر سأله مراسل صحيفة (استريت تايمز) السنغافورية، قائلا: (لنفرض أنكم نجحتم في توحيد القوى المعارضة الحالية ما هي رؤوس سياساتكم الاقتصادية والسياسية الأساسية؟)[٥٠]

فأجابه الإمام الخميني قائلا:

(نحن نريد اقتصاداً سليماً غير تابع للآخرين، فقد شل الشاه اقتصادنا، ووضع جميع ثرواتنا تحت تصرف الشرق والغرب وأميركا.. ونحن سوف نقاوم ذلك، ولن نسمح أبداً أن ينهبوا وجودنا، سوف نقوم بثورة حقيقية في جميع المجالات الاقتصادية، والشأن الزراعي يحظى في دولتنا بأولوية خاصة لأن الشاه دمر قطاع الزراعة في البلاد ببرنامج الإصلاحات الزراعي الامريكي.. أما في مجال الصناعة، فسنوجد الصناعة الأم بدلا من الصناعات التجميعية، فإيران دولة مستقلة، ولها سياسة مستقلة، وسوف نرفع يد الشرق والغرب عن وطننا، ونقضي على كل التبعيات السياسية، ونجعل المواطنين مسؤولين عن تقرير مصيرهم، ونحرر الشعب الذي حرم كل حقوقه في إيران ما يزيد على خمسين عاماً حتى يصل إلى كل مطالبه المشروعة بحرية كاملة، وبرغم أننا لا نفكر أننا سنواجه أزمات اقتصادية حادة

بعد النصر، ولكن بإذن الله سنتلافى جميع الهزائم الاقتصادية الحادثة في العهد البهلوي)[٥١]

فسأله الصحفي: (هل سنشاهد تغيرات أساسية في نمو الاقتصاد الإيراني؟ وهل سيتغير وضع شركات النفط الكبرى الأجنبية في إيران؟)[٥٢]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (إن المتخصصين هم الذين يجب أن يتكفلوا التغييرات الأساسية في الشركات النفطية، وما يمكنني قوله هو أن جميع الاتفاقات التي تضرّ مصلحة الشعب الإيراني لن تكون مقبولة لدينا، لأنها تمت من قبل الشاه المخلوع والحكومة الغاصبة وبطرق غير قانونية)[٥٣]

فسأله الصحفي: (هل ستكون من عودة إلى اقتصاد السوق؟ إحدى الأزمات الحالية في إيران هي رفض سياسة التبعية الاقتصادية الحالية لأصحاب رؤوس الأموال الغربيين التي تعارض التجار التقليديين الإيرانيين)[٥٤]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (إن اقتصادنا اقتصاد مستقل وسليم ووطني قائم على تأمين أهم الاحتياجات لشعب إيران المحروم المظلوم، وليس اقتصاداً استهلاكياً فقط)[٥٥]

فسأله الصحفي: (هل تعتقدون أن البلاد ستواجه قريباً حالة من الفوضى الاقتصادية؟ الآن وقد تم اغلاق مضخات النفط وأصبح الخبز قليلًا في السوق ـ لأن الوقود لا يكفي للأفران ـ ماذا ترون؟ ما هو أول إجراء يجب اتخاذه في إيران؟)[٥٦]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (مع وجود الشاه لا يمكن أن يتم تصدير النفط، وقد أرسلت لجنة للنظر في الاستهلاك الداخلي، ليتم تأمين وقود البلاد، لكن إضراب شركة النفط سيبقى على حاله حتى ذهاب الشاه.. أما الإشكالات التي ظهرت في الداخل نتيجة لنقص الوقود فسيتم رفعها قريباً)[٥٧]

فسأله الصحفي: (هل المعارضة

التي تبدونها نموذج لحكومة اشتراكية في إيران، أو أن حكومتكم لها مرجعية إنسانية على أساس الأصول الدينية؟)[٥٨]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (إن حكومتنا هي الحكومة الإسلامية التي ستنفذ القوانين الإسلامية التي تصنع الإنسان وتوصله إلى قمة إنسانيته، وهي قادرة على تلبية حاجاته المادية أيضاً)[٥٩]

فسأله الصحفي: (إذا افترضنا أنكم تسلمتم قيادة الدولة، فكيف تتوقعون أن تكون علاقاتكم بالغرب؟)[٦٠]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (مهمتي في الدولة القادمة هي الإرشاد، ولا فرق عندي بين الشرق والغرب، فالأساس هو مصالح الشعب الإيراني التي تجب رعايتها على أحسن وجه، فإذا التزم الغرب والشرق بمبدأ الاحترام المتبادل في معاملتهما للشعب الإيراني عاملناهما على هذا الأساس أيضاً)[٦١]

فسأله الصحفي: (ما هي التدابير الاقتصادية التي يجب اتخاذها فور سقوط حكومة بختيار؟)[٦٢]

فأجابه الإمام الخميني قائلا: (لدينا خبراء اقتصاديون لإنقاذ اقتصاد البلد، وسنكل العمل إليهم، حتى يحددوا لنا الأولويات.. فاقتصاد البلاد قد انهار.. وسنواجه بعد الثورة أزمات اقتصادية كبرى، لأن الشاه لم يترك في البنوك نقداً من أجل إحلال الهدوء الوهمي في إيران.. كما أخرج الخونة مبالغ هائلة وضخمة من البلاد.. لكن مع كل هذا لدينا من يستطيعون إيجاد حلول، ولأن الشعب بكامله يقف إلى جانب الجمهورية الإسلامية، ولذا نأمل بأن نستطيع التغلب على المشكلات وننظم جميع الجوانب المادية والمعنوية وبمشيئة الله ـ تعالى ـ نبني إيران من جديد.. ولكن على الاعتراف مرة أخرى بأننا سنواجه مشكلات اقتصادية كبيرة)[٦٣]

وعند الرجوع للقرارات التي اتخذها الإمام الخميني بعد انتصار الثورة الإسلامية نجد وفاء تاما بكل ما طرحه، ومن الأمثلة على ذلك قوله في بعض خطبه يذكر ذلك: (إن أمامنا مشوار طويل من العمل وعليّ أن استعرض لكم بعضا من ذلك.. لقد أمرت مؤخراً وقبل أن أغادر طهران، بإجراء حصر ومصادرة كافة الأملاك والأموال التي تعود للأسرة البهلوية المنحوسة، ومصادرة كافة أموال أولئك المرتبطين بها ممن ساهموا في نهب هذا الشعب.. وسوف تستخدم هذه الأموال في بناء مساكن لأبناء الطبقة الضعيفة في كافة أنحاء إيران، إذ أن أموال الشاه المخلوع وأخته وأخيه كافية لإعادة اعمار بلد بكامله.. إننا نعمل ولا نكتفي بالأقوال.. وعلى جميع اللجان الثورية في كافة أنحاء إيران أن تبادر إلى مصادرة ما يعتبر من ثروات إيران وما حاولوا أخذه أو إخفائه، هم واتباعهم، ووضعه في حساب مصرفي سيتم الإعلان عنه لاحقا كي يتم الاستفادة منه في بناء مساكن للعمال والمستضعفين والبؤساء كي يعيشوا حياة مرفهة)[٦٤]

وقال: (إننا وعلاوة على ما نسعى إلى تحقيقه من الحياة المادية الكريمة لكم، نحرص على أن تكون حياتكم المعنوية أيضا كريمة ومرفهة، فأنتم بحاجة إلى المعنويات، فهؤلاء قضوا على المعنويات، ولا يسعدنكم أننا سنقوم ببناء المساكن وجعل الماء والكهرباء مجانياً للفئات الفقيرة، وتوفير باصات النقل العام مجانياً للفقراء، لا يسعدنكم هذا القدر فقط، فإننا نحرص على تعزيز معنوياتكم وتقوية روحياتكم وإيصالكم إلى مقام الإنسانية، فقد سعى أولئك إلى الحط من قدركم وزينوا الدنيا بأعينكم حتى خلتم بأنها كل شيء.. أما نحن فإننا سنعمر دنياكم وآخرتكم.. إن أحد الأمور التي يجب الاهتمام بها هي هذه.. فتلك الأموال غنائم الإسلام

وهي للشعب وللمستضعفين وقد أمرت باعطائها للمستضعفين وسوف يعطونها لهم.. وبعد ذلك سيتم أيضاً التخفيف من بعض الضغوط، ولكن عليكم أن تتحلوا بقدر من الصبر وأن لا تستمعوا إلى هذه النعرات الباطلة، فهؤلاء يطلقون الكلام ولكننا نحن نعمل، وهؤلاء يريدون زرع اليأس في نفوسكم من الإسلام والحال أن الإسلام هو سندكم)[٦٥]

وقال: (لدينا أطروحات للمصارف لإخراجها من هذا الوضع الاستعماري المؤسف.. ينبغي استبدال هذه القصور التي تستخدمها الحكومة والوزارات، والتي أنفق عليها الملايين والمليارات من أموال الشعب، يجب استبدالها بأماكن إسلامية معتدلة.. فهذا النمط أجنبي ونمط طاغوتي، فالعدلية قد أقيم لها قصر فخم لكنها ليست بعدلية وليس بمكان للعدل إنها قصر فحسب.. إن هذه القصور يجب أن تزول وأن يقام العدل في مكانها ويجب تعديل أوضاع المصارف بشكل تدريجي والقضاء على المعاملات الربوية بشكل تام)[٦٦]

وقال: (سنقوم إن شاء الله بمكافحة الفساد ضمن دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال تأسيس وزارة مستقلة لا ترتبط بالحكومة، وسوف نقضي على الفحشاء ونصلح وسائل الاعلام، نصلح الإذاعة والتلفزيون ودور السينما، فإن جميع تلك المؤسسات يجب أن تكون على النمط الإسلامي، وينبغي أن يكون الإعلام إعلاما إسلاميا، والوزارات وزارات إسلامية، والأحكام أحكام إسلامية.. سوف نقيم الحدود ولن نخشى أن لا يعجب ذلك الغرب.. لقد أنهكنا الغرب، لقد قضى الغرب على روحيتنا وجعلنا مأسورين له وسوف نقوم نحن بالقضاء على هذه الظاهرة، سوف نزيل مع الشعب الإيراني ووقوفه معنا ودعمه لنا كل الآثار الغربية، كل آثار الفساد لا التحضر، سوف نزيل

الأخلاق الغربية الفاسدة والنعرات الغربية الباطلة وسنقيم بلادا محمدية.. فراية إيران ينبغي أن لا تكون راية ملكية، وشعارات إيران ينبغي أن لا تكون شعارات ملكية بل يجب أن تكون شعارات إسلامية وعلى كافة الوزارات والمؤسسات إزالة شعار الأسد والشمس المنحوس ويجب أن يكون العلم إسلاميا.. يجب إزالة آثار الطاغوت وهذا التاج أثر من آثار الطاغوت، يجب أن تسود معالم الإسلام)[٦٧]

٣. الاهتمام بجميع المجالات الاقتصادية:

وهي من النواحي المهمة التي أولاها قادة الثورة الإسلامية الإيرانية جل اهتمامهم؛ فالاقتصاد ـ في رؤيتهم ـ كل متكامل، والغفلة عن بعض أجزائه، قد تؤدي إلى انهيار الجميع.

ولهذا نجد مقابلاتهم الكثيرة مع الجهات المختلفة، من الفلاحين والصناعيين والتجار وغيرهم.. وفي كل مقابلة نجد الإرشادات المرتبطة بها.

وسنذكر هنا نماذج وأمثلة عن ذلك، نتبين من خلالها مدى ارتباط الرؤية الاقتصادية لقادة الثورة الإسلامية الإيرانية بالأصل الذي بنوا عليه مشروعهم الحضاري، وهو الحاكمية الإلهية الشاملة لكل مجالات الحياة.

وأول الأمثلة لقاء أجراه الإمام الخميني مع الاتحاد الإسلامي لمنتسبي وزارة الصناعة والمعادن، يحذر فيه من الإضرابات التي تلت انتصار الثورة الإسلامية، والتي كان المقصد منها إجهاض جميع ثمارها، استعجالا لتحقيق النتائج التي تحتاج إلى زمن لتحقيقها، ومما جاء فيه قوله: (إيران اليوم بحاجة إلى عمل، وأنا لا أرى اجتماع الناس هنا وفي خارج هذا المنزل صحيحاً.. لأنهم لا يجوز لهم ترك أعمالهم والانشغال دائماً في

المظاهرات، علماً بأنَّ المظاهرات تقوي المعنويات في مجال تقدم أمور البلاد.. لكن لا يجوز أن تستمر دائماً.. إذ يجب على الناس أن يعملوا، فالفلاح يجب أن يزرع، وأصحاب المصانع يجب أن ينشغلوا بالإنتاج، وكذلك أصحاب الصناعات الصغيرة والكبيرة يجب أن ينشغلوا بأعمالهم، فعلى جميع أبناء الشعب أن يعملوا فإنَّ البلاد اليوم بحاجة إلى العمل.. فالبلاد التي أخفق اقتصادها بلاد فقيرة.. فعلى الجميع أن لا يتركوا هذه الحاجة التي هي أساس كل شيء والتي أوقعنا بها النظام السابق.. علماً أن هناك افتقاراً آخر قد أوجده النظام السابق في إيران باسم الإصلاح الزراعي الذي أدى إلى اضطراب الأوضاع الزراعية، لذلك فنحن الآن مفتقرون إلى الخارج في الأمور الزراعية والمعيشية، إذ عملوا للقضاء على تربية الحيوانات والدواجن، فنحن محتاجون إلى استيراد اللحوم وغيرها من الخارج.. فاذا كنا مفتقرين إلى الغير اقتصادياً فذلك يستلزم الافتقار السياسي، بل ويستلزم الافتقار العسكري أيضاً، وبذلك ترجع بلادنا إلى ما كانت عليه سابقاً.. في حين نريد الآن إدارة بلادنا بأنفسنا.. فالبلاد الآن ملك لأهلها.. وفي هذا الوقت الذي يملك الشعب زمام أمور بلاده بيده نرى أن هناك جماعة تغلغلت بين الناس تحرّضهم كثيراً وباستمرار على تثبيط المزارعين عن الزراعة واثارة القلاقل في المصانع، فهم يعملون الآن على تعطيل الزراعة وتعطيل المصانع.. إنَّ هؤلاء لا يتركون هذه البلاد تستقر لكي لا تأخذ صناعاتها ومعاملها وزراعتها مجاريها الطبيعية، وحتى لا تتطور صناعاتها)[٦٨]

ثم حذر من المؤامرات التي تحاك ضد الجمهورية الإسلامية، وهي في مهدها، فقال: (هناك حفنة من الذين لا يريدون الاستقرار لهذه البلاد، ولا قيام جمهورية إسلامية إنسانية في

إيران.. إنّ هؤلاء يقصدون التخريب أينما ذهبوا.. بحيث إنَّ الإنسان أينما ينظر يجد هناك جماعة مضربة عن العمل، ويجد أنَّ سبب إضرابهم هو اشاعة الفوضى.. فكل جماعة تحرّض الجماعة الأخرى.. والشبان البسطاء يتسرّعون في تصديق كل من يُزَيّن لهم أمراً.. بحيث إذا جاءهم شخص وزيّن لهم عملًا أو أمراً فانهم يقبلون منه دون تفكير، فتكون النتيجة الإضراب عن العمل.. ومن الواضح أنّ هذه الإضرابات المتتالية تضر بالوطن، إذ إنها تلحق الضرر باقتصادنا وبسمعة وطننا وشرفه.. وقد بلغت هذه الظاهرة حداً بحيث أنّ الإنسان أينما ذهب يجد إضراباً.. فاذا ذهب إلى الجيش وجد هناك إضراباً، وإذا ذهب إلى المعامل والمصانع وجد إضراباً أيضاً، وكذلك الأمر في المدارس، إذ إنّ الإضرابات قد شملتها، كما شمل الطلاب أيضاً، وهكذا بقية الشرائح حتى صار الإضراب الآن أمراً طبيعياً لدى جميع شرائح المجتمع.. لكنَّ هؤلاء جميعاً لا يدركون أنّ هذه الإضرابات تُسيء إلى كرامة الوطن وشرفه، وتعكس ذلك للخارج، حيث يستغل المستعمرون ذلك، ويقولون: إنّ هذا البلد مضطرب وغير مستقر ويحتاج إلى من يديره.. فيمهد هذا لهم الطريق لكي يأتوا بالشخص الذي يروق لهم لإدارة هذه البلاد.. فهؤلاء المضربون لا يدركون هذه الأمور، ولا ينتبهون إلى أنّ هؤلاء الذين يخطبون في محافلهم ويحرضونهم على الإضراب، وأولئك الذين يستجيبون لهم بالهتافات التأييدية، إنما يعكسون للعالم أنَّ هذا الوطن غير مستقر وتسوده الفوضى، ولا وجود لحكومة مركزية فيه)[٦٩]

ثم بين الحكم الشرعي للإضراب في ذلك الوقت الذي يتآمر فيه جميع المستكبرين على الجمهورية الإسلامية الوليدة، فقال: (إنَّ الإضراب اليوم حرام شرعاً، وهؤلاء الذين يضربون خائنون للإسلام..

فليكفوا عن هذه الألاعيب والتضليلات، وليتركوا هذه الأمور.. ولا يكونوا ألعوبة إلى هذا الحد في أيدي الذين يريدون استغلالكم.. إنّ شخصاً واحداً يريد أن يستغلكم، ويستغل هؤلاء الشبان الطيّبين.. فالذين يريدون استغلالكم لكي تضربوا عن العمل وتثيروا الفوضى وتقفوا أمام هذا الأمر أو ذاك، هم أشخاص محتالون خداعون يريدون استغلالكم.. لكنكم في غفلة عن ذلك؛ فتضربون عن العمل وتتناحرون، وتتكلمون في المحافل بما تشاؤون، وتشتمون من تريدون، وأنتم في غفلة عن نوايا هؤلاء، وغير ملتفتين إلى أنّ أعمالكم هذه تعني أنكم تظهرون بلدكم وكأنه بلد غير مستقر، وهل تعلمون أن عدم الاستقرار يستلزم تعيين قيّم عليكم، وهذا القيم إما أن يكون من هذا الجانب أو من الجانب الآخر، وأياً كان فإنه سيضطهدكم، ويحرمكم من بلادكم.. إنكم لا تعلمون هذه الأمور..

فأية مصيبة هذه التي نزلت بهذا الوطن؟ وأي مخطط هذا الذي رسمه لكم الشرق والغرب؟ إنهم يرسمون لكم المخططات من كل جانب.. لذلك نرى الفوضى مستمرة، والاضطرابات في كل مكان، ونجد في كل مكان تحركاً، وفي كل مدينة فساداً، وفي كل يوم نشاهد تجمعات، يخطبون ويتكلمون بما يشاؤون، ويشتمون هذا وذاك، ويسبون العلماء وغيرهم.. فما هذا الوضع الذي ابتلينا به في هذه البلاد؟ لماذا يجب أن تكون أوضاع البلاد هكذا؟ ولماذا ينبغي أن يختلف أهل البلاد فيما بينهم اليوم؟.. يجب أن تتحدوا اليوم وتتعاضدوا، وتجتمعوا على الالتزام بأحكام الإسلام، وإنكم تشتمون الآخرين خلافاً للموازين الإسلامية، وتصادرون أموال الناس خلافاً لأحكام الإسلام.. وماذا تفعلون بمزارع الناس في البراري؟ ولماذا تقطعون الأشجار من البساتين؟ إنَّ هذه الأعمال

مخالفة للموازين الإسلامية.. إنّ أولئك يحرضون الشبان على ارتكاب هذه الأعمال.. هناك يد وراء الستار تعمل في الخفاء لدفعكم إلى ارتكاب هذه الأفعال.. وذلك ليثبتوا للعالم أنَّ إيران لا تستطيع أن تكون مستقلة، لأنّ الفوضى تسودها، وهذا ما حدث الآن، لأنّ الإنسان يرى الفوضى تسود جميع أرجاء إيران.. حسناً؛ لنا أن نسأل: لماذا حصل هذا الوضع؟ ولماذا لا تفيقوا؟ ولماذا لا يعود شبابنا إلى رشدهم؟ وهل من العقل أن تختلفوا فيما بينكم في هذا الوقت الذي نواجه دولة عظمى؟ وهل من العقل أن يمسك بعضكم بتلابيب بعض، وأن تنسبوا لعلمائكم الرجعية قاصدين النيل منهم، وأن تنهبوا بساتين الناس ومنازلهم بذرائع مختلفة، ثم تطردون النساء والأطفال من منازلهم؟ فما هذا الوضع الذي أنتم فيه؟ ولماذا لا تلتزمون بأحكام الإسلام؟ فالإسلام هو الذي أوصلكم إلى ما أنتم عليه الآن، وهو الذي أخرج محمد رضا من منازلكم ومن وطنكم، والآن أنتم تعملون بخلاف موازين الإسلام.. إنكم تجعلون الإسلام وراء ظهوركم، والله يعلم أنكم إذا جعلتم الإسلام وراء ظهوركم فإنه ـ تعالى ـ سيصفعكم صفعة لا تنهضون بعدها أبداً.. إذن يجب عليكم أن تعودوا إلى رشدكم والى أحكام الإسلام.. فهل نهضنا لأجل أن نفعل كل ما تشتهي أنفسنا؟ هل نهضنا لكي لا نصغي لا إلى الحكومة، وإلى علماء الدين، ولا أي أحد آخر لا لشيء الا لأننا ثرنا ونهضنا.. إنّ الثورة إسلامية وقد انطلقت لتحقيق تطلعات الإسلام.. إنكم لم تثوروا ضد الإسلام حتى تفعلوا الآن ما تشتهي أنفسكم؟ إنكم ثرتم من أجل الإسلام، فأقيموا النظام الإسلامي، وأطيعوه وانقادوا له)[٧٠]

وفي لقاء له مع التجار وأصحاب المهن، قال ـ مشيدا بدورهم في الثورة الإسلامية وقبلها ـ: (لقد كان للأسواق

الإيرانية على مر التاريخ دور مؤثر وفاعل ولاسيما سوق طهران، فقد كان سنداً قوياً للإسلام والبلاد وسيبقى كذلك ـ إن شاء الله ـ ولذلك كان رضا شاه يحرص على محو السوق من إيران.. إن النظام السابق كان يخاف من كل مجمع له سور وسقف لئلا يكون ذلك المكان محلا لاجتماع المؤمنين والمتدينين والشباب المؤمن.. كان يخاف من المساجد لاجتماع التجار فيها ومن السوق نفسه لكونه مكان تجمع للناس.. لقد كانت السوق ساعداً قوياً وداعماً لتحقيق المقاصد الإسلامية وتقدم الإسلام والاقتصاد الإسلامي وما زال كذلك.. فقد كان محمّد رضا لا يجرؤ على دخول السوق لأن الأنظمة السابقة لاسيما نظامه لم يكن لها شعبية، أما الآن فقد اختلف الأمر حيث أن الحكومة والسوق، ورئيس الجمهورية والتجار والكسبة إخوة.. فهم من هذا الشعب وليسوا كالمسؤولين في النظام السابق الذين يعتبرون أنفسهم في الأعلى وهم بحسب الواقع في الأسفل.. لقد كان للسوق دور رائد في مساندة علماء الإسلام العظام، فقد كان يكفي أن يعطل السوق ولو لنصف يوم حتى تحل مشكلة ظهرت لعلماء الإسلام العظام أو للعالم الإسلامي.. فالسوق ذخيرة عظيمة للإسلام وعلى التجار والكسبة المحافظة على هذا الأمر بدقة متناهية)[٧١]

ثم دعاهم إلى الالتزام بأحكام الشريعة المرتبطة بالسوق والتجارة، فقال: (إن الانتهازيين الذين يحرصون على ملء جيوبهم دون أن يكترثوا بمصالح المسلمين العامة، موجودون في جميع شرائح المجتمع وفي السوق خاصة هناك منحرفون لا يخافون الله سبحانه وتعالى، الآن وفي وقتنا الحالي يضعون العراقيل أمام الحكومة وهذا مما يبعث على الأسف.. فجميع طبقات الشعب المليونية في المدن والقرى والنواحي والأسواق قلقون حول

أوضاع الحرب ويدعمون الجيش وحرس الثورة ويساندون المتضررين من الحرب، في حين نجد عدة قليلة تقف في وجه هذه الأمواج البشرية، في كل مناطق البلد، وفي السوق أيضاً يقفون أمام إسلامهم وبلدهم الإسلامي.. عليكم أيها السادة التجار أن تسعوا لعدم إعطاء الفرصة لاتهام السوق والنيل من سمعته، فالسوق الإيرانية حسنة السمعة كان دائماً سنداً للبلد والشعب والإسلام وكان يسهم في حل المشاكل وهو جزء من الشعب الذي يسعى للارتقاء باقتصاد البلاد.. حاولوا أن لا تعطوا الذريعة لتلك القلة التي فقدت مصالحها غير المشروعة أو أولئك الذين يخافون من فقدانها ليتهموا السوق أو ينقلوا عنه أقوالا كاذبة فإن فعلوا ذلك فعليكم الإعتراض والمطالبة بالإعلان عن أنفسهم، يجب علينا الإنتباه إلى هذه المسائل والأمور)[٧٢]

وقال: (إن تجمعات السوق إذا سارت وتحركت وفق الموازين الإسلامية ـ والحمد لله هي كذلك ـ فلن تتعرض البلاد لأي خطر لأن السوق تعتبر ذخيرة للجيش والبلاد والحكومة، وفي حال تمكن المغرضون من نشر الشائعات وبث الإختلاف في السوق ـ لا قدر الله ـ فإنه سيأتي يوم يقضون فيه على عمود الإسلام القوي.. فعليكم أخذ الحذر واليقظة فأنتم تعلمون بدور السوق وتأثيره في حل المشاكل والأمور المستعصية منذ عهد الميرزا الشيرازي وحتى وقتنا الحاضر لقد كانت الأسواق تغلق أبوابها إذا خرج عالم الدين من طهران بسبب سوء معاملة الحكومات القاجارية وذلك تضامناً معه واحتجاجاً على سوء تصرف الحكومة مما يؤدي إلى اعتذارها ودعوة عالم الدين للبقاء في طهران.. فيجب على السوق والمتعاملين فيها أن يكونوا داعين، ويعملوا على أعمار المساجد وملئها بالناس ففي بعض بلدان أهل السنة وما رأيته في الحجاز

أنه عندما يرفع أذان الظهر فإن السوق تغلق أبوابه أو تبقى مفتوحة يحرسها الشرطة ويهرع الناس والتجار لأداء الصلاة في المسجد الحرام أو في مسجد النبي ﷺ.. يجب أن تكون السوق مظهراً كاملا للإسلام والعدالة وأن يقبل على كل ما يوافق أحكامه ويبتعد عما يخالفها كتطهير السوق من الربا، فإذا وجد أشخاص يأكلون الربا ـ لا قدر الله ـ فعلى التجار أنفسهم أن ينصحوهم.. حذارِ أن يتفشى مثل هذا المرض ويقضي على بلدنا.. إن أكل الربا يهلك الشعب ويقضي على الأسواق، وهو معصية كبيرة لايدانيها معصية حتى أنه أعظم من الزنا، وهو في حكم إعلان الحرب على الله عزّ وجلّ، وكذلك يجب أن تكونوا على حذر من ظهور أشخاص مستغلين يبيعون بغلاء يؤدي إلى شلل حياة الناس في الوقت الذي يقدم هؤلاء الناس رجالًا ونساءً وأطفالا كل ما بوسعهم لمساعدة المتضررين من الحرب ويضحون من أجلهم ـ لا قدر الله ـ لو أضرت أعمالنا بالإسلام فإن مسؤولية ذلك ستكون عظيمة علينا أمام الله عزوجل)[٧٣]

ثم حذر من استعمال الأسواق وسيلة لنشر الدعايات التي تمس بالأمن القومي، فقال: (كونوا على حذر من طرح مواضيع في الأسواق أو في أماكن أخرى تتعلق بالجيش أو المحاكم أو الشرطة أو حرس الثورة تؤدي إلى إضعاف هذه القوى، هؤلاء الآن منشغلون بالحرب وخاصة الجيش والشرطة وحرس الثورة وهم في الخط الأمامي للجبهة يبذلون دماءهم وأنفسهم في سبيل عزة هذه الأمة.. إن الناس العاديين ليس لديهم معلومات دقيقة عن فنون الحرب بخلاف العسكريين ولا سيما الضباط الكبار منهم، فإنهم يدركون فنون الحرب بدقة فإذا ما تقدم الجيش في يوم وانسحب في يوم آخر فلا يطرح ذلك في المجالس والأسواق لماذا

حصل كذا وكذا.. فأنتم غير مطلعين على سير العمليات الحربية، فيوم تقدم إلى الأمام ويوم انسحاب وهذه الأمور من اختصاص المعنيين والقيّمين على هذه المسائل، والواجب على غير المختصين التحفظ والاحتراز عن طرح مثل هذه المواضيع.. وإني أنصح الجميع خصوصاً ونحن الآن مبتلون بهذه الحرب، أن لا يبدوا وجهات نظرهم حيالها.. فيجب أن لا تعلنها مهما كانت وجهة نظرك.. يجب عدم إعلان أي أمر قد يؤدي إلى تشويش أفكار قادة الجيش ورئيس الجمهورية والحكومة، فقد يقال كلام دون معرفة عاقبته وربما يحسب قائله أن قوله هذا يسهم في خدمة الأمة، بينما يكون الواقع خلاف ذلك، فيجب أخذ الحيطة والدقة في هكذا مسائل، حتى الذي يعود من الجبهة عليه أن لا يتحدث عما يحدث في الجبهة، فالجبهة لأولئك المتخصصين بها، هم الذين يشخصون كيف يديرون الجبهة ويحافظون عليها.. فإذا حدث ضعف أو فتور على الجبهة ـ لا قدر الله ـ بسبب أقاويلنا وأحاديثنا فنحن مسؤولون)[٧٤]

وقال في خطاب آخر ناصحا لهم: (أنتم أيها الكسبة والتجار المحترمين، عليكم مراعاة الناس فيما يحتاجونه من مواد تموينية، تخلوا عن الإجحاف في البيع وتمسكوا بحس التعاون والإنسانية، واهتموا بالضعفاء وخفضوا أسعار سلعكم.. تحاشوا البيع بأثمان باهضة وكونوا منسجمين معا فأنتم إخوة.. إن جميع فئات الشعب إخوة فيما بينهم فكونوا معا واحرصوا على مراعاة بعضكم بعضا واجتنبوا تلك الأمور التي راجت بينكم خلال الخمسين عاما الماضية كالكذب والغش والاحتكار، فانتم اليوم في ظل الإسلام وإمام الزمان ينظر لكم والرسول الأكرم ﷺ ينظر لكم والله تبارك وتعالى هو سندكم)[٧٥]

وفي لقاء له مع رئيس وموظفي بعض البلديات، قال: (كل هذا الخراب

الموجـود الآن، وكـل هـذه المشـاكل التي يعاني منها الشعب، تحصل ـ مع الأسف ـ في وقت يزخر البلد بثروات وخيرات لا تحصى.. ولكن الحكومة الآن أصبحت تحت تصرفكم، لذا يجب عليكم أن تحثوا الخطى لا سيما في مجال الزراعة، فإذا أردتم أن تتكاسلوا في شؤون الزراعة والفلاحة، فإننا مرة أخرى سنقع في براثن التبعية لأمريكا وغيرها، البلد الآن في أيديكم والحكومة حاذقة كل ما فيها جيد.. إن بلدنا من البلدان الغنية غاية الأمر أن بعض الأيدي الخائنة كانت تعمل عملها والآن أصبح الأمر في أيديكم.. الزراعة في هذا البلد يجب أن تلبي حاجة الشعب وأن يصدر الفائض منها إلى الخارج، فلا ينبغي أن يأتي يوم نمد فيه أيدينا مرة أخرى لأمريكا قائلين: نريد قمحاً أو أشياءً أخرى، واذا لم يزودونا به سنبقى جائعين.. يجب أن نحقق لأنفسنا الاكتفاء الذاتي، علينا أن نستيقظ، علينا أن نخدم هذا البلد، نخدم الفلاحين الذين يعملون جاهدين في الزراعة والحراثة وري الأراضي، وينبغي أن نتذكر هذا المعنى وهو علينا ألا نغتصب أموال الناس، فالبعض قال: ليعمل كل شخص في كلّ ما تصل اليه يده.. لا يجوز ذلك مطلقا، فالأراضي يجب أن يعمل بها أصحابها وفق الموازين الشرعية.. وليعمل المتكفلون بالزراعة والحراثة وفقاً لموازين الزراعة، لا تتسامحوا في هذا الأمر حتى نستطيع أن نحقق الاكتفاء الذاتي إن شاء الله خلال الأعوام القادمة ونتمكن من الاعتماد على أنفسنا.. إذا تساهلنا واعتمدنا على الأجانب في كل شيء، فإن هذه التبعية الاقتصادية ستؤدي بلا شك للتبعية السياسية وبدورها إلى التبعية الثقافية ونصبح أسرى لهم كما كنا من قبل، ينبغي علينا أن ننتهي من مسألة الاقتصاد وأن لا نستجدي الآخرين، فإذا ما مددنا أيدينا لهم كل مرة فإننا سوف نصاب بالشلل.. يجب علينا أن

نـؤمن بأنفسـنا المـواد الأوليـة اللازمـة واحتياجاتنـا الأساسـية.. علـى الجميـع أن يتعاون في هـذا السـبيل والحكومـة أيضاً تمد لهـم يـد المسـاعدة وكـل مـن استطاع ذلك، عليـه المشـاركة ومـد يـد العون لهم)[٧٦]

وقال في خطاب توعوي يحذر فيـه مـن المـؤامرات المرتبطـة بالاقتصـاد الإيراني بغية استعماله وسـيلة لتحقيـق التبعية للقوى الاستكبارية: (إننـا اليـوم نواجه عدة أمور مـن الضـروري الإشـارة إليها: المسـألة الأولـى هـي أننـا نواجـه قوى عظمى في الداخل والخارج تقـوم بـالإعلام المعـادي للإسـلام وحبـك الدسائس علينـا.. والثانيـة هـي الـدمار الـذي عانتـه الـبلاد والأفـراد الـذين يضخمون مثل هذه القضايا، ويحاولون أغفال شبابنا من كل جانب.. اننا اليـوم إذا كنـا نـروم التصـدي لهـذه القـوى العظمـى دون أن نـذوق طعـم الهزيمـة فإننا بحاجـة لعـدة أمـور: أولًا يجـب أن نصل إلى الاكتفـاء الـذاتي فـي القطـاع الاقتصـادي الـذي يسـتدعي أولًا الاهتمام بالزراعـة، فـالمزارع والحقـول يجب أن تزرع بمشـاركة ونشـاط جميـع الشرائح.. مع الأسف توجد مجموعـات تحول دون القيام بهذا الأمـر، أمـا عـن جهالة أو بتحريض مـن عناصـر مناوئـة للثورة، أو عن علم لأنّهم جزء من تلـك المجموعـات.. يـذهبون إلـى المـزارع في أنحاء البلاد ـ أينمـا تـذهبون توجـد مثل هـذه المسـائل ـ بعنـاوين مختلفـة وذريعة أنّنا نريد مساعدة المستضـعفين ومساعدة الناس، ويحولون دون القيـام بالزراعـة علـى النحـو الصـحيح وهـذا الأمر يشكل خطراً علـى بلادنـا.. أنـتم تعرفون أنه إذا احتاج بلد ما إلى الخـارج اقتصـاديّاً، خاصـة هـذا النـوع مـن الاقتصاد الذي يتعلق بمعيشـة النـاس، ووصـل إلـى مرحلـة مـن الحاجـة لا يستطيع إدارة شؤون نفسه واحتاج إلـى الآخرين في هذا المجـال، فهـذا يعنـي التبعية الاقتصادية.. والتبعية فـي هـذا الحقـل تـؤدّي إلـى استسـلام الشـعب

الإيراني وبلاد إيران للآخرين وإن استطاعت أمريكا أن تنجح في هذا الأمر الذي تنوي القيام به حالياً وجنّدت جميع القوى إلى جانبها لفرض الحظر الاقتصادي على إيران.. وإن شاء الله لن توفّق في هذا الأمر، لكننا يجب أن نتّخذ جانب الحيطة والحذر.. ولو ـ لا سمح الله ـ نجحت وفرضت على إيران الحظر الاقتصادي من جميع الجهات ومنها قضية المؤونة التي نحن بحاجة إليها، طبعاً في هذه الحالة لن نستطيع الاستمرار في المقاومة وهذه ضربة توجّه إلى ثورتنا وهي بالأساس ضربة توجه للإسلام.. فالواجب الملقى على عاتقنا هو قيامنا جميعاً بما نستطيع وبما أوتينا من قوة في هذا المجال)[٧٧]

ثم قدم توجيهات للحكومة والشعب بأن يتخذوا كل ما يلزم من إجراءات لتفادي الوقوع في التبعية الاقتصادية، فقال: (في مجال الزراعة وتربية المواشي يجب أن تقدم الحكومة مساعداتها، إلى جانب مساعدة الناس بعضهم بعض، كما ينبغي للناس تكريس جهودهم وبذل مساعيهم.. على الناس أن يعملوا ويجدوا.. إن شعباً يحتاج إلى أيد عاملة، فإن استثمرت هذه القوة في مجال آخر، فإن هذا الأمر سيؤدي إلى أن لا تستطيع تأمين احتياجات الشعب، فعدم الحاجة إلى الخارج في مجال الأرزاق والمؤونة هي رأس برامجنا.. يجب أن لا يحتاج البلد إلى الخارج في تأمين لحمه وخبزه ونحوهما.. وهذا الأمر يستدعي كثرة مراكز تربية الماشية، وكذلك الزراعة على نطاق واسع.. كان بالأمس على الظاهر حينما حضر إخوتنا من قم، قالوا: إن مدينة قم وصلت إلى الاكتفاء الذاتي هذا العام، لأن جهوداً واسعة بُذلت في هذا المجال، الناس والجهات المعنية الأخرى قامت من تلقاء نفسها بزراعة الكثير من الأراضي.. وفي هذا المجال، أي:

زراعــة الأراضــي البــوار والمزروعــة والنشــاطات الأخــرى التــي قــام بهــا المزارعــون، لــو قمنــا بتخطــيط وإدارة صحيحين فـإن مدينـة قـم لـن تكـون بحاجة إلى الخـارج.. أنـا سُـررتُ كثيـراً بهــذا الأمــر، وأعربــت عــن شــكري وتقديري لهـم.. ولـيحفظ الله هـؤلاء - إن شاء الله - يجـب أن يـتم هـذا الأمـر في كل مكان.. مثل هـذا الأمـر يجـب أن يحدث في شتى أنحـاء العـالم.. أي على كل منطقة بـذل مـا بوسـعها لكـي تُؤمّن الاكتفاء الذاتي لنفسها)[٧٨]

ثم خاطب أهـل منطقـة خوزسـتان بقولـه: (إن لخوزسـتان مياهـاً كثيـرة وأراضٍ واسعة.. فلو تم تقديم المساعدة من الحكومة، ومن الشـعب، وتعاضـدوا فيمـا بيـنهم والنـاس أيضـاً تعاضـدوا وقــدموا المســاعدة وقــاموا بالزراعــة بنوعيهـا (السـيحية - والديميـة) فـإن المنطقـة مسـتعدة لكـلا النـوعين مـن الزراعة وإن كان الديم أكثر.. فلو كانت كل بذرة تعطي ثماني بذرات قـد تعطـي عشرين بذرة في هذه المنطقـة.. علـى أي حال هـذا تكليـف يقـع علـى عاتقنـا حالياً وهو ليس بقضية طبيعية)[٧٩]

ثـم ذكـر بالتكـاليف والمسـؤوليات الشرعية المرتبطة بهذا الجانب، فقـال: (إن بلادنـا اليـوم تعـيش حقبـة تعـيش وضـعاً غيـر طبيعـي، الأوضـاع غيـر طبيعيـة لكـي يقـول الإنسـان طيّـب، نحـن لسـنا بحاجـة إلـى هـذه الأربـاح الآن.. الأوضاع غير طبيعيـة لـذلك لا نستطيع القـول بأننـا لا نريـد.. فمعنـى أننــا لا نريــد هــو التبعيــة للخــارج.. والاحتياج إلى الخـارج، يعنـي أن نضـع جميـع مـا نملـك فـي متنـاولهم مـرّة أخرى.. ورفض التبعية تكليف شرعي، وليس أمراً طبيعيـاً أن نقـول بأننـا لسـنا بحاجة إلى الحصول على أرباح ومنفعة هذا العام.. لا، المسألة ليسـت هكـذا، ولا تتعلّـق بـالأهواء.. ففـي مثـل هـذه الظروف الطارئة التي ابتلينـا بهـا يكـون هذا الأمر، واجباً وطنياً أيضاً إلى جانـب أنــه شــرعي.. بعبــارة أخــرى إن كنّــا

نستطيع القيام بعملٍ ولم نقم به فإننا مسؤولون أمام الله ـ تبارك وتعالى ـ هذا جانب من الأمر، وهو جانب الزراعة وتربية المواشي والأمور الأخرى المتعلّقة بأرزاق البلاد، فالبلد الذي بإمكانه وكان بإمكانه أن يصل في مجال تربية المواشي إلى مرحلة يقوم بالتصدير إلى الخارج، عليه أن يؤمن لحمه من مكان ويشتري حنطته من مكان آخر، ويؤمن بيضه من جهة أخرى، وكل شيء آخر يجب أن يؤمنه من أماكن أخرى.. إن هذا الأمر ودعاة النقص لنا أن تكون مقدّراتنا في يد الآخرين، وأن ننتظر من يؤمن لنا خبزنا ومن يقدم لنا اللحم.. لذلك يجب على الجميع شحذ الهمم، لسدّ هذه الحاجة، أي: الأرزاق التي نحن بأمس الحاجة إليها وشعبنا بحاجة إليها، وإن شاء الله نصل إلى الاكتفاء الذاتي)[٨٠]

الهوامش:

[١] وهو من تلاميذ الإمام الخميني الكبار، مثله مثل كبار العلماء في إيران المعاصرين، والذين أعطوا أحسن الأمثلة في الجمع بين فهم الإسلام والعمل والحركة لأجل تحقيقه في الواقع بجميع مجالاته.

[٢] تفسير الأمثل، ٣/ ١٠٨.

[٣] صحيفة الإمام، ج ٤، ص: ٥٠.

[٤] المصدر السابق، ج ١٠، ص: ٣٨٠.

[٥] يقصد حسين تقي زاده، وهو سياسي ايراني معروف، كان قد عين من قبل الشاه عضواً في مجلس الأعيان، وقد وصل إلى رئاسة المجلس في إحدى المراحل، وكان مشهوراً بتحيزه للإنجليز.

[٦] صحيفة الإمام، ج ١٠، ص: ٣٨٠.

[٧] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٥١.

[٨] المصدر السابق، ج ٤، ص: ١٨٥.

[٩] المصدر السابق، ج ٤، ص: ١٨٦.

[١٠] المصدر السابق، ج ٤، ص: ١٨٦.

[١١] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٠.

[١٢] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٠.

[١٣] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٠.
[١٤] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٥٢.
[١٥] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٥٢.
[١٦] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٥٢.
[١٧] المصدر السابق، ج ٤، ص: ١١٦.
[١٨] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٤.
[١٩] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٥.
[٢٠] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٥.
[٢١] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٥.
[٢٢] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٥٨.
[٢٣] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٥٨.
[٢٤] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٥٨.
[٢٥] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٥٨.
[٢٦] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٦١.
[٢٧] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٦١.
[٢٨] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٦١.
[٢٩] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٦١.
[٣٠] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٦١.
[٣١] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٦١.
[٣٢] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٦١.
[٣٣] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٤.
[٣٤] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٤.
[٣٥] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٤.
[٣٦] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٤.
[٣٧] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٥.
[٣٨] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٣٦٥.
[٣٩] المصدر السابق، ج ٤، ص: ٥٠.
[٤٠] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٢.
[٤١] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٢.

[٤٢] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٢.
[٤٣] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٣.
[٤٤] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٣.
[٤٥] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٣.
[٤٦] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٣.
[٤٧] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٣.
[٤٨] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٥.
[٤٩] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٢٠٥.
[٥٠] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢٠.
[٥١] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢٠.
[٥٢] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢٠.
[٥٣] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢٠.
[٥٤] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢٠.
[٥٥] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢٠.
[٥٦] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢١.
[٥٧] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢١.
[٥٨] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢١.
[٥٩] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢١.
[٦٠] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢١.
[٦١] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٢١.
[٦٢] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٦٩.
[٦٣] المصدر السابق، ج ٥، ص: ٣٦٩.
[٦٤] المصدر السابق، ج ٦، ص: ٢٢٠.
[٦٥] المصدر السابق، ج ٦، ص: ٢٢٠.
[٦٦] المصدر السابق، ج ٦، ص: ٢٢٠.
[٦٧] المصدر السابق، ج ٦، ص: ٢٢١.
[٦٨] المصدر السابق، ج ١٢، ص: ٤١.
[٦٩] المصدر السابق، ج ١٢، ص: ٤٢.
[٧٠] المصدر السابق، ج ١٢، ص: ٤٣.

[٧١] المصدر السابق، ج ١٣، ص: ٤١٠.
[٧٢] المصدر السابق، ج ١٣، ص: ٤١١.
[٧٣] المصدر السابق، ج ١٣، ص: ٤١١.
[٧٤] المصدر السابق، ج ١٣، ص: ٤١٢.
[٧٥] المصدر السابق، ج ٦، ص: ٢١٩.
[٧٦] المصدر السابق، ج ١٠، ص: ٣١٦.
[٧٧] المصدر السابق، ج ١١، ص: ٣٢٩.
[٧٨] المصدر السابق، ج ١١، ص: ٣٢٩.
[٧٩] المصدر السابق، ج ١١، ص: ٣٣٠.
[٨٠] المصدر السابق، ج ١١، ص: ٣٣٠.

السيد عبد الجبّار الموسوي
باحث وكاتب/ النجف

الثَّـورةُ الإســلاميَّة ومـواجـهة التـحريـفات

من أهم الأمور التي تكفل قادة الثورة الإسلامية الإيرانية بتوضيحه وشرحه وإقناع الأمة به، والذي يمكن اعتباره أكبر تصحيح ديني وقع في التاريخ، ذلك أن كل المجددين والدعاة اقتصرت أعمالهم على طرح مشاريع نظرية، لم يعطها الواقع بعدها العملي، وبذلك بقيت مجرد طروحات ومشاريع، بخلاف ما فعلته الثورة الإسلامية، والتي تجسدت فيها كل المشاريع التجديدية، وبأبهى صورها.

ولهذا نرى قادة الثورة الإسلامية يشيرون كل حين إلى التحريفات التي وقعت في الدين، فأبعدته عن ممارسة دوره في شؤون الحياة، بل إن الإمام الخامنئي يعتبر هذا الجانب الأصل الأول الذي قامت عليه حركة الإمام الخميني، حيث قال: (الأصل الأول في مدرسة الإمام هو إثبات الإسلام المحمدي الأصيل، ورفض الإسلام الأمريكي؛ فقد وضع الإمام الإسلام الأصيل في قبال الإسلام الأمريكي)[1]

ثم وضح الإسلام الأمريكي، فقال: (إنه في عصرنا وفي عصر الإمام وفي جميع العصور لا يخرج عن اتجاهين: الأول الإسلام العلماني، والآخر الإسلام المتحجر.. ومن هنا لطالما رأينا الإمام يُدخل الذين يحملون رؤية علمانية ويفصلون

المجتمع والسلوك الاجتماعي للناس عن الدين الإسلامي في عداد الذين ينظرون إلى الدين بنظرة متحجرة رجعية يستعصي على المجدّدين فهمها، والنظرة المتعصبة لأسس خاطئة، ولطالما وضعهم الإمام إلى جانب بعضهم بعضاً. ولو أجلتم بأبصاركم لوجدتم أن كلا هذين التيارين موجود في العالم الإسلامي، وكلاهما مدعوم من قبل قوى الهيمنة في العالم ومن قبل أمريكا. واليوم أيضًا نجد أمريكا وإسرائيل تدعمان تيارات منحرفة كداعش والقاعدة وأمثالهما، وتساندان في الوقت ذاته التيارات الإسلامية في اسمها والغريبة في عملها تجاه الإسلام والفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية)[٢]

ثم بين الأصول التي يقوم عليها هذا الإسلام المحمدي الأصيل الذي دعا إليه الإمام الخميني، فقال: (إنّ الإسلام الأصيل من منظار الإمام الخميني هو إسلام قائم على أساس الكتاب والسنَّة، ويمكن استنباطه والتوصل إليه من خلال رؤية واضحة ومعرفة الزمان والمكان والاستعانة بآلية ومنهجية علمية مقبولة ومتكاملة في الحوزات العلمية. وليس الأمر بحيث يتم التغافل عن طريقة الاستنباط، ويكون بوسع أيّ أحد إمكانية الرجوع إلى القرآن واستنباط أسس الحركة الاجتماعية منه، بل توجد لذلك آلية ومنهجية عملية ومدروسة، وهناك من يستطيع النهوض بهذا الأمر. هذا هو الإسلام الأصيل في رؤية إمامنا الكبير. علمًا بأنه لا يستطيع النهوض بهذه المهمة كل من هو عارف باستخدام هذه الآلية والمنهجية، بل يحتاج أيضا إلى رؤية واضحة ومعرفة بالزمان والمكان ومعرفة بمتطلبات العصر للمجتمعات البشرية والإسلامية، وكذلك معرفة العدو، ومعرفة أساليب عدائه، عند ذاك يمكن تحديد الإسلام الأصيل ومعرفته والتعريف به)[٣]

وفي مقابل هذا الإسلام هناك قراءات متعددة للإسلام، ولكنها مملوءة بالأهواء، يقول الإمام الخامنئي: (إن إسلام وعّاظ السلاطين ـ ولطالما عبّر الإمام عنه بهذا التعبير ـ والإسلام الداعشي من جانب، والإسلام الذي لا يعبأ بجرائم الصهاينة وجرائم الأميركيين من جانب آخر؛ الإسلام الذي يَشْخَص ببصره نحو أمريكا والقوى العظمى ويكون رهن إشارتها، كلاهما يصبّان في مجرى واحد، وينتهيان إلى مصدر واحد، ومرفوضان في رؤية الإمام. فإن الإسلام الذي يرسمه الإمام الخميني لنا، يقف في مواجهة كل هذه الأنماط. والذي يتَّبع الإمام ويسير على نهجه لابد أن يرسم حدودًا تفصله عن الإسلام المتحجر والإسلام العلماني، ولابد أن يكتشف الإسلام الأصيل ويتحرك وفقه. هذه هي واحدة من مبادئ الإمام وهي ليست من تلك الأمور التي ذكرها الإمام لمرة واحدة، وإنما هي منتشرة في جميع آثاره وكلماته)[٤]

هذا ما ذكره الإمام الخامنئي حول دور الإمام الخميني في التصحيح الديني ومواجهة التحريفات، وهو ما نجده كثيرا عند مطالعتنا لخطبه وبياناته قبل الانتصار وبعده، ومن الأمثلة على ذلك قوله في بعض خطاباته: (إنهم يعارضون الإسلام الحقيقي ويتطلعون إلى إسلام مشوه يتماشى مع مآربهم، من خلال التلاعب بالحقائق الإسلامية وبما جاء به رسول الله ﷺ والتدخل في شؤون الوحي المنزل أيضاً)[٥]

ثم أشار إلى تلك النظرة الأحادية التجزيئية للإسلام، والتي كانت سبب كل ما حصل للمسلمين من مصائب، يقول: (لقد أشرت إلى هذا الأمر مراراً عندما كنت في النجف وبعد ما أتيت إلى هنا، وهو أن مجتمعنا يعاني من وجود أفراد وعلماء ينظرون إلى الإسلام من بعد واحد. فالعرفاء يقبلون

الإسلام، إلا انهم يرجعون كل الأمور والقضايا إلى المعاني العرفانية ولا يولون قضايا الساعة أي اهتمام. لدرجة أنهم إذا ما رأوا آية أو حديث عن الجهاد، أولوها إلى (جهاد النفس). إنهم ينظرون إلى الإسلام نظرة أخرى ويفهمونه فهماً يفقده شموليته وتعدد أبعاده. طبعاً كان هؤلاء أناسٌ صالحين ولكن كانوا ينظرون إلى الإسلام من بعد واحد. ومؤخراً ابتلينا بفئة أخرى على العكس من الفئة السابقة بحيث ينكر أصحابها كل المعنويات ويتشبثون بالماديات! يدّعون الإسلام غير أن توحيدهم واعتقادهم بالبعثة والنبوة والإمامة والمعاد يخالف تعاليم الإسلام تماماً، وأن نشوء هذا النوع من التفكير لم يكن حديثاً بل يمتد إلى عشر أو خمس عشرة سنة مضت، أو إلى بدايات تأسيس الحوزة العلمية في قم. إن بعض هؤلاء وكانوا من المعممين قالوا لي مرة: لقد توصلنا إلى قناعة بأن المعاد والجزاء هما هذا العالم ذاته.

والواضح أن عددهم قد زاد اليوم كثيراً)[٦]

وهكذا يذكر الإمام الخميني أن الكثير راح يضع إسلاما يعجنه بأهوائه وآرائه، ويطرحه للناس باعتباره الإسلام الأصيل، يقول: (البعض يدعي الإسلام في يومنا هذا أكثر منكم، وهؤلاء لا يعنون الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ، بل يعتقدون بإسلام آخر من صنع أنفسهم. فتراهم ينادون بالإسلام الذي يؤمنون به ويحرصون عليه).[٧]

وهكذا نرى الإمام الخامنئي يحذر من تلك التحريفات التي حاول الاستكبار العالمي أن يصور بها الإسلام، مستغلا تلك الحركات التي لم تهضم الإسلام جيدا، ففي خطاب موجه له للشعوب العربية في بداية ما يسمى [الربيع العربي] أطلق هذه التحذيرات التي دل عليها الواقع بعد ذلك، فقد قال: (الغرب يقترح عليكم نموذجين: [الإسلام التكفيري]

و[الإسلام العلماني]، وسوف يواصل التلويح بذلك كي لا يستقوي الإسلام الأصولي المعتدل والعقلاني بين ثورات المنطقة. استعيدوا تعريف الكلمات مرة أخرى وبدقّة)

ثم خاطبهم محذرا: (إذا كانت [الديمقراطية] بمعنى الشعبية والانتخابات الحرة في إطار أصول الثورات فلتكونوا جميعاً ديمقراطيين. وإذا كانت بمعنى السقوط في شراك الليبرالية الديمقراطية التقليدية ومن الدرجة الثانية فلا يكن أحد ديمقراطياً.. و[السلفية] إذا كانت تعني العودة إلى أصول القرآن والسنة، والتمسك بالقيم الأصيلة، ومكافحة الخرافات والانحرافات، وإحياء الشريعة، ورفض التغرّب فلتكونوا جميعاً سلفيين، وإذا كانت بمعنى التعصّب والتحجّر، والعنف في العلاقة بين الأديان أو المذاهب الإسلامية، فإنّها لا تنسجم مع روح التجديد والسماحة والعقلانية التي هي من أركان الفكر والحضارة الإسلامية، بل ستكون داعية لرواج العلمانية، والتخلّي عن الدين)[٨]

ثم دعا إلى نبذ كل تلك الطروحات التي يشجع عليها معسكر الاستكبار، فقال: (كونوا متشائمين من الإسلام الذي تطلبه واشنطن ولندن وباريس، سواء من النوع العلماني المتغرّب، أو من نوعه المتحجّر والعنيف. لا تثقوا بإسلام يتحمّل الكيان الصهيوني لكنه يواجه المذاهب الإسلامية الأخرى دونما رحمة، ويمدّ يد الصلح تجاه أمريكا والناتو، لكنه يعمد في الداخل إلى إشعال الحروب القبلية والمذهبية. وراء هذا الإسلام من هم أشداء على المؤمنين رحماء بالكافرين.. كونوا متشائمين من الإسلام الأمريكي والبريطاني إذ إنّه يدفعكم إلى شَرَك الرأسمالية الغربية والروح الاستهلاكية والانحطاط الأخلاقي)[٩]

ثم بين أن اللين الذي يبديه المستكبرون للإسلام لين مخادع،

لأن المقصد منه جرهم إلى التبعية الغربية، وتحريف الإسلام ليتناسب معها، يقول: (في العقود الماضية كانت النخب وكذلك الحكام يفخرون بمقدار قوة تبعيتهم لفرنسا وبريطانيا وأمريكا أو الاتحاد السوفيتي السابق، وكانوا يفرون من النموذج الإسلامي، والأمر اليوم على عكس ذلك)[١٠]

بناء على هذا نجد في أطروحات قادة الثورة الإسلامية، وخصوصا الإمامين الخميني والخامنئي ما يحقق ـ نظريا وعمليا ـ مفهوم [الإسلام المحمدي الأصيل] الذي يتعالى على الطائفية، ويواجه الاستبداد، ويتولى الفقيه فيه زمام الأمور، ولا يكتفي بالتقوقع على الذات، وإنما يسعى لتحرير العالم، وتصديره للبشرية جميعا.

وهذه المعاني الأربعة هي التي يمكن اعتبارها الأسس الكبرى التي يقوم عليها التصحيح الديني الذي جاء به الإمام الخميني، وتلاميذه من قادة الثورة الإسلامية الإيرانية، ومن تبعهم من القيادات الفكرية في العالم الإسلامي، وسنشرح بعض مقولاتهم في ذلك من خلال العناوين التالية:

١ـ التصحيح الديني والوحدة:

من خلال استقراء ما كتبه أو صرح به قادة الفكر الإسلامي في القديم والحديث لا نجد جهة اهتمت بالوحدة الإسلامية مثل اهتمام قادة الثورة الإسلامية الإيرانية بها، فكلهم وخصوصا الإمام الخميني والخامنئي لا يكادون يجلسون مجلسا، أو يدلون بحديث، إلا ويضمنونه الدعوة للوحدة الإسلامية، والتعالي على الطائفية والعرقية وكل الحواجز الجغرافية.

ولهذا نجد الإمام الخميني في جميع خطبه وبياناته يتحدث باسم الإسلام، لا باسم الشيعة، ويدعو إلى نصرة الإسلام، لا إلى نصرة المذهب.. بل إنه ـ حتى عند ذكره لأئمة أهل

البيت ـ يذكرهم باعتبارهم ورثة للنبوة، وأنهم بذلك حق للأمة جميعا.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في خطاب له عقب الانتصار: (الوحدة أساس يجنّب الشعب من الوقوع في الزلل.. وآمل أن ينتبه أولئك الذين يضعون العراقيل في طريق الإسلام وفي طريق أهداف المسلمين، ويفهموا أن هذه الأعمال مناهضة لمصالح البلد.. فاليوم شعبنا بحاجة إلى وحدة الكلمة، بحاجة لأن يخطو بكافة فئاته معاً إلى الإمام، وهؤلاء الذين يتآمرون ويبثون النفاق بين فئات الشعب، ليقم كبراء القوم وعقلاؤهم بنصيحتهم، ويعلموهم أن جميع هذه الأعمال هي خدمة لمصالح الأعداء وتجلب الضرر لمصالح الإسلام والمسلمين.. آمل أن يستيقظ الجميع، ويعلموا أنه يجب أن نتّحد معاً، فاليوم نواجه المصائب، القوى الكبرى تواجهنا، المؤامرات تحاك علينا فإذا اتّحدنا لن يمسنا السوء)[١١]

وبين في خطاب آخر دور انتشار المفاهيم الوحدوية في انتصار الثورة الإسلامية، فقال: (نحن جربنا في السنتين أو الثلاث سنوات الماضية بأنه عندما لم يكن عندنا توجه إلى الله تبارك وتعالى مجتمعين، حتى لو أننا كان عندنا توجه كأفراد لم نكن نستطيع أن نعمل شيئاً؛ كنا تحت الظلم والضغط وكان الناهبون قد هجموا علينا من كل حدب وصوب وكنا نحن في قبضتهم وقبضة عملائهم وقضينا وقتاً عصيباً ومليئاً بالمصائب إلى أن رأينا كيف ثار الشعب الإيراني وشرع بالنهضة وشيئاً فشيئاً خرج من حالة التفرقة إلى الوحدة وصار الهدف واحداً وصارت الأبدان والأرواح مجتمعة في الشوارع وفي كل أنحاء البلاد وكان مطلبهم هو الإسلام والله، ورفضوا الظلم والظالمين الذين كانوا يريدون نهب هذه البلاد ونهبوها لسنوات طويلة واستمروا بهذا النهب، أنعم الله تبارك وتعالى علينا وعليكم وعلى جميع

الشعب باتحاد الأجسام واتحاد الأرواح عندما خرجتم إلى الشوارع صغاراً وكباراً، وكان المقصد واحداً وكان نداء الجميع (الله أكبر) وكان شعار الجميع هو الموت للظلمة والناهبين، ونحن نريد الإسلام، ونريد الجمهورية الإسلامية، الجمهورية الإسلامية التي فيها الحرية والاستقلال. يجب علينا أن لا ننسى الاجتماع الذي حصل في إيران، وأن نجعل من هذا التحول العظيم عبرة وقدوة لنا)[١٢]

ودعا إلى استمرار تلك الوحدة حتى يستمر النصر معها، فقال: (انتبهوا إلى أن ما نصرنا نحن بأيد خالية هو اتحاد الأبدان واتحاد الأرواح ووحدة الكلمة ووحدة الهدف.. ولقد كان نفس هؤلاء الناس قبل عشرين سنة موجودين وكانوا عرضة لاعتداء الأجانب وعملاء الأجانب ولم يكونوا قادرين على أن يقوموا بشيء. نفس هؤلاء تغيروا بعناية الله تبارك وتعالى إلى كائن لا يمكن الإضرار به من خلال الوحدة الشاملة في الروح والجسم. هؤلاء أنفسهم تحولوا من تلك الحالة إلى حالة أخرى، حققوا من خلالها النصر. نصراً كان كالمعجزة. انتصاراً لم يكن أحد يتوقعه أبدا، أن يمكن خلال هذه المدة القليلة بهذه الأتعاب التي لا تعد شيئاً مقابل الشيء الذي تحقق. وهو الشيء الذي يجب أن نسميه معجزة. بناءً عليه يجب علينا جميعاً أن ننتبه إلى هذه اللافتة الكبيرة التي في أنحاء إيران والمنعكسة في (الله أكبر) و (الحرية والاستقلال والجمهورية الإسلامية) يجب أن تبقى هذه اللافتة نصب أعيننا وأن تبقى مثالنا وحتى النهاية؛ وأن تنتقل هذه المواضيع إلى الأجيال الآتية منكم إلى الأجيال القادمة وبمشيئة الله، حتى لا يمكنهم في أي وقت من التاريخ في الأجيال القادمة أن يتسلطوا علينا)[١٣]

وهو لا يكتفي بطرح نظرياته في الوحدة، وإنما يضيف إليها المناهج العملية لتحقيقها، ومن ذلك قوله في

خطاب مفعم بالمعاني الوحدوية العميقة: (آمل أن تؤدي اجتماعات الأبدان هذه إلى اجتماع الأرواح وذلك هو المهم.. تشكيل الندوات جيد جداً، الدعوة إلى الوحدة مهمة جداً، ولكن هذه الندوات وهذه الاجتماعات الظاهرية يجب أن تكون في طريق تحقق اجتماع روحاني واجتماع عقلائي واجتماع روحي واجتماع هادف، لا يكفي أن نجتمع نحن وأنتم في هذا المكان أو ذاك في حين نغفل عن الهدف الذي هو هدف الإسلام وأمر به الله تبارك وتعالى وبعث جميع الأنبياء من أجله.. يجب على الأقوال أن توصل الإنسان إلى المعنويات وأن توصله إلى توحيد الكلمة وكلمة التوحيد. من السهل أن نعقد ندوات واجتماعات وأن يكون في تلك المجالس جميع فئات الشعب من علماء الدين والعسكريين والاتحادات الإسلامية. هذا أمر سهل ولكنه لا يكفي للوصول إلى الهدف)[١٤]

وانطلاقا من هذا دعا إلى تفعيل الوحدة الحقيقية، لا مجرد الوحدة الظاهرة السطحية، التي وصف الله تعالى بها اليهود، فقال: ﴿**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**﴾ [الحشر: ١٤]، وبين لهم طريقة تفادي ذلك، فقال: (يجب أن تكون في هذه الاجتماعات جهود من أجل الوصول إلى الوحدة الحقيقية التي هي من مقومات الشعب المسلم وهي ما اهتم به أنبياء العالم وما أمر به الله تبارك وتعالى ومتابعتها حتى تحققها)[١٥]

وبين الطريق لذلك، وهو التربية الأخلاقية وفق المنهج القرآني، قال: (اعملوا على أن تكون الاجتماعات التي تعقدونها والندوات التي تقيمونها حافلة بالأجواء المعنوية من جميع الجهات وفي كل مكان، انتبهوا إلى تربية الأنبياء، أنتم تقرؤون في القرآن الكريم ـ في أول سورة من القرآن الكريم ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] حيث تشير إلى كلمة

رب، ومبدأ التربية في أول القرآن الكريم. وقد كلّفنا عدة مرات في اليوم والليلة أن نقرأها في الصلاة وأن ننتبه إلى أن قضية التربية والربوبية ـ والتي تختص في درجتها العليا بالله تبارك وتعالى وتبعاً لذلك تنعكس في الأنبياء العظام ومن خلالهم إلى سائر الناس ـ هذه من الأهمية بمكان بحيث جاء بعد (.. الله..) (.. رب العالمين..). وأيضا تقرأون في هذه السورة نفسها أن غاية التربية هي الحركة في الصراط المستقيم.. ومنتهى الصراط المستقيم هو الكمال المطلق وهو الله.. لقد دُعينا إلى أن نكون تحت تربية الأنبياء وتحت تربية عظماء الأولياء ليقوموا بهدايتنا إلى الطريق المستقيم، وأن نطلب يومياً عدة مرات من الله تبارك وتعالى أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، لا إلى اليسار ولا إلى اليمين: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة: ٧]، يجب أن ننتبه إلى هذا المعنى وهو أن الإنسان موجود إذا ترك لينشأ على رسله فإنه سيكون أسوا الموجودات وأحط الموجودات، وإذا كنا خاضعين للتربية وطوينا الصراط المستقيم فإننا نصل إلى مكان لا نستطيع أن نتخيله حيث بحر العظمة وبحر الكبرياء.. هذه الندوات يجب أن يكون وراءها تفكر، وراءها تدبر، وراءها أن ننتبه إلى وحدة الكلمة ووحدة الكلمة هي (الله). ليجتمعوا في (الله) وإذا اجتمع الناس في كلمة (الله) المباركة وحطّموا جميع الأصنام فانهم يصلون إلى جميع المقاصد العالية ـ سواء مقاصد البشر في هذه الدنيا وفي المجتمعات البشرية أم المقاصد العليا في الآخرة)[١٦]

وبناء على هذا كله كانت الثورة الإسلامية الإيرانية ـ قبل الانتصار وبعده ـ نموذجا فريدا للدولة التي لا يعلو فيها إلا اسم الإسلام بعيدا عن كل مظاهر الطائفية، وقد رددنا في الجزء السابق من هذه السلسلة على تلك

الأطروحات الطائفية المغرضة التي تتخذ من تلك المادة في الدستور الإيراني والتي تنص على أن المذهب الرسمي في إيران هو المذهب الجعفري الاثنا عشري، ويذكرون أنها مادة طائفية[١٧].

وهؤلاء الذين يذكرون هذا، لا يعرفون المذهب الجعفري، ولا الأصول التي يعتمد عليها، ولا الفروع التي نشأت عنها، ولو أنهم طالعوها من كتب الفقه القديمة والحديثة لعرفوا أن هذا المذهب، وخاصة في شؤون الحياة المختلفة، لا يختلف كثيرا عن سائر المذاهب، بل هو يتفق معها في أكثر الفروع، بالإضافة إلى أنه يمنح مساحة كبيرة للاجتهاد المبني على القواعد الشرعية، والذي لا يخالف النصوص القطعية من الكتاب والسنة.

بالإضافة إلى ذلك، فإننا نرى كل دولة من دول العالم الإسلامي تعتمد مذهبا رسميا، مع كونها قد يكون فيها مذاهب أخرى، ومن الأمثلة على ذلك، أن السعودية ـ عبر هيئاتها الدينية الرسمية ـ تتبنى المذهب الحنبلي بل السلفي المغالي، مع وجود شيعة كثيرين فيها.

بالإضافة إلى ذلك كله، فإن قادة الثورة الإسلامية قبل الثورة وبعدها يحذرون من كل الدعوات الطائفية، ويعتبرون أن المسلمين جميعا إخوة، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في خطاب للإمام الخميني بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ أمام أساتذة وطلاب الحوزة العلمية في قم يحثهم فيه على استعمال كل الوسائل لمواجهة الطائفية، ونشر قيم الأخوة الإسلامية.

ومما ورد فيه قوله: (إننا نعلن عن تضامننا مع كافة الأقليات الدينية، ونعلن عن تآخينا مع الإخوة من أبناء السنة، فأعداء الإسلام هم الذين يريدون إيقاع الفرقة والخلاف بيننا وبين إخواننا، إن أعداء الإسلام أو المغفلين ـ وهم منهم ـ هم الذين يريدون إيقاع الفرقة في هذا الوقت بين

الجـانبين.. إننـا نعلـن وحـدة كلمـة المســلمين، ولــو توحــدت كلمــة المسـلمين لمـا أمكـن للأجانـب أن يتسلطوا عليهم، فالفرقة بين المسلمين هـي التـي أدت إلـى هيمنـة الأجانـب علينا.. إن الفرقة بين المسلمين كانت منذ البدء على أيدي أشخاص جـاهلين ولازلنا نعاني منهم حتـى الآن، ويجـب علـى جميـع المسـلمين أن يتحـدوا، فـالظرف حسـاس للغايـة، ونحـن نقـف بـين الحيـاة والمـوت.. إن بلادنـا الآن إمـا أن تبقـى إلـى الأبـد تحـت نيـر الاسـتعمار والاسـتبداد أو تـتمكن مـن إنقاذ نفسها، ولو أنكم لم تحفظوا وحدة كلمتكم فإنكم ستبقون في هذا البلاء إلى الأبد)[١٨]

ثـم دعـا العلمـاء وطلبـة العلـم إلـى الانتشـار فـي كـل النـواحي لبـث هـذه المفـاهيم، وتوحيـد المسـلمين، تحـت ظل الإسلام، لا تحت ظلال الطائفية، فقـال: (أيهـا السـادة! إننـا مسـؤولون جميعـاً، وإن علمـاء الـدين يقفـون فـي الطليعة، وعليهم أن ينتشروا في البلاد وفي الأماكن النائية، عليهم أن يـذهبوا إلى القـرى والقصـبات وأن ينقلـوا هـذه الأمور التي نطرحها، فمن الممكـن أن يستغفل الناس في المناطق النائية وأن تنتشـر السـموم هنـاك، فهـؤلاء لا يتمكنون من بث الأكاذيب في طهران أو سـائر المراكـز الهامـة فـي الـبلاد، لكـنهم يبثـون فـي القـرى والقصـبات البعيدة بعض الشائعات الكاذبـة بشـكل خفـي، كـأن يقولـوا مـثلا بأنـه يجـب القضاء على الأقليات الدينية تحت ظل الحكومـة الإسـلامية! وهـذا مخـالف للإسـلام، فالإسـلام يحتـرم الأقليـات الدينيـة، إن الإسـلام يعتبـر الأقليـات الدينيـة الموجـودة فـي بلادنـا فئـات محترمة. كذلك لا يفـرق الإسـلام أبـدا بين الشيعة والسنة، فلا ينبغي التفريـق بـين الشـيعة والسـنة، علـيكم الحفـاظ على وحدة الكلمة.. لقد أوصانا الأئمـة الأطهـار بـان نتعاضـد فيمـا بيننـا وأن نحفظ مجتمعنا وأن من يسعى إلى بـث

الاضطراب في هذا المجتمع إما جاهل أو مغرض ولا ينبغي الاستماع لكلامه.. وعلى إخواننا السنة أن لا يكترثوا لهذه الدعايات التي يطلقها أعداء الإسلام، فنحن إخوانهم، نحن وإياهم إخوة، وهذه البلاد للجميع، للأقليات الدينية، ولإخواننا من أهل السنة، لنا جميعاً)[١٩]

وهكذا يذكر الإمام الخميني كل حين أن الاستبداد الذي وقع في التاريخ هو الذي شجع الخلاف بين كلا المدرستين، ففي خطبة له بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٣٩٩ هـ بحضور بعض مشايخ المدرسة السنية قال فيه: (إن الاختلاف بين أتباع الطائفتين والمذهبين يعود في جذوره إلى صدر الإسلام، إذ سعى آنذاك الخلفاء الأمويون والعباسيون إلى إيجاد الفرقة والخلاف، فكانوا يعقدون المجالس لتكريس الاختلاف، ورويدا رويدا أدى هذا الاختلاف إلى ظهور حالة التنافس بين عوام السنة وعوام الشيعة وإلا فلا عوام السنة عملوا ويعملون بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا عوام الشيعة اتبعوا الأئمة الأطهار)[٢٠]

ثم بين أن أئمة أهل البيت لم يكونوا يشعرون بأي تميز طائفي، بل كانوا يحرصون على الوحدة الإسلامية، ويدعون إليها، ويحضون أتباعهم على التزامها، يقول: (لقد سعى أئمتنا الأطهار إلى وضع الجميع في إطار المجتمع، فكانوا يصلون معهم، ويمشون خلف جنائزهم، ولكن الأمور اختلفت تدريجيا وقام المتجبرون بمثل هذه الأعمال لإشغال الطائفتين ببعضهما كي يتسنى لهم أن يفعلوا ما يشاءون)[٢١]

ثم ذكر ـ كنموذج لذلك ـ ما حصل في إيران من استغلال الأجانب للخلاف السني الشيعي في بث الفرقة بين المسلمين، فقال: (قبل ما يقرب من ثلاثمائة عام تم تنفيذ سياسة أجنبية في إيران وفي الشرق استهدفت في الغالب تحقيق مثل هذه الأمور،

فقد عكف خبرائهم على دراسة الطائفتين وبعض الشخصيات ونفسيات الناس بالإضافة إلى جوانب القضايا المادية المتعلقة بنا وحاولوا استغلالنا من طريقين: ماديا وكما ترون فقد استغلونا، ونفسياً من خلال التركيز على توسيع شقة الخلاف بيننا، وترون كيف أنه إذا تفوه أحد بكلمة واحدة فإنهم يجعلونها نارا على علم، فينشرونها ويطبعونها، وهذا ليس من فعل شخص عادي.. إنه عمل الحكومات والأجانب الذين يسعون إلى نشر ذلك وتوسيع نطاقه)[٢٢]

ثم بين أن الثورة الإسلامية الإيرانية تسعى لإعادة الأمور إلى نصابها، وإحياء الوحدة الإسلامية، ونزع فتيل الصراع بين كلا الطائفتين، فقال: (نحن معا كيان واحد غير قابل للتفكيك، وإن الاختلاف بين المذهبين لا ينبغي أن يتحول إلى خلاف في أساس الإسلام، فالإسلام أسمى من أن يؤدي الاختلاف فيه إلى ظهور مسلك كذائي فيه.. إننا نرى الأخطار تهدد الإسلام، لذا علينا جميعا أن نتكاتف ونتجنب تلك الاشتباهات التي ارتكبت في الماضي، وأن نقطع الأيدي التي تريد أن تفرقنا عن بعضنا)[٢٣]

ثم قال ـ مخاطبا علماء السنة الذين حضروا خطابه ـ بكل تواضع وأدب: (إنني آمل أن نتمكن من تجاوز هذه الفرقة بمساعيكم وجهودكم أنتم أيها العلماء في مناطقهم، وجهودنا نحن طلبة العلوم الدينية هنا؛ فالاختلافات موجودة حتى بيننا نحن: كالاختلاف بين الإخباريين والمجتهدين وهو باب من أبواب الاختلاف، والاختلاف بين الصوفية والمتشرعة، وأخيرا بين الأحزاب بعضها مع بعض، أو بين الجامعيين وطلبة العلوم الدينية، كل هذا موجود، وهم يسعون إلى تكريس تلك الاختلافات كي نبقى مشغولين بأنفسنا، وهم يقضون على ما لدينا من اعتبار، فهم

ينهبون ثرواتنا على الصعيد المادي وما لدينا من معنويات على الصعيد المعنوي، إلا أن شعبنا قد استيقظ الآن، سواء في أوساطكم وذلك ببركة وجودكم أنتم، أو في أوساطنا ببركة وجود علماء الدين هنا)[٢٤]

ثم ختم خطابه بقوله: (أنا خادم للجميع، وقد جئنا لإنقاذ الإسلام مما هو عليه من وضع، وإنقاذ المسلمين مما هم عليه من فرقة)[٢٥]

وهكذا نرى الإمام الخامنئي يحض على الوحدة الإسلامية كل حين، وخطبه وبياناته ومواقفه العلمية فيها كثيرة جدا، وقد عبر عن رؤيته لها بقوله: (يجب أن لا تكون هناك فوارق بين الشعوب. يجب أن يكون الشعور بالتعاطف والتضامن بين الشعوب الأثر الأول للوحدة الإسلامية. حينما يفرح شعب تفرح له باقي الشعوب، وحينما يكون حزيناً تحزن له باقي الشعوب. وحينما يكون في مأزق يرى الآخرون أنفسهم أنّ لهم نصيباً في ذلك المأزق، وحينما يستنصرهم شعب يهبّ الآخرون لنُصرته ويأتون إليه؛ هذا هو واجبنا. وهو ما سوف يحصل ويتقدّم.. تقارُب القلوب هذا مهمّ جداً. مسائل السنّة والشيعة وصراعات السنّة والشيعة أمور يريد أعداء الإسلام اليوم التركيز عليها.. إنّ الذين يتحدّثون حول التشيّع والذين يتحدّثون حول التسنُّن لا يؤمنون بالسنّة ولا بالشيعة ولا بعظماء الإسلام ولا بعلماء الإسلام المعاصرين، إنّما لهم أهداف أخرى، يجب التغلّب على كلّ هؤلاء، وتأمين الوحدة، وستكون الوحدة إن شاء الله رصيداً ودعامة لانتصار العالم الإسلاميّ)[٢٦]

ويقول في خطاب آخر له مبينا دور الأعداء في بث الفرقة بين المسلمين: (إنّ أهم ما يتوسّل به العدوّ اليوم لمواجهة الصحوة الإسلاميّة هو إيجاد الخلافات، فيجعل المسلم يقف مقابل المسلم، ويجعل المسلم يقتل أخاه المسلم، ويشغلهم بعضهم ببعض.

فأيّ شيء أفضل لأعداء الاستقلال الإسلاميّ من أن يشغلوا المسلمين ببعضهم بعضاً؟)[٢٧]

ثم أكد لهم هذا بالمؤامرات التي نفذوها لتشويه الثورة الإسلامية الإيرانية، والتنفير منها، فقال: (فمنذ اليوم الأوّل الذي انتصرت فيه الثورة الإسلاميّة في إيران، اتّبع هذا العدوّ سياسة إثارة الخلافات بين شعبنا وداخل بلدنا. لكنّ الجمهوريّة الإسلاميّة وقفت بحزم قاطع مقابل هذه القضيّة. وقد عملوا على الخلافات المذهبيّة على مستوى الدّول الإسلاميّة، لكن الجمهوريّة الإسلاميّة رفعت راية الوحدة الإسلاميّة. هذا ما أعلنّاه، وتحدّث إمامنا الجليل عن هذا الأمر مرّات ومرّات، وأكّد شعب إيران وكرّر في زمن (الإمام) وما بعده: أننا نؤمن بالأخوّة الإسلاميّة. إنّنا نرفض أيّ شقاق بين المسلمين. وهذه هي النقطة المقابلة تماماً لأعمال الأعداء الذين يستغلّون أيّة ظاهرة صغيرة من أجل إيجاد الخلافات بين المسلمين)[٢٨]

ثم ضرب لهم الأمثلة على ما حصل في العالم الإسلامي من مآس في فترة الحراك العربي بسبب إحداث الخلافات واستثمارها، يقول: (لو نظرتم لرأيتم اليوم كيف أنّ سياسة أعداء الصحوة الإسلاميّة في بلدان شمال أفريقيا هي عبارة عن إيجاد الخلافات. هذه هي سياسة الاستكبار، أن يجعل الجميع يتنازعون ويقتتلون.. علاج هذا المرض هو شعور الوحدة بين المسلمين، فعلى الشعوب المسلمة أن تتّحد فيما بينها. يجب أن يتعاضد الجميع ويمدّوا أيديهم لبعضهم بعضاً داخل كل بلد أو بين الجماعات المختلفة والمذاهب المتعدّدة والأجنحة المختلفة. وأن لا يجعلوا الخلافات الفكرية والعقائدية والسياسيّة والسلائقية والحزبية حاكمة على تحرّكاتهم الأساسية، كي يتمكّنوا من الوقوف مقابل العدوّ، فلا طريق

سوى هذا. ها هم يستعملون أنواع الحيل من أجل إيجاد الخلافات وأنتم ترون. عندما ينشغل المسلمون بالخلافات فيما بينهم تصبح قضيّة فلسطين على الهامش، وكذلك تتهمّش عندهم قضيّة الصمود مقابل سياسة الاستكبار والنهب الأمريكي والغربي، اللذين يجدان عندها فرصةً لتنفيذ مخطّطاتهم)[٢٩]

ويضرب لهم المثل بما حصل من مؤامرات الأعداء في إفريقيا وغيرها، فيقول: (يشاهد اليوم أنّ الغربيّين قد بدأوا بحركة جديدة في أفريقيا من أجل الهيمنة على شعوبها وللعودة مجدّداً إلى ساحة حياتهم. فعندما تشتعل نيران الخلافات يجد العدوّ فرصة لتنفيذ كلّ ما يريد. أنتم ترون أيّة فجائع يصنعون في جارتنا باكستان بحجّة الاختلافات، وترون كيف يتقاتل النّاس فيما بينهم في سوريا. وتشاهدون كيف أنّهم يخمدون صوت الشعب بصورة كاملة في البحرين، وهم يقاطعون شعباً من جميع الجّهات، وفي مصر وفي المناطق الأخرى كيف يجعلون الشعب يتواجه فيما بينه. إنّها سياساتٌ يمكن أن نجد لها دوافع شخصيّة واعتقاديّة عند الأشخاص، لكنّها على صعيد التخطيط الكامل هي خطّة العدوّ)[٣٠]

ثم ذكر الحل الذي يقضي على الخلافات، ويعيد للأمة قوتها ووحدتها، فقال: (إنّ كلّ حركة اختلافية بأيّ شكل كانت: بين الشعوب المسلمة، أو بين أبناء أيّة دولة، هي لعبٌ في الملعب الذي حدّده العدوّ وهي إعانة لهذا العدوّ. يجب أن نأخذ قضيّة الوحدة بجدّية، النّخب السياسيّة والدينيّة والجامعيّة والحوزويّة في كلّ مكان بالدرجة الأولى.

وعلى الجميع في بلدنا أن يأخذوا قضية الوحدة بجدّيّة. فإيجاد الخلافات المذهبيّة بين الجماعات المسلمة المختلفة هو خطرٌ كبير. لو استطاع الأعداء أن يشعلوا نيران الخلافات

المذهبيّة في أيّ مكان فإنّ إخمادها سيكون من أصعب الأعمال. يجب الحؤول دون حصولها، وهذا لا يتحقّق إلا بالمبادرة والمجاهدة والإخلاص من قبل النّخب في أيّ بلدٍ. وعلى العلماء والجامعيين والسياسيّين وكل من له تأثير ونفوذ أن يبيّن للناس خطّة العدوّ وينشر الوعي بين الناس فيما يتعلّق بتفاؤل العدوّ بإيجاد الخلافات بين الناس، وبين الدّول الإسلاميّة، وبين الأجنحة الإسلاميّة، وبين السنّة والشّيعة، وبين التيّارات المختلفة في المذاهب الإسلاميّة المتعدّدة.. هذا هو الخطر العظيم الذي يسعى فيه الأعداء. وللإنكليز في هذا المجال باعٌ طويل. ونحن نقرأ في سيرتهم على مرّ التاريخ ونرى أيّة أفاعيل قاموا بها من أجل إيجاد الخلافات. فهم خبراء والآخرون يتعلّمون منهم. يسعون لإيجاد الخلافات. فيجب الحذر.

ولا ينبغي الاعتماد على المشاعر السطحية لإخماد هذه النيران، فمثل هذا يسوّد مصير الشعوب، ويغرقها بالتعاسة والبؤس، ويجعل أعداء الإسلام والمسلمين وأعداء الاستقلال يحقّقون ما يريدون وينفّذ خطّتهم، فيجب الصحوة واليقظة)[٣١]

٢ـ التصحيح الديني والعدالة:

لعل من أهم الأعمال التي قام بها الإمام الخميني، والتي تفوق انتصاره في الثورة الإسلامية نفسها تحطيمه لتلك التصورات التي كان ينشرها العلمانيون والليبراليون والشيوعيون عن كون الدين أفيون الشعوب، وأن رجال الدين ليس لهم دور سوى خدمة الاستبداد، وتوسيع عمر سلاطين الجور.

وقد ساعدهم على ذلك الواقع التاريخي للأديان بما فيها التاريخ الإسلامي نفسه، والذي وقف فيه أكثر الفقهاء، وخاصة من المدرسة السنية مع السلطان، واعتبروا الخروج عليه بدعة وضلالة.

وهكذا كان نظراؤهم من المدرسة الشيعية الذين اعتبروا أي راية قبل راية الإمام المهدي راية ضلالة، ولذلك اكتفوا بالانتظار السلبي إلى أن يأتي المخلص الموعود الذي يخرجهم من المستبدين.

لكن الإمام الخميني جاء بنظرية مخالفة تماما لكلا النظريتين: السنية والشيعية، حيث اعتبر من وظائف الرسل الكبرى الوقوف في وجوه الطواغيت، وتحقيق الإسلام في الواقع، والتمهيد لدولة المهدي، وتحويل الانتظار السلبي إلى انتظار إيجابي، يجعل من كل فرد من الأمة جنديا لإمامه في حضوره أو غيابه.

وكل هذه النظريات التصحيحية جعلت له الكثير من الأعداء من رجال الدين الذين تصوروه مبتدعا لكونه أخرج الدين من مجاله المحدود الذي يتصورونه إلى المجال الأوسع الذي يشمل الحياة جميعا.

وسنسوق هنا بعض ما دعا إليه في خطبه وبياناته المرتبطة بالثورة الإسلامية، بعد أن شرحنا ذلك بتفصيل في الجزء السابق من هذه السلسلة، والذي تعرض للعدل بمفهومه الواسع باعتباره قيمة من القيم الكبرى التي قامت عليها الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

فقد جاء في حديث توعوي له في بداية الثورة الإسلامية الأولى، أي قبل نفيه هذه الكلمات الممتلئة بالقوة، والتي تخالف التقية التي اعتمدها الكثير من أعلام الشيعة والسنة: (إننا نرفض الحياة في ظل حكومة الجبابرة والظالمين، وعلى استعداد لتحمل كل الصعاب، وانتم أيضا ينبغي أن تستعدوا لذلك، إن كنتم روحانيين حقاً، عليكم أن لا تخافوا ولا تقلقوا، ثبتوا قلوبكم، أعدّوا أنفسكم للقتل، للسجن، للجندية، للضرب والشتم والإهانة، لتحمل المصائب التي تنتظركم في سبيل الدفاع عن الإسلام والاستقلال. شدّوا الأحزمة جيداً، تأهَّبوا للسجن

والنفي والالتحاق بالخدمة العسكرية وسماع الكلمات النابية، فلا تخافوا ولا تقلقوا. فاذا ما شتموني، فلماذا تتألّمون أنتم؟ لماذا تقلقون؟ لماذا تجمعون المنشورات؟)[٣٢]

ثم بين لهم أن هذا هو التأسي الحقيقي بأئمة أهل البيت، فقال: (هل أنا أفضل من أمير المؤمنين عليه السلام؟ فكم من السنوات شتم فيها معاوية علياً من فوق المنابر، وصبر الإمام؟ وهل كان الإمام علي يتحدث بغير هذا الذي نتحدث فيه؟ ونحن نقول: ينبغي تطبيق أحكام القرآن في بلدنا، الإمام أيضا كان يردد هذا الكلام، فهل انتم أسمى من أصحاب أمير المؤمنين الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الدين؟ لقد عُرِّض أئمتنا وعظماء ديننا والأئمة المعصومين عليهم السلام للهتك والضرب والاستشهاد والسجن والسم، في سبيل الدفاع عن الإسلام، فقد وقف أتباع علي وفاطمة وأبناؤهم الروحيون والنسبيون في وجه حكام الجور دوماً)[٣٣]

ثم راح يذكرهم بما فعله أتباع الأئمة، فقال: (عمار بن ياسر أمضي عمره المبارك في المواجهة حتى استشهد في سن التسعين على يد الفئة الباغية. وميثم التمار، لسان الإسلام الناطق، الذي بقي يتحدث ويتحدث حتى قطع جلاوزة معاوية ـ عليه اللعنة ـ لسانه، وقطعوا يديه، وعذبوه أسوأ أنواع التعذيب)[٣٤]

ثم ذكر لهم الانتفاضات والثورات المباركة التي قام بها السادة والأشراف على مر التاريخ، فقال: (لقد انتفض أبناء فاطمة سلام الله عليها على مرّ تاريخ الإسلام على السلطات الجائرة والظالمة، ودافعوا عن الإسلام، تجرعوا الآلام، وتحمّلوا الكلام النابي والسب والشتم، وقُطعت رؤوسهم، وقتّلوا قتلًا عاماً، واستُشهدوا، ومع كل ذلك قاموا، وثبتوا، ولم يسمحوا للخبثاء بالقضاء على الإسلام ومحو أحكام الله)[٣٥]

ثم دعا كل من يحب هؤلاء،

ويزعم التبعية لهم إلى الاقتداء بهم، فقال: (أيها الفاطميون.. إن أبناء فاطمة أحياء ولله الحمد، موجودون في قم ومشهد والنجف وفي سائر البلاد، وهؤلاء لا يجلسون يتفرجون كي ترتكب الحكومات كل خيانة تحلو لها وتعمل على تضييع أحكام القرآن. فما دام أبناء فاطمة على قيد الحياة، لن يسمحوا للاعتداء على مقدسات الإسلام، وإتاحة مقدرات المسلمين لليهود وإسرائيل.. أيها الفاطميون! هبّوا لنصرة الإسلام.. لقد أكملت هذا العام الثالثة والستين من عمري. وكان الرسول الأكرم ﷺ توفي في الثالثة والستين، واستشهد الإمام علي في الثالثة والستين، نحن أتباع الرسول الأكرم، وأتباع الإمام أمير المؤمنين، وأتباع الإمام أبي عبدالله الحسين، ومن يتبع هؤلاء العظماء لن ينتابه الخوف مطلقاً، فالخوف من سمة أولئك الذين لا يؤمنون بالعالم الآخر، الهمّ والغم من سمات مَن ليس لهم غير هذه الدنيا فحسب، والدنيا غاية آمالهم. إما الذين يؤمنون بأن لهم جنة النعيم والمقام الكريم، فمِمَّ يخافون؟)[٣٦]

وهكذا نراه في كل أحاديثه يرده على تلك المفاهيم المغلوطة التي يشيعها التحريف السني والشيعي للموقف من الاستبداد والصبر عليه دون مواجهته، بل إنه يدعو إلى مواجهته والتضحية في سبيل ذلك بكل شيء.

وفي خطاب له بتاريخ ١٣ ذو الحجة ١٤٠٤ هـ دعا الشعب الإيراني إلى التأسي برسول الله ﷺ في سنته الحقيقية، لا تلك التي شوهها المحرفون، فقال: (إنَّ على شعبنا أن يضع النبيّ الأكرم ﷺ أمام ناظريه.. لقد نهض النبيّ ﷺ وقام وثبت على مبدئه وتحمّل الصعوبات الكثيرة، تحمّلها في مكة وفي الحصار في شعب أبي طالب وفي المدينة بعد ذلك قضى حياته بالعذاب والمصاعب وحتى

على فراش الموت نراه قد أصدر أمره ببعث جيش أسامة.. علينا إذا أن نتحمّل مصائب ومؤامرات القوى الكبرى، نحن مكلفون بتنفيذ الأوامر الإلهية، وعلينا أن لا نخشى المصاعب. هل تراجع النبيّ الأكرم ﷺ أمام الصعوبات التي اعترضته؟ هل خضع للمساومة والاستسلام؟، فعلينا نحن الذين نواصل عمل الأنبياء والنبيّ الأكرم ﷺ، أن نثبت ونقاوم، حتى يستقر الإسلام وتتحقق العدالة وترفع عنا أيدي الظالمين. الناس على عهد الرسول الأكرم ﷺ وأصحابه قد قاوموا ولم يبالوا بالصعوبات حتى انتصروا، ونحن عند ما دخلنا هذا الميدان وصمّمنا على القيام بهذا العمل العظيم علينا أن نتحمّل كل ما يعترض سبيلنا من عقبات)[٣٧]

وهكذا دعاهم في خطابه إلى التأسي بالأنبياء عليهم السلام باعتبارهم المثل الأعلى، فقال: (الشعب ثار وعليه حماية ثورته. عليهم أن يأخذوا بنظر الاعتبار الأنبياء والنبيّ الأكرم ﷺ، وإبراهيم (عليهم السلام جميعاً) ويتأسوا بهم وينعموا النظر في المعارضات التي واجهوها وليجدوا أنهم لم يتخلّوا عن أهدافهم، فإن كنا نحن المسلمين نسير على خطاهم ونقتفي آثارهم ليس فقط بإقامة الصلاة والعكوف في المساجد بل بالجهاد والنضال من أجل حفظ أساس الإسلام، فعلينا الثبات إلى الأبد والتقدم نحو الإمام)[٣٨]

وهكذا يتحدث كثيرا وبتفصيل على الانتظار الحقيقي للإمام المهدي، ويرد على تلك المفاهيم السلبية التي جعلت من الانتظار مرحلة للكسل والتواكل والتقاعد، ففي خطاب له بتاريخ ١٥ شعبان ١٤٠٨ هـ بمناسبة ذكرى مولد الإمام المهدي قال: (البعض يرى انتظار الفرج في أن يجلس في المسجد أو الحسينية أو المنزل، ويدعو الله تعالى لفرج الإمام

الحجة صاحب الزمان سلام الله عليه.. إن من لديهم مثل هذا التصور هم أناس صالحون، بل أن بعض الذين أعرفهم كان إنساناً صالحاً للغاية وقد اشترى له حصاناً وكان عنده سيفاً، وكان على أهبة الاستعداد في انتظار الإمام صاحب الأمر سلام الله عليه.. فأمثال هؤلاء كانوا يعلمون واجباتهم الشرعية، وكانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكن الأمر كان يقف عند هذا الحد. وفيما عدا ذلك لا يصدر منهم شيئاً ولم يكونوا يفكرون بفعل شيء فيما يخص هذا الأمر الهام.. وعلى صعيد آخر ثمة جماعة ترى في انتظار الفرج بأن تدير ظهرها لكل ما يجري من حولها. فلا شأن لها بما يجري على الشعوب وما يعاني منه شعبنا، وكل همها هو العمل بواجباتها الدينية وفيما عدا ذلك فهو من مهام صاحب الزمان الذي سيأتي ويصحح كل شيء بنفسه. إذ يقول أفراد هذه الجماعة: نحن غير مسؤولين عما يجري وكل ما علينا هو أن ندعو لظهور صاحب الزمان. هؤلاء أيضاً كانوا أفراداً صالحين)[٣٩]

بل إن الأمر ـ كما يذكر الإمام الخميني ـ تجاوز ذلك كله، فقد ظهر من يستحسن زيادة المعاصي والجور، ويتصور أن ذلك هو التمهيد الحقيقي للإمام المهدي، يقول: (فئة ثالثة كانت تقول: حسناً، يجب أن يمتلئ العالم بالمعاصي حتى يمهد لظهور الإمام صاحب الأمر. يجب أن لا ننهى عن المنكر ولا نأمر بالمعروف وترك الناس يفعلون ما يشاءون لكي تزداد المعاصي ويقترب الفرج. بل هناك فئة تؤمن بأكثر من هذا إذ تقول: يجب التشجيع على المعاصي وارتكاب الذنوب حتى تمتلئ الدنيا ظلماً وجوراً مما يمهد لظهور الإمام الحجة سلام الله عليه، وبطبيعة الحال بين هؤلاء أناس منحرفون وبينهم سذج أيضاً، وكان المنحرفون يتطلعون إلى تحقيق أهداف خاصة)[٤٠]

وبناء على هذا نرى كل أحاديثه تنصب حول الانتظار الإيجابي، وبيان كيفيته ومنهجه والطرق التي تؤدي له، ويرد على تلك المفاهيم التي يشيعها المنكرون على الجمهورية الإسلامية، والتي تصورها بمثابة المستعجل الذي أراد أن يؤدي وظائف الإمام المهدي قبل ظهوره، ومن الأمثلة على ذلك قوله في بعض خطبه: (علينا في مثل هذه الأيام، أيام الله، أن ننتبه ونعمل على إعداد أنفسنا لظهور الإمام.. وعلينا أن نعد أنفسنا بحيث إذا كتب لنا أن نلقاه إن شاء الله، نلقاه بوجه ابيض. وعلى جميع الأجهزة التي تمارس مهامها في البلاد ـ وآمل أن يتسع ذلك ليشمل سائر البلدان ـ الاهتمام بهذا المعنى وإعداد أنفسهم للقاء الإمام المهدي سلام الله عليه)[٤١]

ثم راح يفصل كيفية الاستعداد لكل جهة من جهات الدولة، وبدأ بمسؤولية وسائل الإعلام لأهميتها وخطورتها، فقال: (ينبغي لمؤسسة الإذاعة والتلفزيون، كما ذكرت كراراً، أن تتحول إلى مركز تعليمي تربوي.. لابد لها من النهوض بمسؤولية إعداد الشعب من خلال برامج تعليمية وتربوية. علينا أن ننتبه إلى هذا المعنى وهو أننا نعيش في عصر وفي وقت تمكن الشعب الإيراني من تحقيق بعض تطلعاته المتمثلة في العدالة. حيث بسطوا العدالة الاجتماعية بشكل عام وقطعوا أيدي الأشرار. والآن ينبغي لهذه الأجهزة التي كانت في خدمة الظالمين وفي خدمة حكام الجور وإذا كان هناك أشخاص كانوا يعملون لصالح حكام الجور في العهد السابق، فعليهم أن يعوضوا الآن عن المعاصي التي ارتكبوها في ذلك الوقت.. إن القناة التي ينبغي أن ترى النور عن قريب تعتبر مركزاً لبسط العدالة، وجهازاً تعليمياً بمعناه الحقيقي، وليعلم الجميع أن شبابنا حيثما كانوا، بقوا يتلقون تعليماً مشوهاً طيلة خمسين عاماً، ليس فقط في الجامعات التي

كانت متدهورة للغاية، بل في كل مكان. لأنه عندما يمارس التلفاز والراديو والصحافة والمجلات الإفساد، فإنها ستنشر الفساد في كافة أوساط الشعب. فحتى الشباب الذين كانوا في البراري عندما كانوا يسمعون هذه الأشياء أو كانوا يقرأون هذه الصحف أحياناً كانوا ينحرفون نحو الفساد، والآن ينبغي التعويض عن ذلك. ينبغي أن يعوضوا عن المعاصي التي ارتكبوها)[٤٢]

وهكذا (الحال بالنسبة للمقالات التي تكتب في الصحف وتقرأ، ينبغي أن تتحول إلى قضايا ذات أهداف تربوية.. فلا ينبغي للصحافة أن تكتب شيئاً يؤدي إلى إثارة المواطنين وانحرافهم. ولا ينبغي للإذاعة أن تعمل ذلك. عليهم أن يمارسوا دورهم في الإرشاد وأن يوجّهوا أنظار الشعب إلى العدو الذي يتربص بنا الدوائر، فالعدو يتربص وقوع أي أزمة، فيجب سد الطريق أمام أي توتر)[٤٣]

وهكذا كان للولي الفقيه ـ باعتباره نائبا للإمام المهدي ـ دوره الكبير في التحضير لذلك الظهور المبارك الذي يتحقق به العدل الشامل الذي يبدأ بعدالة الأخلاق، وينتهي بالعدالة الاجتماعية.

٣ـ التصحيح الديني والشريعة:

بناء على تلك المفاهيم الخاطئة للدين، والتي اهتم المستبدون طيلة التاريخ الإسلامي بإشاعتها، أصبحت الشريعة الإسلامية قاصرة على الحياة الشخصية والأسرية وبعض القضايا الاجتماعية، أما الجوانب السياسية والاقتصادية وغيرها، فقد أزيلت من الشريعة تماما، بل وضع بدلها ما يؤيد كل أحكام الجور والاستبداد.

ولذلك كان لأطروحات قادة الثورة الإسلامية المرتبطة بتطبيق الشريعة، وولاية الفقيه دورا مهما في عرض الإسلام المحمدي الأصيل، الذي تشمل تشريعاته شؤون الحياة جميعا.

ولهذا نرى الإمام الخميني يستعرض تلك المقولات التي تعطل الشريعة في البيئتين السنية والشيعية، بحجج مختلفة، ويبين تهافتها، وتعارضها مع الإسلام المحمدي الأصيل.

ومن أمثلة أقواله الموجهة للذين يتبنون تلك المقولات، ويزعمون في نفس الوقت أنهم يطبقون سنة رسول الله ﷺ وسنة أصحابه: (إذا أراد المسلمون متابعة سيرة الرسول ﷺ وتحقق العزة والعظمة التي كان يتحلى بها الرسول الأكرم وأصحابه وكافة فئات المسلمين في صدر الإسلام، وأن يجدوا العزة لأنفسهم، فإن تلك السيرة تتلخص بالالتفاف حول الإسلام الذي يمنح أتباعه قدرة وشجاعة ما فوق الطبيعة، فالشيء الذي أدركه شعبنا مع وجود حالة الضعف والتشتت، هو ذات الشيء الذي أدركه المسلمون في صدر الإسلام ألا وهو الاعتماد على الإيمان ووحدة الكلمة والصف)[٤٤]

وهكذا نراه يرد على أولئك الذين يزعمون لأنفسهم أنهم أتباع أئمة أهل البيت، بينما يقصرون في اتباع سننهم في ذلك، وهو يستعرض أخطر مقولاتهم، والتي تعتمد على بعض الروايات، ويرد عليها ردا مفصلا، فيقول: (كانت هناك فئة تؤمن بأن كل حكومة تقوم في عصر الغيبة هي حكومة باطلة وتتعارض مع الإسلام، وأمثال هؤلاء أن لم يكونوا ألعوبة، فهم أناس غرتهم بعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن نظير: إن أية راية ترفع قبل ظهور صاحب الأمر، هي راية باطلة. وكانوا يتصورون ذلك في أية حكومة.. في حين أن أمثال هذه الأحاديث تشير إلى أن كل مَنْ رفع راية إلى جانب راية الإمام المهدي، تحت عنوان (المهدوية)، فهو باطل)

ثم بين تعارض ما فهموه من تلك الأحاديث مع القرآن الكريم، فقال: (لنفرض أن أمثال هذه الأحاديث

موجودة. ألا يعني ذلك أن التكليف قد سقط عنا؟ ألا يتعارض هذا مع ضروريات الإسلام، مع القرآن، بأن ندعو إلى ارتكاب المعاصي حتى يأتي صاحب الأمر؟ لأجل أي شيء يأتي صاحب الأمر؟ يأتي لنشر العدل وبسط القسط، يأتي من أجل القضاء على الفساد. إننا إذا لم نَنْهَ عن المنكر ولا نأمر بالمعروف، ونعمل على إشاعة المعاصي، إنما نعمل خلافاً لنص القرآن الكريم. فعندما يأتي الإمام المنتظر ماذا يفعل؟ يأتي من أجل أداء هذه الأعمال. وفي الوقت الحاضر، أليس لدى الإنسان تكليف؟ هل تكليف الإنسان أن يدعو الناس للفساد؟ إن علينا حسب تصور هذه الجماعة التي بعض أفرادها ألعوبة وبعضهم جهلة أن نجلس وندعو لصدام. وأن كل من يدعو على صدام فانه يساعد في تأخير ظهور الإمام المهدي. وأن الذين يدعون لصدام إنما يفعلون ذلك كي يزداد الفساد.. علينا أن ندعو لأميركا وللاتحاد السوفيتي ولأذنابهم من أمثال صدام كي يمتلئ العالم بالظلم والجور ويساعد ذلك في ظهور الإمام الحجة. وإذا ما ظهر الإمام يعمل على إزالة الظلم والجور. فما نقوم به وندعو لزيادة الظلم والجور، يأتي الإمام المهدي ويعمل على إزالته؟)[٤٥]

ثم بين أن الانتظار الإيجابي يستدعي التمهيد لذلك الظهور المبارك، يقول: (الحقيقة هي أن علينا أن نعمل للقضاء على الظلم والجور في أي مكان من العالم إذا كان في مقدورنا ذلك.. إن تكليفنا الشرعي يدعونا إلى ذلك ولكن ليس بمقدورنا. وسيأتي الإمام المهدي ليملأ الأرض قسطاً وعدلًا، غير أن ذلك لا يسقط التكليف عنكم بأن تكفوا عن أداء واجبكم. نحن لدينا تكليف)[٤٦]

وبناء على هذا، فإن تأسيس الحكومة الإسلامية التي تطبق الشريعة، هو التكليف الشرعي الذي

على المنتظر أن يحققه في الواقع، يقول: (مَنْ يقول بعدم ضرورة الحكومة فهذا يعني أن تكون هناك فوضى. فإذا ما غابت الحكومة فسوف يعم الفساد البلاد بنحو ليس له حدود. فأي عاقل يقبل أن يظلم الناس بعضهم البعض الآخر كي يمهدوا لظهور صاحب الزمان!! وماذا سيفعل صاحب الزمان حين يأتي؟ أليس القضاء على الظلم وبسط العدالة. فالإنسان أن لم يكن سفيهاً ولا مغرضاً ولم يكن ألعوبة بيد الآخرين، لن يقبل بمثل هذه الأفكار)[٤٧]

وهو يذكر أن مصدر كل هذه التحريفات هي قوى الاستبداد في القديم والحديث، والتي حولت من تلك المفاهيم أفيونا للشعوب، يقول: (حقيقة الأمر هي أن السياسة تقف وراء ذلك. مثلما لقنوا الشعوب، لقنوا المسلمين وجموع غفيرة من سكان الأرض بان السياسة ليست من شأنكم، أذهبوا أنتم إلى عملكم واتركوا السياسة لأهلها.. إن مثل هذا الكلام الذي يدعو الناس للتخلي عن السياسة وتركها إلى الظلمة، تركها إلى أميركا والاتحاد السوفيتي وأمثالهما كي يتسنى لهم نهب ثرواتنا وخيراتنا، كي يتسنى لهم أن ينهبوا ثروات المسلمين والمستضعفين، إن مثل هذا الكلام تخريف وسذاجة. وقد ضحكوا به على عقول الناس، بأن اتركوا السياسة لنا واذهبوا أنتم إلى مساجدكم)[٤٨]

ويعقب على ذلك برفض كل الروايات التي تدعو إلى السلبية، لمعارضتها للقرآن الكريم، يقول: (إن هؤلاء الذين يقولون ببطلان كل راية ترفع وكل حكومة تقوم، يتصورون بأن قيام كل حكومة هو خلاف لانتظار الفرج. إنهم لا يفقهون ما يقولون، وإنما تم تلقينهم بأن يقولوا مثل هذا الكلام.. إن غياب الحكومة يعني أن يتكالب الناس على بعضهم البعض. يقتل بعضهم البعض، ويتصرفون بما يتعارض ونص القرآن الكريم.. فإذا

فرضنا بأن هناك مائتي حديث في هذا الباب، فإننا نضرب بها عرض الحائط لأنها تتعارض مع نص القرآن الكريم.. إن كل حديث ينص على عدم وجوب النهي عن المنكر، يجب أن يضرب به عرض الحائط. لأنه لا يمكن العمل بهذا النوع من الأحاديث، وإن هؤلاء الأغبياء لا يعون ماذا يقولون: كل حكومة تقوم هي حكومة باطلة!!. بل لقد سمعت أن بعض هؤلاء يدعو إلى الكف عن تهذيب الأخلاق في إيران اليوم، فلم تعد هناك ضرورة لمثل هذا الكلام!!. وهذا يعني أن يكون أستاذ الأخلاق في جمع من الأناس الفاسدين، وأن تكون أبواب الحانات مشرعة ومراكز الفساد ناشطة. لأنه إذا كانت البيئة صالحة فلا حاجة لتهذيب الأخلاق. إن مثل هذه الدعوات إن لم تكن مغرضة فهي غبية وبلهاء. بيد أن هؤلاء يدركون جيداً ماذا يفعلون ويتطلعون إلى عزلنا عن هذا العالم)[٤٩]

ثم بين أن مصاديق تلك الأحاديث في حال صحتها، لا تنطبق على الوضع في إيران، ولا في الدول الإسلامية، وإنما في العالم أجمع، لأن دور الإمام المهدي هو نشر العدل في جميع العالم، يقول: (أجل، ليس بمقدورنا أن نعمل على سيادة العدل في العالم أجمع، ولو كان بمقدورنا ذلك لفعلنا. ولأننا لا نستطيع أن نفعل ذلك فلا بد من ظهور الإمام المنتظر. العالم اليوم يسوده الظلم ونحن في نقطة من هذا العالم. وإذا كان بمقدورنا التصدي للظلم يجب أن لا نتهاون في ذلك، لأنه واجبنا. الإسلام والقرآن حدد مسؤولياتنا وسن لنا واجباتنا ولكن لا نستطيع نشر العدل في العالم بأسره ولا بد من ظهوره سلام الله عليه. ولكن يجب أن نمهد الطريق له. يجب أن نوفر الأسباب التي تعجل في ظهوره. علينا أن نعمل على تهيئة العالم لظهور الإمام المهدي الموعود سلام الله عليه)[٥٠]

بالإضافة إلى ذلك، فإن دور الإمام المهدي ـ كما يذكر الإمام الخميني ـ هو تحقيق العدل بمفهومه الشامل الواسع، يقول: (إن هذه العدالة ليست كما نفهمها نحن ولا تقتصر على إيجاد حكومة عادلة خالية من الجور بل تتعدى إلى ما هو أكثر من هذا المعنى. معنى يملأ الأرض عدلًا بعدما ملئت جوراً، هو أن الأرض ملئت جورا وهي تزداد سوءاً، فجميع النفوس الموجودة تعاني من الانحراف. حتى نفوس الشخصيات المتكاملة تعاني من الانحراف ولو من حيث لا تعلم. فالأخلاق يعتريها الانحراف، والعقائد يعتريها الانحراف والأعمال يعتريها الانحراف. ولا يخفى الانحراف في الأعمال التي يقوم بها الإنسان. أنه مأمور بان يعالج كل معوج وأن يعيد كل الانحرافات إلى جادة الاعتدال، ليصدق حقاً (يملأ الأرض عدلًا بعدما ملئت جوراً)[٥١]

وبين الإمام الخميني أن تلك الأفكار السلبية دخيلة على الإسلام، ولا علاقة لها به، بل هي من إنتاج الحكام المستبدين، يقول: (على أية حال إن كل هذه المصائب دخيلة على المسلمين وأن القوى الخارجية تعمل على إشاعتها لكي يتسنى لها نهب ثرواتنا والقضاء على عزة المسلمين. وللأسف إن الكثير من المسلمين آمنوا بذلك.. لكننا عازمون على تمهيد الطريق لظهوره إن شاء الله)[٥٢]

وهكذا نراه في خطاب آخر له يدعو إلى مطالعة كتب الفقه والحديث، والاطلاع على ما فيها من أبواب مرتبطة بالحياة جميعا، وتعطيلها هو تعطيل للشريعة، يقول في ذلك: (أحد إبعاد شخصية الإنسان، أنه يريد أن يعيش حياة اجتماعية في هذه الدنيا المادية، يريد أن يقيم حكومة، يريد تأسيس أشياء أخرى مثلا ترتبط بجانبه المادي، الإسلام ينطوي على قوانين لذلك أيضا، فقد وردت من الآيات والروايات في السياسة ما لم يرد مثله في العبادة

مـثلا.. لاحظـوا أن هنـاك اكثـر مـن خمسـين كتابـا فقهيـا، سـبعة أو ثمانيـة منهـا تـرتبط بالعبـادات والبـاقي يـرتبط بالسياسة والاجتماع والمعاشرة وأمثالها. ونحن تركنا كل ذلك جانبا وتمسكنا ببعد واحد، تمسكنا بأضعف الأبعاد)[٥٣]

وأخبر أن ذلك مـن تـأثير المفـاهيم المنحرفة التي أدخلت للإسلام، يقول: (لقد عرضـوا الإسـلام بصـورة مشـوهة بدرجة صدقنا نحن أيضـا بـان الإسـلام لا علاقة له بالسياسة! السياسة لقيصـر والمحـراب لعـالم الـدين وإن كـانوا لا يتركون المحراب لنا)[٥٤]

ثـم يـردد شـعاره الـذي يـذكره كـل حين: (الإسلام دين السياسة، الإسـلام له حكومة، أقـرأوا عهـد الأميـر (الإمـام علي) وكتابه إلـى مالـك الأشـتر، سـوف ترون على ماذا ينطوي الإسلام، طـالعوا أوامـر الرسـول وأوامـر الإمـام علـي فـي الحـروب وفـي السياسـة ولاحظـوا علـى ماذا تنطوي.. إن لدينا كل هذه الثـروات لكننا غير مؤهلين للاستفادة منها، لدينا الثروة، لدينا كـل شـيء ولكننـا لـم نبلـغ مستوى الاستفادة منها، تماما كما هـو حـال إيـران التـي تمتلـك كـل شـيء إلا انهـم يعطونـه للغيـر. إن كتبنـا وتراثنـا الإسلامي غني وينطوي على كل شـيء ولكـن خبـرائهم عرضـوا الإسـلام علينـا بصورة مشـوهة.. إن الإسـلام لـه نظـام حكم، لا كما هـو حـال هـذه الأنظمـة، فـي الإسـلام حكومـة، فـي الإسـلام إمامـة، فيـه خلافـة، فقـد شـكل نبـي الإسلام حكومة، وكانت للأمير (الإمـام علـي) حكومـة وولاة، كـان لديـه كـل شيء. كان لهما جيش وقواعد عسكرية ينظم على أساسها الجيش، كان لـديهم كل شـيء.. لقـد قرأنـا كـل ذلـك ولكـن ولكثرة ما أوحي إلينا ولكثرة مـا قيـل لنـا اهتموا بشؤونكم واهتمـوا بصـلاتكم ولا شأن لكم بما يفعل أولئك، لكثرة ما قيل لنا ما شأنكم والسياسة، فقد وصل الأمر إلى هذا الحد الذي يجعلنا اليوم نجتمـع لإقامة مأتم ها هنا!)[٥٥]

ثـم بـين أن ذلـك كلـه سياسـية

استعمارية مدروسة، يقول: (منذ ذلك الحين الذي فتح فيه طريق أوروبا نحو آسيا والشرق وخبرائهم يدرسون ويطالعون، فهم واعون وانا وأنت كنا في نوم عميق في مدارسنا! لقد درسوا أراضي إيران شبرا شبرا ولديهم الآن خرائط عن كل بقعة فيها نفط وكل بقعة فيها نحاس. لقد جاء هؤلاء الخبراء إلى هذه الصحارى القاحلة على ظهر الجمال وذهبوا بحثا عن ثرواتنا وسجلوا كل ما وجدوه.. كذلك كانت مطالعاتهم فيما يتعلق بنا، فادركوا بعد دراسات مطولة بان الأمر الذي يمكن أن يقف بوجههم هو الإسلام وخدمة الإسلام، لذا فقد ضربوا الإسلام وعزلوه حتى عن الأمة الإسلامية وعن خدام القرآن، فحتى بعض خدمة القرآن لا يمكنك أفهامهم بان الإسلام دين سياسة، فربما اعتبروا هذا الأمر نقصا في الإسلام!)[٥٦]

ولا يكتفي الإمام الخميني بهذه التصحيحات المرتبطة بالجوانب السياسية، وإنما يدعو إلى تصحيح كل الجوانب التي دخلها الانحراف، ومن أهمها ذلك التقصير في الجوانب الأخلاقية والإيمانية، ولذلك دعا إلى إصلاح الحوزة بحيث تهتم بهذه الجوانب.

ومن الأمثلة على ذلك قوله: (يجب أن تحظى الأخلاق في كل زمان ومكان بالاهتمام البالغ. وأعتقد أنه يجب أن يكون لكل شخص منا حوزة كبيرة أو صغيرة، فيلقي درساً في الأخلاق بمقدار دقيقة أو دقيقتين عند البدء أو الاختتام كي ينشأ طلبة العلوم الدينية على الأخلاق الإسلامية)[٥٧]

لكنه مع هذا كله كان يدعو دائما إلى الحفاظ على الفقه والتراث والاهتمام بهما، وبالطريقة التقليدية التي تخرج منها العلماء السابقون، وهذا بعد مهم جدا في شخصيته، فهو ليس كالذين دعوا إلى طرح كل التراث، ورمي كل الأساليب القديمة بحجة التجديد، وإنما جمع بينهما،

جمع بين التجديد والمعاصرة في نفس الوقت.

ومن أقواله في ذلك: (حوزات الفقه هذه، هي التي حافظت على الإسلام على مدى ألف وبضع مئات من السنين. لقد بدأ علماؤنا مسيرتهم في الحفاظ على الفقه في عهد الأئمة الأطهار ومازالوا يواصلون جهادهم في الحفاظ على الفقه الإسلامي اليوم. إذا إياكم أن تظنوا بأن الدخول في عالم السياسة سيكون مسوّغا لترك الفقه، بل على العكس تماماً، عليكم متابعة الدراسة وترسيخ أركان الفقه أكثر فأكثر. ومن جهة أخرى على أئمة المساجد أن يتابعوا دورهم في إرشاد الشعب وهدايته. وعلى الخطباء أيضاً أن يحافظوا على منابرهم لوعظ الناس وإرشادهم، وفي نفس الوقت عليهم أن لا يغفلوا عما يجري من حولهم. كي لا نغفل عن أساس حفظ الإسلام فتقل منزلة الفقه في الحوزات العلمية. الفقهاء هم حصون الإسلام المنيعة وهم الذين حفظوا الإسلام. يجب أن يكون اهتمام الحوزة بالفقه أكثر من أي شيء آخر. ولو زالت حوزات الفقه أو تم تضعيفها ـ لا سمح الله ـ لانهارت الرابطة بين الفقهاء والناس. وفي الحقيقة فإن الذي حفظ هذه الرابطة وهذه الصلة؛ هم الفقهاء أنفسهم. ولو جاء أشخاص إلى الحوزات واقترحوا بأن لا يكون الفقه بكل هذه التفاصيل، ويدعون إلى الانصراف إلى أمور أخرى على أنها أكثر أهمية، فهؤلاء على خطأ كبير ولعلهم يعملون لمصلحة جماعة معينة)[٥٨]

وهكذا يدعو إلى الحفاظ على كل الإيجابيات الموجودة في المناهج السابقة على عكس الثورات الاستئصالية التي تستغل نجاحها في القضاء على كل قديم، يقول الإمام الخميني: (يجب أن يبقى الفقه على قوته السابقة وإلى جانب الفقه، يجب الاهتمام بسائر العلوم. فالفقهاء كانوا علماء أخلاق يدعون الناس والعلماء

وأربـاب العلـم للتحلـي بـالأخلاق الكريمة، وعلماء عرفان يدعون النـاس إليه ولكن الفقه يبقى الأساس)[٥٩]

وهكذا يـدعو فـي حـديث آخـر إلـى الحفاظ على التراث الفقهي والاهتمـام بـه وطلـب العلـم مـن خلالـه، وعـدم الاغتـرار بالتجديـدات التـي قـد تضـره، فيقول: (على السـادة العلمـاء الأعـلام والأساتذة المحتـرمين الـذين ينشـدون خيـر الإسـلام والدولـة الإسـلامية أن يحذروا بشـدة لـئلا تخـدعهم المظـاهر والشـكليات وينحـرف اهتمـامهم عـن الأهداف الأساسـية والمهمـة للحـوزات العلمية المتمثلة فـي الاشـتغال بـالعلوم الإسلامية الشائعة لا سيما الفقـه علـى طريقة السلف الصـالح. وحـذار مـن أن يحـول ـ لا سـمح اللـه ـ الاشـتغال بالمبادئ والمقدمات دون تحقق الغايـة الأصلية وهي بقاء ونمـو بحـوث العلـوم الإسلامية لا سيما الفقـه علـى طريقـة السلف الصالح وعظماء المشايخ أمثـال (شـيخ الطائفـة) ونظرائـه، ومـن المتـأخرين أمثـال (صـاحب الجـواهر) والشيخ الأعظم (الأنصـاري)، فـإذا مـا فقد الإسلام ـ لا سمح الله ـ كل شـيء وبقـي فقهـه بالطريقـة الموروثـة عـن الفقهـاء العظـام، فإنـه باسـتطاعته أن يواصل نهجه وطريقه، ولكن إذا ما توفر لـه كـل شـيء وضـاع منـه فقهـه علـى طريقـة السـلف الصـالح هـذه، فإنـه لا يستطيع مواصلة طريـق الحـق وسـوف يمنى بالانحراف)[٦٠]

٤ـ التصـــــحيح الـــــديني والانفتاح:

مـن أهـم المفـاهيم الدينيـة التـي أحياها الإمام الخميني بين المسلمين، بـل فـي العـالم أجمـع، ذلـك الانفتـاح الذي جعله لا يكتفي بإصلاح بلده، ولا في حصر مشـروعه وثورتـه فيهـا، وإنمـا في تعميمها على العالم أجمع.

وبـذلك يكـون قـد طبـق كـلا خاصيتي الإسلام: شموليته، حين دعـا إلـى تطبيـق الإسـلام فـي جميـع المجالات.. وعالميته حين دعا إلى بث

مفاهيمه في جميع العالم، ابتداء من العالم الإسلامي.

كما طبق كل خواصه الأخرى، من الواقعية والربانية وغيرها، كما رأينا ذلك في الجزء السابق، حيث حول من النظم الإسلامية نظما واقعية، وليست مجرد أطروحات نظرية.

وأحاديثه في هذا الجانب كثيرة جدا، ومن أمثلتها قوله ـ مخاطبا مسؤولي الجمهورية الإسلامية ـ: (وليعلم مسؤولونا بأن ثورتنا غير محدودة بحدود ايران، بل إن ثورة الشعب الإيراني هي نقطة انطلاقة ثورة العالم الإسلامي الكبرى التي يحمل لوائها الإمام الحجة أرواحنا فداه.. وليعلم المسؤولون بأنه إذا ما أعاقتهم المسائل الاقتصادية والمادية عن أداء المهام الملقاة على عاتقهم ولو للحظة واحدة، فسيترتب على ذلك خطر عظيم وخيانة كبرى. لذا يجب على حكومة الجمهورية الإسلامية أن تبذل كل ما في وسعها في تلبية احتياجات الشعب على أفضل نحو، غير أن ذلك لا يعني التغافل عن أهداف الثورة العظيمة المتمثلة في إقامة حكومة الإسلام العالمية)[٦١]

وفي خطاب آخر له، وضح السياسة الإيرانية في هذا الجانب، فقال: (يجب أن نسعى بكل وجودنا للتواصل مع شعوب العالم ومتابعة قضايا المسلمين وهمومهم ودعم المناضلين والجياع والمحرومين، وان نعتبر ذلك من مبادئ سياستنا الخارجية.. إننا نعلن بأن الجمهورية الإسلامية الإيرانية تعتبر نفسها الحامي والملاذ للمسلمين الأحرار في العالم. وباعتبارها حصناً منيعاً لا يقهر، تعمل إيران على توفير احتياجات جند الإسلام وتوعيتهم بالمباني العقائدية والتربوية للإسلام، وبأصول وأساليب النضال ضد أنظمة الكفر والشرك)[٦٢]

وبناء على هذا كان الإمام الخميني يرسل خطاباته للمسلمين في جميع أنحاء العالم، باعتباره ولي

أمرهم، ومن الأمثلة على ذلك قوله في خطاب موجه للحجيج قال: (وعليكم أن تأخذوا بنظر الاعتبار أن هذا التجمع الكبير، الذي يحدث بأمر الله تعالى كل عام في هذه الأرض المقدسة، يوجب عليكم أيتها الشعوب الإسلامية أن تبذلوا جهودكم في طريق أهداف الإسلام المقدسة، والأهداف السامية للشريعة المطهرة، وفي طريق تقدم وسمو المسلمين، وتضامن المجتمع الإسلامي وتلاحمه. عليكم أن تتحدوا في الفكر وتتحالفوا في طريق الاستقلال، واستئصال سرطان الاستعمار. وان تستمعوا إلى مشاكل الشعوب المسلمة من لسان أهالي كل بلد، ولا تألوا جهداً في طريق حل مشاكلهم. وأن تجدوا حلًا لفقراء البلاد الإسلامية ومساكينها. وتفكروا في طريق لتحرير ارض فلسطين المسلمة من مخالب الصهيونية العدو اللدود للإسلام والإنسانية. ولا تغفلوا عن مساعدة الرجال المضحين الذين يناضلون في سبيل تحرير فلسطين، والتعاون معهم)[٦٣]

وهو يذكر كل حين أن هذا الانفتاح على العالم هو الذي يحقق أهداف النبوة، يقول: (ذلك اليوم الذي تتحقق فيه أهداف الإسلام وأهداف نبي الإسلام في جميع الدول الإسلامية سيكون مباركاً وأن لا يكون ذلك مجرد شعار فقط لا يتعدى الألفاظ. في هذا الوقت الذي صار فيه تغير كبير من حيث الدول الإسلامية ويقظة المستضعفين واستقلال كثير من الدول. نحن المسلمون من حيث العدد من أكبر الأعداد إذا كنا معاً وثرواتنا من أكبر الثروات وأفرادنا أشخاص عظام وبارزون آمل أن نجتمع بالوحدة الإسلامية وتحت راية تعاليم القرآن، وفي نفس الوقت الذي نتمتع فيه بالاستقلال في دولنا نكون جميعنا مجتمعين تحت راية الإسلام والتوحيد ولا نفسح المجال للقوى الكبرى للتحكم بدولنا بحيث نكون نحن تحت

راية دولهم تابعين لهم)[٦٤]

وفي حديث له ـ بمناسبة شهادة مرتضى مطهري ـ قال مخاطبا بعض زواره الذين جاءوا لتعزيته، بعد أن تحدث عن الشهادة والتضحية ودورها في إقامة العدل: (لقد كانت هذه النهضة من أجل الهدف الإسلامي، وليس إيران فقط، غاية الأمر أن نقطه البداية كانت من إيران وجميع المسلمين شركاء في هذا الهدف.. إن النهضة كانت من أجل إقامة العدل، فلابد من القول بأن الجميع شارك فيها، ولأنها من أجل إحياء الإسلام فالمسلمون شركاء فيها أيضاً.. ولذلك فإنه يجب على جميع المسلمين أن يساهموا وبصوت واحد في هذه النهضة الإسلامية العظيمة، عسى أن يتحقق لدى الشعوب المعنى الذي تحقق في إيران، وهو التضحية في سبيل الإسلام، ووحدة جميع فئات الشعب من أجل نجاح أهداف الإسلام، وإذا تحققت مثل هذه الوحدة للكلمة مع هذا الهدف الكبير ألا وهو إقامة العدل، إذا ما تحقق ذلك، في الدول الإسلامية الكبيرة فإنها ستكون قوة عظيمة ولن تستطيع أية قوة الوقوف في وجهها حتى ولو كانت قوة عظمى)[٦٥]

وفي خطاب آخر له بتاريخ ٨ جمادى الأولى ١٣٩٩ هـ أمام وفد من دول عربية مختلفة قال: (لا تتوقعوا أن تقوم الحكومات بعمل لصالحكم. لقد نصحت الحكومات العربية لأكثر من ١٥ عاما وحثثتهم على الوحدة لإنقاذ القدس، إلا أن ذلك لم يؤثر فيهم مطلقاً، لان مثل هذه الأمور لا تخطر على بالهم أبدا وهم إذا ما تحدثوا حول عن ذلك فحديثهم يشبه إلى حد كبير الاحاديث التي كان يتبجح بها الشاه المخلوع فيما يتعلق بالتقدم والحضارة الكبرى.. فهؤلاء لا يخطر على بالهم التفكير بالشعوب، وعلى الشعوب ذاتها أن تفكر بمصالحها. ولو تقرر أن نقف بانتظار ما تقوم به الحكومات من أجلنا لبقينا على حالنا

مـن التخلـف ولبقـي الشـاه المخلـوع يحكمنا. لقد واجهنا نحن بقوة الإيمـان التـي تحققـت لشـعبنا، واجهنـا تلـك القـوى وانتصـرنا بحمـد اللـه وقضـينا عليهم)

ثم بين لهم ضرورة النهضة والثـورة علـى الاسـتبداد والظلـم لتحقيـق المشـروع الإسـلامي فـي كـل الـبلاد الإسـلامية، فقـال: (إذا أردتـم التغلـب على مشاكلكم، إذا أردتم إنقاذ القدس وإنقـاذ فلسـطين وإنقـاذ مصـر وسـائر الدول العربية من أيدي هـؤلاء العمـلاء ومن أيدي الأجانب، فان على الشـعوب أن تنهض، على الشعوب أن تقوم بهذا الأمـر وأن لا تبقـى بانتظـار قيـام الحكومات بذلك، فتلك الحكومـات لا تتحرك الا لما يحقق مصالحها)[٦٦]

وبين لهم ضرورة التضحية لتحقيق ذلك، فقال: (علـى الشـعوب أن تثـور، على الشـعوب أن تـدرك أن سـرّ النصـر يكمـن فـي تمنـي الشـهادة، وفـي الأعراض عن الحياة الماديـة والدنيويـة والحيوانيـة. إنـه السـر الـذي يمكّـن الشعوب مـن التقـدم السـر الـذي أشـار إليـه القـرآن وجعـل العـرب، أضـعف الناس آنذاك، يبسطون سيطرتهم على بقاع كثيرة)

ودعاهم إلى الرجوع للقرآن الكـريم والإسـلام المحمـدي الأصـيل، لأنـه الكفيل بتوفير كل الشروط المؤدية إلى ذلـك، يقـول: (لقـد صـاغ القـرآن الإنسـان، صـاغ إنسـانا إلهيـا يمكنـه الانطـلاق بقـدرة إلهيـة والتغلـب علـى أقوى الإمبراطوريات في اقل من نصف قرن.. علينا أن نعثـر علـى هـذا السـر، علينـا أن نتبـع القـرآن، ينبغـي إيجـاد الإنسـان القرآنـي، وعلـى الشـعوب أن تسـتلهم القـرآن حتـى تـتمكن مـن التقدم.. ولو أن الشـعوب أرادت انتظـار النتـائج مـن الألاعيـب السياسـية، والاجتماعات العاديـة والجلسـات التـي تعقدها المحافل السياسية، فـانهم لـن يحققـوا شـيئا أبـدا.. علـى الجميـع أن يتوحـدوا ويصـبحوا نموذجـاً للإنسـان

الإلهي المجاهد في سبيل الله، فاذا اصبحوا كذلك سيتقدمون.. إنني أوصي كافة الشعوب والمسلمين والعرب الراغبين في التغلب على مشاكلهم أن يتربوا تربية إسلامية وأن يتحركوا طبقا لنهج الإسلام وأن يكون القرآن هاديهم وإمامهم. إذا أصبحت الأمور كذلك فانهم سيتغلبون على كافة العقبات. وفي غير ذلك وإذا أرادوا التحرك طبقا للموازين العادية والمعادلات السياسية فان الحكومات مسلطة عليهم والشعوب لن تحقق شيئا يذكر)[٦٧]

الهوامش:

[١] كلمة الإمام الخامنئي دام ظله في الذكرى السادسة والعشرين لرحيل الإمام الخميني، شبكة المعارف الإسلامية.

[٢] المرجع السابق.

[٣] المرجع السابق.

[٤] المرجع السابق.

[٥] صحيفة الإمام، ج١٠، ص: ٣٣٧.

[٦] المرجع السابق، ج١٠، ص: ٣٣٧.

[٧] المرجع السابق، ج١٠، ص: ٣٣٧.

[٨] خطابات الخامنئي ٢٠١٢، ص٦٩.

[٩] خطابات الخامنئي ٢٠١٢، ص٦٩.

[١٠] المرجع السابق، ص٦٩.

[١١] صحيفة الإمام، ج١١، ص: ٣٧٩.

[١٢] المرجع السابق، ج١٤، ص: ١٢٥.

[١٣] المرجع السابق، ج١٤، ص: ١٢٦.

[١٤] المرجع السابق، ج١٤، ص: ١٢٣.

[١٥] المرجع السابق، ج١٤، ص: ١٢٣.

[١٦] المرجع السابق، ج١٤، ص: ١٢٥.

[١٧] انظر: إيران نظام وقيم (ص: ١٢٤)

[١٨] صحيفة الإمام، ج٦، ص: ٧١.
[١٩] المرجع السابق، ج٦، ص: ٧٢.
[٢٠] المرجع السابق، ج٦، ص: ٨١.
[٢١] المرجع السابق، ج٦، ص: ٨١.
[٢٢] المرجع السابق، ج٦، ص: ٨١.
[٢٣] المرجع السابق، ج٦، ص: ٨١.
[٢٤] المرجع السابق، ج٦، ص: ٨١.
[٢٥] المرجع السابق، ج٦، ص: ٨١.
[٢٦] خطابات الخامنئي ٢٠١١، ص٥٨.
[٢٧] المرجع السابق، ص٣٧.
[٢٨] المرجع السابق، ص٣٧.
[٢٩] المرجع السابق، ص٣٨.
[٣٠] المرجع السابق، ص٣٨.
[٣١] المرجع السابق، ص٣٨.
[٣٢] الحديث بتاريخ: ٢٣ شوال ١٣٨٢ هـ، انظر: صحيفة الإمام، ج١، ص: ١٧٠.
[٣٣] المرجع السابق، ج١، ص: ١٧٠.
[٣٤] المرجع السابق، ج١، ص: ١٧١.
[٣٥] المرجع السابق، ج١، ص: ١٧١.
[٣٦] المرجع السابق، ج١، ص: ١٧١.
[٣٧] المرجع السابق، ج١٩، ص: ٥١.
[٣٨] المرجع السابق، ج١٩، ص: ٥٢.
[٣٩] المرجع السابق، ج٢١، ص: ١٨.
[٤٠] المرجع السابق، ج٢١، ص: ١٩.
[٤١] المرجع السابق، ج١٢، ص: ٣٨٦.
[٤٢] المرجع السابق، ج١٢، ص: ٣٨٦.
[٤٣] المرجع السابق، ج١٢، ص: ٣٨٨.
[٤٤] المرجع السابق، ج٩، ص: ٢١٩.
[٤٥] المرجع السابق، ج٢١، ص: ١٨.
[٤٦] المرجع السابق، ج٢١، ص: ١٨.

[٤٧] المرجع السابق، ج٢١، ص: ١٩.
[٤٨] المرجع السابق، ج٢١، ص: ٢٠.
[٤٩] المرجع السابق، ج٢١، ص: ٢١.
[٥٠] المرجع السابق، ج٢١، ص: ٢٢.
[٥١] وذلك في حديث متلفز له بتاريخ ١٥ شعبان ١٤٠٠ هـ، بمناسبة ذكرى مولد الإمام المهدي، صحيفة الإمام، ج١٢، ص: ٣٨٥.
[٥٢] المرجع السابق، ج٢١، ص: ٢١.
[٥٣] المرجع السابق، ج٦، ص: ٤١.
[٥٤] المرجع السابق، ج٦، ص: ٤٢.
[٥٥] المرجع السابق، ج٦، ص: ٤٣.
[٥٦] المرجع السابق، ج٦، ص: ٤٣.
[٥٧] المرجع السابق، ج٢٠، ص: ١٥٩.
[٥٨] المرجع السابق، ج١٣، ص: ١٨.
[٥٩] المرجع السابق، ج١٣، ص: ١٨.
[٦٠] المرجع السابق، ج١٧، ص: ٢٦٠.
[٦١] المرجع السابق، ج٢١، ص: ٢٩٧.
[٦٢] المرجع السابق، ج٢١، ص: ٨٦.
[٦٣] المرجع السابق، ج٢، ص: ٣٠٤.
[٦٤] المرجع السابق، ج١٤، ص: ٢٣.
[٦٥] المرجع السابق، ج٧، ص: ١٥٣.
[٦٦] المرجع السابق، ج٦، ص: ٣٩٧.
[٦٧] المرجع السابق، ج٦، ص: ٣٩٨.

أ. حسين أميّش
باحث وكاتب/ العراق

الطَّاقات الرّوحيَّة والجسَديَّة في القُـرآن الكَـريم

الطاقة الروحية هي أحد أنواع القوة الروحية، على إنها قدرة كبيرة على إعطاء الجسم القدرة حتى يستطيع إن يقوم بعدد كبير من الأعمال، فالإيمان الراسخ في القلوب، مع صدق التوكل على الله، والصبر على اصار التكاليف والتلذذ والرضا في تطبيقها، يحمل المؤمن على التضحية والفداء، وبذل الغالي والنفيس، فالمؤمن الذي يعمل بأوامر الله تعالى بإيمان وثبات وقوة وعزيمة، يمده الله بروح القوة، فالإسلام يهتم كثيراً بتنمية القدرات الروحية، وإن معرفة هذه القدرات وإدراكها وتوظيفها، هو الهدف الذي يسعى إليه الإسلام.

الطاقة الجسدية هي القدرة على الفعل والاستطاعة، وهي ضد الضعف، فالتأثير والنفوذ والسلطة وفي زمان يدعي فيه الكثيرون أنهم يملكون القوة والجبروت لإخضاع المستضعفين، بينما في القرآن الكريم جاءت بعدة أساليب لتعطي عدة دلالات منها، قال تعالى: ﴿**قالت إحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ**﴾. وهنا جاءت (القوي) لتدل على القوة البدنية

والعضلية، وهي من الطاقات المهمة في الإنسان، والتي يجب أن تستثمر في نظر الإسلام بشكل صحيح تعود بالنفع على الفرد المجتمع.

الطاقة الروحية

ويمكن بيان ذلك عبر المطالب الاتية.

مفهوم الطاقة الروحية

الطاقة الروحية: هي أعلى مراتب الروح الإنسانية التي ينالها المؤمن عند ما يستكمل الإيمان، والتي لها آثار خاصة ملازمة لسعادة الإنسان الأبدية، ويحصل به الطمأنينة للحياة الطيبة. أو هي التي تبعث في النفس الإشراق والصفاء والنقاء، وتعطي الطمأنينة والثبات والاستقرار والعزيمة القوية الصامدة، في داخل الإنسان.

مصادر الطاقة الروحية في القرآن الكريم والسنة النبوية

مصادر الطاقة الروحية في القرآن الكريم

تُعد الطاقة الروحية أحد أنواع القوة الخفية التي توجد في الإنسان، والتي تعمل على امداد الجسم بقوة طاقة أكبر مما هو عليه في الأمور العادية من خلال الالتزام بمصدرها وأثرها التي بينها القرآن الكريم والسنه النبوية، نذكر منها:

١. **التواصل اليومي مع الله من خلال فريضة الصلاة**، تعد الصلاة معراجاً للروح، تذكر النفس بالمقابلة والنظر إلى وجه الكريم يوم القيامة، لذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾. فالصلاة أمر انضباطي يحيى ويجدد روح التوجه إلى الله لدى الفرد، فيستطيع في أوقات أخرى غير وقت الصلاة أن يحتفظ بذكر الله في ذهنه، سواء كان في ساحة القتال أو في مكان آخر وإنّ أداء فريضة كالصّلاة في وقت معين وبصورة جماعية يظهر عظمتها وهيبتها وتأثيرها القوي الذي لا يمكن لأحد نكرانه، والصلاة في الحقيقة من أهم العوامل في تربية الإنسان وتكوين شخصيته.

٢. **الاستقامة واتباع أوامر الله عز وجل واجتناب نواهيه**، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾، تنطلق بداية خط السير من الله لتطل على الأفق الواسع الممتد الذي يشمل الحياة كلها، بكل قضاياها ومشاكلها ووسائلها وأهدافها، وأفراحها وأحزانها وخطوطها المتحركة في أكثر من اتجاه، ليكون الله هو النور الذي يشرق في كل فكرة، في كل عاطفة، وفي كل منهج، وفي كل علاقة وخطة، ويكون الإنسان على نور من ربّه في كل مرحلة من مراحل الطريق.

٣. **ذكر الله تعالى**، لأنّ الذكر مفتاح الأمان والاطمئنان وهو سرّ بين العبد ورته وفيه يستشعر العبد قربه من الله ويزيد من روحانيته ورقة قلبه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ الذين آمنوا وركنت قلوبهم إلى جانب الله وسكنت إلى ذكره، وإذا عرض لهم الشك في وجوده ظهرت لهم دلائل وحدانيته في الآيات وعجائب الكائنات فرضى به مولى ورضى به نصيراً، وبذكر الله وحده تطمئن قلوب المؤمنين ويزول القلق والاضطراب من خشيته بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذي يذهب الهلع والوحشة.

٤. **الاعتصام بالله تعالى والتوكل عليه والامتناع به والاحتماء به واللجوء إليه**، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾. إنّ الاعتصام بالله من أهم أسباب ومصادر القوة عند المؤمن والمعتصمين به المتمسكين بالقرآن دستوراً ومنهج حياة بإدخالهم جنان الخلد وإحاطتهم برحمة الله وإسباغ الفضل العظيم عليهم وهدايتهم إلى الصراط

المستقيم والمنهج القويم في الحياة فمن يعمل بالقرآن وأحكامه وشرائعه فاز بالسعادة الأبدية وكانت له العزّة الكاملة في الدنيا، وتمتع في الآخرة بالجنة والرّضوان الإلهي والسلامة من كل سوء أو مكروه.

٥. **كثرة الاستغفار والتوبة والدعاء**؛ لأنّ الاستغفار يجلب الخيرات والبركات للعبد أنه من موجبات رحمته ويجلب حلاوة الإيمان والطاعة، قال تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوا مُجْرِمِينَ**﴾.

القرآن الكريم يجعل الاستغفار من الذنب والإقلاع عنه وسيلة لنيل رحمة الله، يجعل الخير بالتوبة ترغيباً فيها، لنيل الخيرات والعطايا في الحياة الدنيا والأخرة، ويُعد عامل من عوامل القوة النفسية والاجتماعية والأخلاقية في الأمة.

٦. **الصبر على الطاعات**، لأنَّ الصبر على الطاعات أعلى وأفضل من صبره على ترك المحرمات، لذا ورد في قوله تعالى: ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ**..﴾ إن الصبر على الطاعات حتى تكون قوية في أخذ الطاعة وعدم التراخي أمام طول الزمان وكيد الشيطان، فإن المداومة على طاعة الله تحتاج إلى عزيمة صادقة ومجاهدة للنفس الأمارة بالسوء.

مصادر الطاقة الروحية في السنة النبوية

هناك اشارت في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام التي تعد مصدر من مصادر للطاقة الروحية، التي تعزز الجانب الروحي عند الإنسان نذكر منها.

١. **إنّ مفهوم الصبر يرتبط بقوة**

الإرادة والقدرة على ضبط النفس، وتحمل الصعوبات والمشاق والعثرات، وترويض النفس، ترك الملذات النفسية امتثالاً لأوامر ولي النعم، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: (الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن جميل وأحسن من ذلك الصبر عندما حرّم الله عز وجل عليك والذكر ذكران: ذكر الله عز وجل عند المصيبة وأفضل من ذلك ذكر الله عندما عليك فيكون حاجزا).

٢. **إنّ المداومة على الذكر تحيي القلوب وتوقظها،** وتبعث الطمأنينة والسكينة في النفوس وتورث أصحابها حالة من الرضا والأنس وهدوء البال، فهو طاقة إيمانية خاصة حيث تنبعث الروح متوثبة في كل عمل من أعمال البر والطاعة التي يواقعها، فقد ورد عنه تعالى في مخاطبه لعيسى عليه السلام: (يا عيسى اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي واذكرني في ملأ أذكرك في ملأ خير من ملاء الآدميين، يا عيسى ألن لي قلبك وأكثر ذكري في الخلوات واعلم أن سروري أن تبصبص إلي وكن في ذلك حيا ولا تكن ميتا).

٣. **إنّ وقوف الإنسان في الصلاة أمام الله سبحانه وتعالى في خشوع وتضرع،** يمده بطاقة روحية تبعث فيه الشعور بالصفاء الروحي والاطمئنان القلبي والأمن النفسي، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: (أوصيكم بالصلاة وحفظه فإنها خير العمل وهي عمود دينكم).

٤. **تُعد الصلاة من أعظم الطاعات عند الله سبحانه وتعالى،** فهي سرّ من أسرار الطمأنينة والرضا في قلب الإنسانِ تثبت النور في قلب العبد، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (إن العبد إذا تخلى بسيده في جوف الليل المظلم وناجاه أثبت الله النور في قلبه ثم يقول جل جلاله لملائكته يا ملائكتي انظروا إلى عبدي فقد تخلى بي في جوف الليل المظلم والباطلون لاهون والغافلون نيام اشهدوا إني قد غفرت له).

الإعداد الروحي عند الأنبياء والأوصياء في القرآن الكريم

أولاً: الإعداد الروحي عند النبي محمد ﷺ في الدعوة النبوية

قام النبي الكريم ﷺ دولته على قواعد وأسس بنيوية عميقة عمادها الإيمان بالله عز وجل وحسن معاملة الخلق وتربية الأفراد تربية عقدية وروحية وعقلية وأخلاقية وبذلك يعرف مدى الفرق بين المادية والروحية في تعاليم النبي محمد ﷺ فكل عمل أتى به الإنسان لوجه الله فهو عمل روحي، لأنّ الأعمال الاجتماعية أو الإدارية أو التجارية التي تصدر من الإنسان لغايات سامية فهي أعمال روحية وعبادات قدسية والأعمال العبادية كالصوم والصلاة والإحسان والتضحية والإيثار التي تصدر من الإنسان؛ لأنّ ثمرات عبادات الخلائق كلّها ترجع إلى أنفسهم إذا كانت خالصة لوجه الله وحده. فالنبي الكريم ربى أصحابه على تزكية، أرواحهم، وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على بلوغ غايتهم من خلال القرآن الكريم وبوسائل أهمها. التدبر في كون ومخلوقاته في كتاب الله تعالى حتّى يشعروا بعظمة الخالق وحكمته، قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ**﴾ إنّه يملك الكون ويدبر أمره وعبر سبحانه عن ملكه وتدبيره بالاستواء على العرش؛ لأنَّ الملك يستولي على مملكته ويديرها ﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**﴾ هذا من تدبيره تعالى لشؤون الكون والليل يتبع النهار ويتعقبه مسرعاً في طلبه ويتغلب على المكان الذي كان فيه فيصير مظلماً بعد إن كان منيراً.

ومنها التأمل في علم الله الشامل وإحاطته الكاملة بكل ما في الكون بل ما في عالم الغيب والشهادة؛ لأنّ ذلك يملأ الرُوح والقلب بعظمة الله ويُطهّرَ النّفس من الشكوك والأمراض قال تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيبِ لا يَعْلَمُها إلا هو**﴾. فالغيب هو ما غاب عنك، وللغيب مقدمات إن أخذ

الإنسان بها فهو يصل إلى معرفة هذا الغيب، وهذا ما نراه في الاكتشافات العلمية التي تولد أسرارها بأخذ العلماء بالأسباب التي وضعها الله في الكون.

عبادة الله عزّ وجلّ وهي من أعظم الوسائل لتربية الرُوح وأجلّها قدراً إذ العبادة غاية التذلُّلِ لله سبحانه ولا يستحقها إلا هو ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

وجوب عبادة الله تعالى وتدل على المنع عن عبادة غير الله تعالى وهذا هو الحق، لأنَّ العبادة عبارة عن الفعل المشتمل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الإنعام، ونهاية الإنعام عبارة عن إعطاء الوجود والحياة، والقدرة والشهوة والعقل وقد ثبت بالدلائل أن المعطي لهذه الأشياء هو الله تعالى لا غيره.

ثانياً: الإعداد الروحي والغيبي عند النبي يوسف عليه السلام

حياة النبي يوسف حافلة بمشاهد تتجلى فيها انفعالات الغيرة والحزن والغضب والخوف والسرور وبمشاهد الابتلاء للنبي يوسف عليه السلام ابتلاء بغيرة الإخوة وابتلاء بالفتنة وابتلاء بالسجن وابتلاء بالملك، فالقوة ومدى عمق الانفعالات التي تحرك الإنسان وشدتها في دفعه للقيام ببعض أنماط السلوك كما يلاحظ دور الإيمان والجانب الروحي عموماً في ضبط الانفعالات ومراقبتها ودور تحكيم العقل في إعادة التوازن للجانب الانفعالي المضطرب وفي ظهور الانفعالات الإيجابية بدلاً من الانفعالات السلبية التي تطغى على سلوك الإنسان فالجوانب الروحية في حياة النبي يوسف عليه السلام كثيرة نذكر منها. تجنيد الجانب الروحي، إن هذا الإمداد الغيبي والإعانة المعنوية لإنقاذ يوسف من السوء والفحشاء من قبل الله لم يكن إعتباطًا، فقد كان عبدًا عارفًا مؤمنًا ورعًا ذا عمل صالح طهر قلبه من الشرك وظلماته فكان جديرا بهذا الإمداد الإلهي، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. هذا الأمر يدل على إنّ مثل هذه الامدادات الغيبية، في لحظات الشدّة والازمة التي تدرك الأنبياء كيوسف، فإنّ كلّ من كان في زمرة عباد الله الصالحين المخلصين فهو جدير به هذه المواهب. ومنها اللجوء إلى الله في الشدة والرخاء للجوء إلى الله والشعور بالحاجة والعجز والضعف أمام قدرة الله إنه مع قوته النفسية والإيمانية دائمًا يستعين بالله وتتألق العبودية الخالصة الله في كل أموره، في السراء والضراء فوقفته الشجاعة أمام النساء المعجبات يعزو الفضل فيها إلى الله، قال تعالى: ﴿والا تَصْرِفْ عَنِي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ﴾. بما تمنحني إياه من قوة الإيمان والإرادة، وبما تبعدني به عن أجواء الإغراء، أَصْبُ إِلَيْهِنَ وأمل إلى تحقيق رغباتهن التي قد تستجيب لها رغبتي (وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ) الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة، لقاء لذة فانية لا تمثل شيئا في عالم السعادة والخلود وإن الموقف النفسي الإيماني الروحي المتمرد على أشد أنواع الإغراء أروع مواقف الرفض للانحراف من أجل أن يستقيم للمؤمن خطه ويتعمق إيمانه، ويستمر في حركته الصاعدة إلى الأعلى إنه الموقف الذي يوازن فيه الإنسان بين حرية جسده في التحرك في خط الشيطان وبين حرية روحه في التحرك في خط الله.

ومنها ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه، قال تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ إنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته، حيث أنه كان آمراً فيستجاب ولم يكن مأموراً للإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق الخزائن واحدها خزانة وهي ما تخزن فيه غلات الأرض واجعلنى مشرفا عليها، لإنقاذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) أي إني شديد الحفظ لما

يخزن فيها، فلا يضيع منه شيء، أو يوضع في غير موضعه، عليم بوجوه تصريفه وحسن الانتفاع به وقد طلب إدارة الأمور المالية، لأنَّ سياسة الملك وتنمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها وقد كان مضطرا إلى تزكية نفسه ذلك حتى يثق به الملك ويركن إليه في تولية هذه المهام.

ومنها، قيم الوفاء والإيمان ومع اعتراف يوسف بأيادي الله عليه يطلب من الله في الوقت نفسه أن يموت مسلما، وأن يلحقه في الآخرة بقافلة الصالحين، قال تعالى: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفِّنِي مُسلما وَالْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾. بعد أن حدث يوسف بنعم الله عليه توجه اليه تعالى شاكراً ما بسط له من الملك وما خصه به من النبوة، متوكلا عليه في جميع شؤونه ومتوسّلاً اليه أنْ يميته على طاعته ومرضاته، وأن يلحقه بصالح من مضى من آبائه ويجعله من صالح في من بقي من أبنائهم.

ثالثاً: الأعداد الروحي والغيبي عند أمير المؤمنين عليه السلام في غزوة خيبر

شكلت حياة أمير المؤمنين عليه السلام النموذج الإسلامي الكامل والسراج المنير، فهو مظهر العدالة والقداسة والإنصاف والرحمة والتدبير والشجاعة كان أمير المؤمنين عليه السلام أعجوبة في اتزانه الشخصي فأصبح أمير المؤمنين عليه السلام أسوة كاملة للجميع، فشبابه المتوثب والمتفجر بالحماس هو نموذج للشباب، عندما قتل أمير المؤمنين عليه السلام مرحباً رجع ومن كان معه، وأغلقوا الباب الحصن عليهم فصار أمير المؤمنين عليه السلام فعالجه حتى فتحه وأكثر الناس من جانب الخندق لم يعبروا معه فأخذ أمير المؤمنين باب الحصن وجعله على الخندق جسراً حتى عبروا وظفروا بالحصن ونالوا الغنائم، فلما انصرفوا أخذ أمير

المؤمنين الباب بيمناه فدحا به ذرعاً من الأرض وكان الباب يغلقه عشرون رجلاً منهم وقيل سبعون، فقال أمير المؤمنين عليه السلام ما قلعته بقوة بشرية ولكن قلعتها بقوة إلهيه ونفس بلقاء ربها مطمئنة رضية.

إنّ النبي صلى الله عليه وآله دفع الراية إلى علي بن أبي طالب عليه السلام في يوم خيبر بعد أن دعا له فجعل علي عليه السلام يسرع المسير وأصحابه يقولون له ارفق حتى انتهى إلى الحصن فاجتذب بابه فألقاه بالأرض، ثم اجتمع عليه منا سبعون رجلاً وكان جهدهم أن أعادوا الباب».

هذا مما خصه الله تعالى به من القوة الروحية وخرق به العادة، وجعله علماً معجزاً حتى قال لا بقوة جسدية ولا حركة غذائية لكني أيدت بقوة ملكوتية.

الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى إهدار الطاقة الروحية

هناك عدة أسباب وعوامل حذر القرآن الكريم منها، لأنّها تؤدي إلى إهدار الطاقة الروحية نذكر أهمها:

١. **التمرد على الله بعباده غيره؛** لأنّ ذلك ويؤدي ذلك إلى فساد الأخلاق وشيوع الفوضى والتحلل من كل القيود التي أوجدتها الشريعة، لذا قال تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**﴾. وأصروا عليه وانطلقوا في هذا الاتجاه من أجل أن يقفوا حاجزا بين الناس وبين الإيمان ليفتنوهم عن الدين ويبعدوهم عن وحيه وهداه، لأن خصوصية أهل المدينة أنهم يواجهون الساحة من خلال نقاط الضعف اليوميّة الموجودة فيها، ويتحركون فيها من خلال الخطوط المتشابكة التي لا تتمكن من الفصل بين لون ولون وموقع مما يؤدي إلى الكثير من المرونة في الحركة واللعب على حركة الواقع في استغلال للعواطف والمواقف.

٢. **الخروج عن تعليمات الله تعالى وعدم الالتزام بأوامره ونواهيه،** فكلُّ

مخالفة لتلك الأوامر والنواهي تعد ذنباً والخروج عن رسم الطاعة والعبودية، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾. الذنب هو كل فعل يُخالف الأوامر والنواهي الإلهية، للذنوب آثار سلبية كثيرة منها قسوة القلب وعدم التوفيق للعبادة، أخذته بذنبه أي بسبب ذنبه وحال هؤلاء الذين كفروا في دأبهم على آل فرعون والذين كفروا أنهم وقود النار تشتعل عليهم أنفسهم ويعذبون وكان العذاب الذي حل بساحتهم هو عين الذنوب التي أذنبوها وكان مكرهم هو الحائق بهم.

٣. **الذنوب والمعاصي**، هي المانع الأكبر؛ لأنّ سعادة الإنسان وتحققه بالكمال والغنى والابتعاد عن الذنوب والمعاصي، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾. إنّ المعاصي تضعف تعظيم الله في القلوب، فالمعصية مهما كانت كبيرة لا توجب الخلود والعذاب الأبدي في النار، والذين يتعدون حدود الله عن تمرد وطغيان وعداء، وإنكار لآيات الله ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فإنّها تجلب غضب الرب عز وجل، وإذا غضب الله على إنسان أظلم في وجهه كل شي، وإن لم يتدارك نفسه فقد خسر دنياه وأخراه.

٤. الغفلة عن عبادة الله أن يتيه الإنسان في دروب الحياة الشائكة ويُسَحْرَ كل طاقاته في العمل لهذه الدنيا الفانية وينسى ما خلق من أجله وهو عبادة ربه سبحانه، فالغفلة لها مفهوم واسع وشامل بحيث تستوعب في طياتها الجهل بشرائط الزمان والمكان وظروف الواقع الذي يعيش فيه الإنسان وتشمل الظروف الماضية والحاضرة والمستقبلية، وكذلك أفعال الشخص وصفاته وسلوكياته والوقائع التي تصيب الإنسان في حركة الحياة، فالغفلة عن هذه الوقائع والحوادث وعدم اتخاذ موقف صحيح منها يمثل خطراً كبيراً يواجه سعادة

الإنسان وشخصيته هذا الخطر الذي يمكن أن يحيط بالإنسان ويبتلعه ويهوي به في مطاوي النسيان والعدم، الخطر الذي بإمكانه أن يهدر أتعاب الإنسان بسنوات لذيذة من عمره في لحظة واحدة فيمكن أن يعيش الإنسان الغفلة في لحظة واحدة حتّى تتحول ثروته المعنوية وملكاته الإنسانية إلى رماد وتراب.

الطاقة الجسدية في القرآن الكريم

ويتم بيان ذلك عبر المطالب الاتية.

الجسد في اللغة والاصطلاح

الجسد لغة: «الجسد يطلق على البدن».

واصطلاحاً: هو كالجسم لكنه أخص لأنّ الجسد لا يقال لغير الإنسان، ولأنّه يقال لما له لون والجسم لما لا يبين له لون كالماء والهواء وباعتبار اللون قيل للزعفران جساد، أو هو الجسم الذي لا روح فيه فهو خاص بجسم الحيوان إذا كان بلا روح.

مما يبدو أن الطاقة الجسدية: هي تلك القوة المحركة والفاعلة في الجسم، المسؤولة عن القيام بالحركة التي تعينُ الإنسان على تحقيق ما يريد من أشكال الحركة المختلفة.

الفرق بين الجسد والجسم ـــ الفرق بين الجسد والجسم عند اللغويين

يرى أبو هلال العسكري (ت: ٣٩٥هـ): الجسم اسم عام يقع على الجرم والشخص، والجسد هو جسم الإنسان كله. بينما ذهب أبو البقاء (ت: ١٠٩٤هـ): الجسم: «فهو أعم لأنه يطلق على البدن والأعضاء، والجسد: فهو أخص جسم ذُو لون كالإنسان وَالْمَلك وَالْجن.

ويفهم من ذلك، فالجسم يطلق على البدن الذي فيه حياة وروح وحركة، والجسد يطلق على التمثال الجامد لا يأْكلُ ولا يَشْربُ كَعِجْل بني إسرائيل.

الفرق بين الجسد والجسم عند المفسرين

فقد ذكر الطوسي، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حَلِيهِمْ عِجْلًا جَسَداً لهُ خوار﴾، إنّ الجسد يطلق على جسم الحيوان، مثل البدن وهو روح وجسد، والجسم يطلق على جسد الحيوان وغيره من الجمادات. وأما ابن عاشور فيرى إنّ الجسد: هو الجسم الذي لا روح فيه، فهو خاص بجسم الحيوان إذا كان بلا روح، والجسم يطلق على البدن الذي فيه حياة. ويفهم من ذلك، إن الجسد خالٍ من الروح، والجسم ما كان فيه روح.

توظيف الطاقة الجسدية عند الأنبياء والأوصياء

أولاً: توظيف الطاقة الجسدية عند النبي ﷺ

الصبر وتحمل المشاق في الدعوة إلى الله، فإنّ منهج الرسل جميعهم وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل ولقد صبر النبي على أذى قومه، بشتى الطرق ووسائل الصد، لذا قال تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين﴾. يأمر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ لا تخف من ضوضاء المشركين والمجرمين ولا تضعف أو تتردد أو تسكت، بل أدعم إلى رسالتك بكل ما تمتلك من قوة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تعتن بهم، فاصدع: هو شق الأجسام المحكمة بما يكشف عما في داخلها والإعراض عن المشركين الإهمال، وترك مجاهدتهم وحربهم، لأنَّ المسلمين في ذلك الوقت لم تصل قدرتهم بعد لمستوى المواجهة مع الأعداء وحربهم ثم يطمئن الله تعالى نبيه ﷺ وتقوية لقلبه وإعطاءه المدد الإلهي.

إنّ قوة النبي ﷺ في الحروب، اقترن حفر الخندق بصعوبات كثيرة فقد كان الجو بارداً والريح شديدة وقد شاركهم النبي ﷺ في الحفر وحمل

التراب ونقله، ترغيباً لهم في الأجر وتنشيطاً لهم، فعرضت كدية شديدة قطعة غليظة صلبة لا تعمل فيها الفأس، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا هذه كدية عرضت في الخندق فقال أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيبا، وإما في العبادة والوقوف طويلاً بين يدي الله تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾. فإنَّ استغلال الطاقة الجسدية لتحقيق نجاحات كبيرة في مختلف المجالات، ولقد استخدم النبي هذه الطاقة لعبادة ربه من أجل الوصول إلى رضوانه، لأنّ العبادة لله التي تجعل كل الحياة له في كل رقّة جفن ونبضة قلب ونفحة فكر ووثبة شعور، وفي كل تمتمة شفة وفي كل نفحة روح فلا يغيب الله عن وجدان المؤمن، ولا يبتعد عن حركته فهو الحاضر أبداً في الكيان، حضوره في الكون كله وفي الحياة كلها وتلك هي العبادة التي تنطلق فيها إنسانية الإنسان، لتعيش في رحاب الله وترتفع إلى الملأ الأعلى حيث لاوجود إلا لله، حيث السعادة المطلقة في ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فالداعية الذي يعيش في خط الرسالة، وللإنسان الذي يعيش في أجواء النبوة والدعوة، أن يرتفع في آفاق العبادة في حياته في نداء حميم واعد بروحانية تعمر الفكر والقلب والشعور ومن خلال الحياة التي كانت تسبح لله، وتسجد له وتعبده.

ثانياً: توظيف الطاقة الجسدية عند النبي موسى عليه السلام

الفتوة وقوة الشباب عند النبي الكريم الذي أعطاه الله الحكمة والعلم، قال تعالى: ﴿**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي...**﴾ والبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين. ومنها القوة

والأمانة، وما يحتاج القائدُ من القوّة بشكل رئيسي، والإرادة والفقه والعقل وفيها التمييز إلى حدٍّ كبير، بل هو يحتاج إلى قوة البدن وقوة الأسباب والقوة المادية وقوة الأتباع، قال تعالى: ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِي الْأَمِينُ**﴾. ولفت ذلك نظر موسى عليه السلام، وعرف أنهما ضعيفتان عن الوصول إلى ما تريدان في هذا الزحام الشديد، وكان من أخلاقه أن ينتصر للإنسان الضعيف ويعينه ويأخذ له بحقه، فالتفت إليهما وقال ما خَطْبُكُما أي ما شأنكما قالتا ﴿**لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ**﴾ ويخرجوا أغنامهم، فهذه أن يتقدم الرجال النساء ﴿**وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**﴾ لا يستطيع أن يأتي إلى الماء ليسقي الأغنام فَسَقى لَهُمَا ثُمّ تَوَلّى إِلَى الظّلِ ليستريح فيه من التعب، وليتخفف فيه من شدّة الحر وما ينبغي للإنسان المؤمن أن يختزنه في داخل نفسه من الشعور بالحاجة إلى الله في ما أعطاه وفي ما يمكن أن يعطيه في ابتهال خاشع يحرّك الإيمان في الذات ويطوّر العلاقة بالله ﴿**قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ**﴾ فنحن بحاجة إلى من يلي أمورنا ويدبر أوضاعنا وليس للمرأة أن تلي ذلك في مجتمعنا مهما كانت قوتها؛ لأنّ ذلك يخلق لها مشاكل كثيرة في علاقاتها العامة والخاصة وقد عرف موسى عليه السلام بالقوة والأمانة اللتين تؤهلانه أن يكون في مستوى المسؤولية في ما نحتاج إليه ويقوم بالمهمة الصعبة في إدارة شؤوننا وأمين يحفظ أمانة المال والكلمة والسرّ والعرض ﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ الذي يتمناه كل أصحاب المهمات والأعمال والدفاع عن الرعيّة، كان موسى عليه السلام أنموذجاً رائعًا لقائدٍ صَبَر في الدفاع عن رعيته، ولقد أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ**

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾. القائد الإيجابي لا يكتفي بأن يكون رأس الرمح في قيادة قومه، فيكون إمامهم وأمامهم في كل المواقف بل ويُدافع عنهم في المواقف عامة، وفي موقف الظُّلم خاصة ويضحي من أجل ذلك بما هو عزيز عنده وفي ذات دخل بعض شوارعها دون أن يشعر أحد به فرأى رجلين يتشاجران ويقتتلان، أحدهما قبطي من أتباع فرعون والآخر اسرائيلي من جماعة موسى وكان الأقباط بوجه العموم يضطهدون الاسرائيليين، ويحسبونهم خدماً لهم وعبيداً فاستنجد الاسرائيلي بموسى عليه السلام فوكز موسى عليه السلام القبطي بيده أو بعصاه بقصد التأديب والردع عن البغي لا بقصد القتل فوقع جثة هامدة.

ثالثاً: توظيف الطاقة الجسدية عند النبي نوح في بناء السفينة

قال تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم﴾، (بأعيننا) إشارة إلى أن جميع ما كنت تعمله وتسعى بجد من أجله في هذا المجال هو في مرآى ومسمع من الله، فواصل عملك مطمئن البال وهذا الإحساس بأنّ الله حاضر وناظر ومراقب ومحافظ يعطي الإنسان قوة وطاقة كما أنّه يحسّ بتحمل المسؤولية أكثر (وحينا) أن صنع السفينة كان بتعليم الله؛ لأنّ نوحاً عليه السلام لم يكن بذاته ليعرف مدى الطوفان الذي سيحدث في المستقبل ليصنع السفينة بما يتناسب معه، وإنّما هو وحي الله الذي يعينه.

رابعاً: توظيف الطاقة الجسدية عند النبي داود عليه السلام العبودية لله تعالى

كان عليه السلام من العابدين الأوابين ورجوعه إلى الله تعالى مع أنه عليه السلام كان ملكاً متمكناً في سلطانه ولقد وصفه تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. الأيد القوة وكان عليه السلام ذا قوة

في تسبيحه تعالى، يسبّح وتسبّح معه الجبال والطير وذا قوة في ملكه و تشمل قوة بدنه وقوته على الطاعة، إذ لا يقدر على صيامه وصلاته إلا قوي البدن.

ومنها القيادة الناجحة، كما ورد في قوله تعالى: ﴿**فَهَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾. إن جالوت جبار الفلسطينيين طلب البراز فلم أحد من بني اسرائيل على مبارزته حتى إن طالوت جعل لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه في ملكه، إنّ داود عليه السلام أظهر شجاعةً مُنقطعة النظير في القتال ثم برز له داود وكان غلاماً يرعى الغنم و لم يقبل أن يلبس درعاً ولا أن يحمل سلاحاً بل حمل مقلاعه وحجارته، فسخر منه جالوت واحتمى عليه، فرماه داود بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه فصرعه فدنا منه فاحتز رأسه وجاء به فألقاه إلى طالوت. أنعم الله على داود بنعم عديدة تميزه وتقويه في ملكه وحكمه، حيث أعطاه القوة وصناعة الدروع والأمر الإلهي، كما أشار تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**﴾. ومن قوة داود صناعة الدروع، بأنّ الله تعالى علّم داود ما استطاع بواسطته تليين الحديد حتى يمكنه من صنع أسلاك رقيقة وقوية لنسج الدروع منها، أو أنّه كان قبل داود يستفاد من صفائح الحديد لصناعة الدروع والإفادة منها في الحروب، مما كان يسبب حرجاً وإزعاجاً للمحاربين نتيجة ثقل الحديد من جهة، وعدم قابلية تلك الدروع للانحناء أو الالتواء حين ارتدائها ولم يكن أحد قد استطاع حتى ذلك اليوم نسج الدروع من أسلاك الحديد الرفيعة المحكمة، ليكون لباساً يمكن ارتداؤه بسهولة والإفادة من قابليته على التلوّي والانحناء مع حركة البدن برقة وانسياب.

خامساً: توظيف الطاقة الجسدية عند ذي القرنين

تمكّن ذو القرنين من بناء السدود، كما ورد في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾. السدين، وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة، يخرج منهما يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيها فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، والردم بين الجبلين الكبيرين من خلال خطة هندسية أوضحها القرآن الكريم، الأمن هو أوّل وأهم شرط من شروط الحياة الاجتماعية السالمة، لهذا السبب تحمل ذو القرنين أصعب الأعمال وأشقها لتأمين أمن القوم من أعدائهم، وقد استفاد من أقوى السدود وأصبح مضرب الأمثال في التأريخ ورمزاً للاستحكام والدوام والبقاء، حيث يقال لبناء القوي، والاشتراك في الجهد المبذول لحل مشكلتهم لذا؛ فإنّ ذو القرنين أعطى أمرا إلى الفئة التي اشتكت إليه أمر يأجوج ومأجوج بأن يجلبوا قطع الحديد ثمّ أعطاهم الأمر بإشعال النار في أطراف السد لدمج القطع فيما بينها. كما استخدام طاقة التي يسّرها الله له في التعمير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق، يمثّل النموذج الطيب للحاكم الصالح الذي مكنه الله في الأرض وييسر له الأسباب النجاح، فيحتاج الأرض شرفاً وغرباً ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به ويساعد المتخلفين ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعمير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله سبحانه.

سادساً: توظيف الطاقة الجسدية عند أمير المؤمنين عليه السلام

هناك مواقف عدة للأمير المؤمنين عليه السلام في الإسلام منها، مبيتُ أمير المؤمنين عليه السلام على في فراش النبي صلى الله عليه وآله وما فعله عليّ بن أبي طالب عليه السلام في الهجرة النبوية الشريفة قام رسول الله صلى الله عليه وآله ينتظر الوحي بالإذن له في الهجرة إلى المدينة حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت بالنبي فدعا علي بن أبي طالب عليه السلام فأمره أن يبيت على فراشه ويستجي ببرد له أخضر ففعل ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وآله على القوم وهم على بابه، وكان آخر من قدم المدينة من الناس ولم يفتن في دينه علي بن أبي طالب عليه السلام وذلك، إن رسول الله صلى الله عليه وآله أخّره بمكّة وأحلّه ثلاثا، وأمره أنْ يؤدّي إلى كل ذي حق حقه ففعل، ثمَّ لحق برسول الله صلى الله عليه وآله في هجرة النبي صلى الله عليه وآله، وإنه خلف علياً عليه السلام يخرج إليه بأهله وأمره أنْ يؤدّي عنه أمانته ووصايا من كان يوصي إليه وما كان يؤتمن عليه من مال، فأدّى علي عليه السلام أمانته كلها، وأمره أنْ يضطجع على فراشه ليلة خرج، وقال: إنَّ قريشاً لا يفقدوني ما رأوك، فاضطجع على فراشه، وكانت قريش تنظر إلى فراش النبي صلى الله عليه وآله فيرون عليه علياً عليه السلام فيظنونه النبي صلى الله عليه وآله حتى إذا أصبحوا رأوا عليه عليا صلى الله عليه وآله فقالوا: لو خرج محمد صلى الله عليه وآله لخرج بعلي عليه السلام معه. لذا قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ...**﴾، هناك رجلاً آخر باع نفسه لله سبحانه لا يريد إلّا ما أراده الله تعالى لا هوى له في نفسه ولا اعتزاز له إلا بربه ولا ابتغاء له إلا لمرضاة الله تعالى.

الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى إهدار الطاقة الجسدية

هناك عدة أسباب وعوامل بينها القرآن الكريم الشريعة المقدسة، تؤدي إلى إهدار الطاقة الجسدية نذكر أهمها:

أولاً: التكبر: فقد وصف القرآن الكريم الكبر في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا الا ابْليس أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾ الكبر حالة نفسية تجعل الإنسان يرتفع ويتعالى على الآخرين، لأنّ كمال الخضوع له سبحانه وتعالى، بما يدل على الخضوع الكامل بالانحناء له وإذا كان يوهم أنه كسجود الصلاة، فليس عبادة لآدم ولكنه إطاعة الله تعالى ومهما تكن حال السجود، والعلم الجازم بها عند الله تعالى، فإنّ الأمر به دليل على تكريم الله تعالى لآدم أبى البشر، وأن له اختصاصاً بالتكريم على الملائكة الأطهار وإبليس الذي كان من الجن خرج عن طاعة الله ففسق عن أمر الله مستكبراً بغير مسوغ للكبر، لأنه زعم أن أصل خلقه خير من أصل خلق آدم، فهو خلق من نار، وادم خلق من طين، والله تعالى خالق المادتين فهو يفاخر ويعاند بأمر خلقه الله تعالى الذي أمره بالسجود، فكان في أشد أحوال الغفلة، أشد من خلق الله تغفيلاً وكذلك كان أتباعه من بعده فهم في غفلة عن الحق دائماً ولقد وصفه الله تعالى بأنه كفر وهو قد طغى في كفره، وتعدى إلى معاندة الله تعالى في أمره ونهيه.

ثانياً: الغرور: هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى و يميل إليه الطبع. فالقرآن الكريم يصف لنا حالة الغرور والعجب، في قوله تعالى: ﴿**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ**﴾. غرور المرء بشخصيته يتأتى من إعجابه بنفسه وشكله أو بصورته وهيئته أوعلمه وعمله ودينه أو قوته وجاهه، أو سلطانه وجماله، وهذا كله من الشيطان الذي يعدهم ويمنيهم والذي حمل ابليس على ذلك أني خير منه إذ أنك خلقتني من النار وخلقته من الطين، والنار خير من الطين وأشرف والشريف لا يعظم من دونه ولو أمره بذلك ربه.

ثالثاً: الرياء: «هو طلب المنزلة

فـي قلـوب النـاس بـإيرائهم خصـال الخير. إنّ خطورة الرياء على الأعمال الصـالحة خطـر عظـيم لأنـه يـذهب بركتهـا ويُبطلهـا، لـذا وصـفه تعـالى: ﴿**كَالَّذِي يُنفِقُ مَا لَهُ رِيَّاءَ النَّاسِ وَلَا يؤمن بالله واليوم الآخرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُـرَابٌ فَأَصَـابَهُ وَابِـلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَـى شَـيْءٍ مِمَّـا كَسَـبُوا والله لا يَهْـدِي القـوم الكـافرين**﴾. الريـاء يمحـق العمـل الصالح محقا في وقت لا يملك صاحبه قـوة ولاعونًـا، ولا يسـتطيع لـذلك ردًّا، لأنّ المرائي له بـاطن خشـن ومجـدب فيحاول تغطيته بمظهر حسـن وجميـل وهـو حـب الخيـر والإحسـان للنـاس فأعماله غير متجذرة في وجوده وروحـه ولـيس لهـا أسـاس عـاطفيّ ثابـت فمـا أسرع ما ينكشف هذا الحجـاب بسـبب الأحداث والوقائع في الحياة.

رابعـاً: معونـة الظـالمين والركـون اليهم من الذنوب التي أوعد الله عليهـا فـي القـرآن الكـريم بالنـار الركـون إلـى الظـالمين، كمـا ورد فـي قولـه تعـالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُـوا إِلَـى الَّـذِينَ ظَلَمُـوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾.

من الأمور الثابتة في دين الإسـلام بشـكل قطعـي تحـريم الركـون إلـى الظالمين والخضوع والإذلال للمؤمنين والمستضـعفين التـي يمارسـونها، ومشـاركتهم فـي التحـرك السياسـي والاجتمـاعي والاقتصـادي الـذي يقومون به؛ لأنّ ذلك يؤدي إلى تعزيـز قواعد الظلـم فـي الأمـة علـى مسـتوى التشريع والتنفيذ، فإن قوة الظلـم تكبـر وتنمو بانضمام أفراد مـن الأمـة للظـالم الذي يسـتفيد مـن ذلـك لـدعم حكمـه وظلمـه، ولـذلك فـلا بـد مـن دراسـة الخطـوات الإيجابيـة التـي يتحـرك بهـا الناس مع الحكم الظـالم تحـت ضـغط الظـروف الذاتيـة أو الخارجيـة الطارئـة وذلك بالتدقيق في تأثير تلك الخطـوات على واقع الظلم ومدى تقويتهـا للحكـم والحـاكم، ولهـذا العمـل السـيء الـذي يفسد حياة الـبلاد والعبـاد فـي الحاضـر

والمستقبل، بإفساح المجال للظلم أن يقوى وينتشر وللظالم أن يبسط سلطته على المستضعفين.

خامساً: تناول المسكرات: قال تعالى: ﴿**يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَبُوهُ**﴾ حرّمت الشريعة الإسلامية الخمر لما له من أضرار وتأثير سلبي على الفرد والمجتمع، فهي مفتاح كل شر، ففي البشر عقل وارادة، تقابلها الشهوات والجهل، وعلى الإنسان، أن يحكم عقله على شهواته بقدرة الإرادة، وقد جاءت رسالات السماء بهدف تنمية قدرة الإرادة في البشر وتنمية قدرة العقل حتى يتمكن من ضبط شهواته وتوجيه حياته حسب هدى عقله، وقد حرمت رسالات السماء كلما يضر بالعقل وبالإرادة ضرراً بالغاً، لأنه يتسبب بالطبع في سيطرة الشهوات على حياة الإنسان وفي طليعة ما حرمته الشرائع السماوية الخمر والميسر، لأنهما يهبطان بإرادة الإنسان وعقله إلى أدنى مستوى، وهما رجس وحرام، لأنهما من عمل الشيطان الذي يثير الشهوات وينقص العقل ويضعف الإرادة.

د. فاطمة الشنّاوي
باحثة وتربوية/ العراق

مُستويَات التـوازن القرآني في العبـادة والعَقـيدة

تمهيد: الترابط بين مستويات التوازن

لا تنفصل مستويات التوازن الواحدة عن الأخرى فهي تلتقي في أكثر من آية وموقف في الحياة، وتترابط عبر العقيدة والعبادات، والمسؤولية المتبادلة في تطبيق أحكام الله تعالى، وعبر الحقوق المشتركة؛ في أن يحب المسلم الناس كافة ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه، وألّا يؤذي أحداً، ويخالط جميع الناس بخلق حسن والمعاملة بحسن طريقته، والوفاء بالوعد، والإحسان بالقدرة المستطاعة لديه وغيرها كثير، وفي المجال الاقتصادي للملكية العامة والتكافل الاجتماعي، والخطاب للمسلمين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذه العبارة منحت التصور المطلوب للجميع عبر لفظ واحد، وكونت مستويات التوازن عند نفس نقطة الشروع في الانطلاق والتطبيق والتقاء مكوناتها مع بعضها، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾، قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾، قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، إلى غيرها من الآيات، وهذه الصفات عامة يصفها الإسلام للأمة المسلمة فهي الأمة المتوازنة والمنفقة والمسلمة الله تعالى والشديدة على الكفار والرحيمة فيما بينهم والصابرة، المرابطة والقائمة بالقسط، والمعادية للكفار، والمجتنبة للخمر والميسر والمقيمة لشعائر الله والراكعة والساجدة والعابدة ربها الذاكرة له، وتستمر أوصاف الأمة لتنهي به إلى أن تكون أمة خير البرية.

وعلى أساس من هذا الترابط يتجلى قانون التوازن ليكون الحد الذي ارتضاه الله تعالى، ونكون أدركناه بعقولنا ووجداننا لوضوحه وتمييز الطيبات من الخبائث واستحسنه العقل، ولكن المنظار القرآني يعطينا الصورة الكاملة عن التوازن وهو الحد الطبيعي الذي لا يعني الخروج عنه خروجاً عن الذات ونسيانها، وهنا يكون التعبير القرآني حاضراً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وهذا نوع من الطغيان عبر عنه السيد الصدر بمشكلة الضياع واللا انتماء، ومشكلة الغلو في الانتماء بتحويل الحقائق النسبية المحدودة إلى مطلقات والتعبير الاسلامي عنهما

هو الإلحاد والشرك، وهما يلتقيان في نقطة واحدة أساسية هي إعاقة حركة الانسان في تطوره وتطويقها عن الاستمرار المبدع الصالح.

من هنا فإنّ المفاهيم التي ينفر منها القرآن الكريم تخرج عن حد التوازن بهذا المعنى للطغيان في الإلحاد والشرك والفاحشة والتهور والإسراف والبخل والجبن واللامسؤولية هي من أنواع تجاوز التوازن وعدم الالتزام بالحد الشرعي. والقرآن العظيم بحروفه وآياته وتشريعاته وأحكامه بكافة مستوياته متوازناً، وبناءً عليه شكل التوازن قانوناً عاماً في الإسلام وخصيصة تميز هذه الامة من غيرها.

التوازن العقدي

جعل الله القرآن الكريم ميزانا لكل العلوم والعقائد والمعارف، فإذا أردنا أن نعرف القانون المتعلق بالعلوم الإنسانية كسلامة الأخلاق وعدمها أو إنّ المجتمع حي أو لا، كل ذلك نزنه بالقرآن؛ لأن القرآن ميزان ووسيلة لتشخيص مثل هذه الأمور ووزنها، ولا يمكن تشخيص الميزان بشيء آخر، بل إنّ نفس عامل التوزين بما أنّه. صحيح ذاتاً يستلزم صحة علاقة الميزان، فأي عقيدة يراد أن تعرف بأنها العقيدة الحقة أم لا؟ فإننا نزنها بالقرآن عن طريق عملية الاعتقاد بتوحيد الله ونفي شريك للخالق ونفي التجسيم والتشبيه وغيرها من الأمور التي تجعل صفات الخالق كصفات البشر، ولكي يقف البحث على ماهية التوازن العقدي فإنّه يتم في المطلبين الآتيين:

التوازن العقدي في توحيد الله:

وللوقوف على التوازن العقدي لابد من بيان المفردات الآتية:

أولا: العقيدة في اللغة والاصطلاح:

في اللغة: مشتقة من عقد، واعْتَقَدْتُ، وعقدتُ: وهي ما عقد عليه

القلب والضمير، حتى قيل العقيدة ما يدين الانسان به وله عقيدة حسنة سالمة من الشك.

وفي الاصطلاح: «هي عبارة عن مجموعة من أفكار ومعارف وقضايا تثبت في الذهن ثبوتا حقيقيا جازما».

ثانياً: العقيدة في معرفة الله: ـــ

منحنا الله في قرآنه الكريم قوة التفكير، ووهب لنا العقل، وأمرنا بالتفكر في خلقه والنظر في آثار صنعته، والتدبر في حكمة تدبيره واتقانها في الخلق والكون وفي آياته الأنفسية والآفاقية؛ قال تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾**.

وإنّ منظومة العقيدة لا تتوازن ولا تنضبط إلا بالدعوة التي أتى بها الأنبياء وبداية جميع الأديان الإلهية، وهي معرفة الله، فأول حركة فكرية للبشر يجب أن تكون حول معرفة الله، وهذه المعرفة تكون بأن الله تعالى واحد أحد ليس كمثله شيء، هو الأول والآخر، قديم لم يزل ولا يزال عليم حكيم، وعادل حي قادر، غني سميع بصير، وغيرها كثير من الصفات لا تثبت في منظومة العقيدة ولا تتكامل إلا بالتوحيد الله سبحانه وتعالى من جميع الجهات، فكما يجب أن نوحده في الذات ونعتقد بأنه واحد في ذاته ووجوب وجوده، كذلك في توحيد صفاته وبإنّ صفاته عين ذاته، والعقيدة في معرفة الله تكون عن طريق الآتي:

١ـ الفطرة: _____

إنّ معرفة الله من مكنونات الفطرة الإنسانية، والفطرة من «فطر الله الخلق، وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال، كما في قوله تعالى: **﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾**: أي خلقهم، وهكذا التوحيد في العبادة، ففي قوله تعالى: **﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾**،

ففي الآية إرشاد وخطاب ما أودع في فطرة الإنسان من الدعاء الله سبحانه وتعالى عند وقوعه في الشدائد ولجلاء الكروب وكشف الهموم، والتحذير الشديد للمعرضين عن طاعته، والآية تؤكد على ألوهيته ـ عز وجل ـ عندما ذكر الدلائل من العلم التام والقدرة الكاملة والإنجاء من الشدائد، وقوله: ﴿تَدْعُونَهُ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، «بيان لما هو مكنون في فطرة البشر من الإيمان الفطري والحاجة إليه ومخفيّها، والتضرع المبالغة في إظهار الضراعة، وهي الذل والخضوع...

وإظهار لمكنون ضمائرهم على مقولات السنتهم، وقال رسول الله: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه).

٢ ـ التوحيد:

إنّ القرآن الكريم لا يطرح التوحيد بصفته مركباً من بعدين هما النفي والإثبات؛ بأنْ ينفي صفة الألوهية عن الآلهة المزيفة، ويثبت الألوهية بعد ذلك.

بل يعطي صفة التوازن في هذا التوحيد، ففي قوله سبحانه: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾، وإنّ علاقة الاستغفار من الذنب بتوحيد الله علاقة واقعية تفرضها الحقيقة الربانية من جهة والعبودية من جهة ثانية؛ إذ إنّ العقيدة بأحدية الله توجب العقيدة بعبودية الفرد ويبيّن القرآن الكريم علاقة العبد بالعبادة فهو يعدّ العبادة هدف الخلق ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**، **ومع أنّ بعض الآيات تؤكد أن العبادة هي الهدف من خلق الإنسان إلا أنه هدف متوسط وليس نهائياً وأخيراً، فالهدف الأعلى من العبادة والتي هي وسيلة لتحقيقه هو بلوغ اليقين** ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾، ومهما يكن من أمر، فإنّ العبادة هدف المخلوق وليس الخالق، فالإنسان بواسطة العبادة يتبوأ المقام الشامخ

لليقين، و (حَتّى) في الآية لبيان منفعة وبركة عبادة وليس لبيان حدها وتوقفها بالوصول إلى اليقين، وخط التوحيد لابد فيه من الثبات والاستمرار؛ لأنّه أفضل وسيلة للنجاة والتدبر في أمر التوحيد أكثر والارتقاء إلى المقامات الأسمى، فكلما تدبّر من العلم أكثر سيصل إلى مراتب أرقى.

من هنا فقد أمر الله سبحانه على لسان نبيه ـ انطلاقا من فطرة التوحيد ـ بأن يدعو الله أو الرحمن، وأنّه أيا ما يدعو فله الأسماء الحسنى، وهو ما يمكن أن يكشف عن التوازن المجعول بين جميع أسماء الله الحسنى، كما قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا**﴾، إذ أنّ التوازن العقدي أن لا يدعو مع الله أحدا؛ لأنّ المساجد لله سبحانه وليس لأحد غيره؛ لذا فمن الإنصاف والعدل المنطلقين من الفطرة البشرية المجبولة عليهما والمنعقدة على التوازن القاضي بأن يوجه الفرد المسلم الدعاء الله سبحانه وحده فحسب؛ تحقيقا لمبدأ التوازن المتناسب مع حقيقة أن المساجد الله تعالى فقط، وللتوحيد أثر توازني في الاتحاد والارتباط بين الناس؛ لأنه إذا كان خالق الموجودات واحداً، وهو الرازق بفيض عطاياه رزقاً محسوساً أو فيضاً إلهياً، فيكون الهدف والمبدأ واحدا، كما قال تعالى: ﴿**فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا**﴾، ولا بد من أن يكون الرجوع إليه وحده؛ لأنّ المنجى والمقصد والملجأ عنده دون غيره.

وإنّ للتوحيد أربع مراحل هي كالآتي:

أ ـ نفي الشريك في الإلهية، وهذا ما تم بيانه.

ب ـ نفي الشريك في صانعية العالم وعدم الثنوية وأضرابهم، فعن الفضل بن شاذان، وكان حاضرا عندما سأل رجل الإمام علي بن موسى الرضا عن الثنوية، قال الرجل: (إني أقول إن صانع العالم اثنان، فما الدليل على أنه واحد؟ فقال: قولك إنه اثنان، دليل

على أنه واحد؛ لأنك لم تدع الثاني إلا بعد إثباتك الواحد، فالواحد مجمع عليه، وأكثر من واحد مُختلف فيه). ت تنزيه الخالق عما لا يليق بذاته وصفاته من النقص والعجز والجهل والاحتياج والتركيب.

ث ـ تنزيهه عما يوجب النقص في أفعاله من الظلم وعدم اللطف، أي ما يتعلق به تعالى ذاتا وفعلا ونفيا وإثباتا.

ويتضح التوازن بين المعرفة الفطرية التي تميل وتتحرك نحو توحيد الله وعبادته سبحانه وتعالى، وبين الاستمرارية والثبات في خطى هذا التوحيد، وهناك علاقة جامعة بين الحاجة والغنى، فعندما يكون في الوجود عطش فلابد من وجود الماء، وإذا كان العالم محتاجاً فلابد من وجود الغني؛ ففي قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، تتحقق رغبة الاتصال به سبحانه وتعالى فهي توجب للخالق المحبة والخوف والرجاء في تكامل متوازن، لتعلم أنّ الملجأ والمأوى الوحيد في العالم هو الله، فالتجئ إليه ولا تطلب إلا منه، ولا تخف من كثرة المشاكل والأعداء؛ لتصل إلى الاستقرار النفسي والطمأنينة، بعد أن تربى على قيم التوحيد والخشية والمراقبة والسعي بالنفس للسمو وبناء الشخصية الإسلامية. فإذا حصلت حالة الاعتقاد السليم عند الإنسان بتوحيد الله فإنّها لا تخرج عن حد التوازن والاعتدال والأمر بين أمرين في عقيدة التنزيه: فلا تعطيل في ذات الله، ولا تشبيه في صفاته لمخلوقاته من غير زيادة على ذاته، وعقيدة الاختيار وهو الاعتقاد بتأثير الله تعالى في أفعال العباد من حيث لا جبر ولا تفويض، بل هو الأقدار من الله والاختيار من العبد.

ثالثا: التوازن بين الإرادة الإلهية المطلقة وإرادة الإنسان المحدودة:

فالإرادة من صفات الله التكوينية

والتشريعية، وهي إرادتان تكوينية: يفيض منها وجود جميع الكائنات والموجودات، وتشريعية تفيض منها جميع الأحكام والقوانين الشرعية من الأوامر والنواهي الإلهية، والإرادة الإلهية مطلقة في مختلف المجالات، لن تحد بحد، ولن يقف في قبالها شيء، لكنها بلطفها منحت الإنسان حريته وإرادته في ما يعمل، وأعطته القدرة على أن يريد وأن يحقق ما يريد، وهي تمده في كل آن بهذه القدرة، ليتكامل وليصعد سلم الرقي المعنوي بنفسه، ويفصح القرآن عن هذا المعنى بوضوح في سورة الليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾، وهكذا تبدو الإرادة الإلهية بمثابة حلقة التوازن تربط بين الحرية الإنسانية والهيمنة الإلهية.

ولا يخفى ما في الآية من توازن جليّ بين فئتين، فهناك من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فكان عاقبته أن يسره الله لليسرى، في مقابل من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فكانت عاقبته أن يسرّه الله للعسرى، فاليسر ضمن معايير التوازن بين الفريقين، غير أنّه كلّ بحسب سعيه وعمله؛ لأنّه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، هذا بلحاظ ثمة حرية مطلقة للإرادة الإلهية؛ لأنّ الشخص على الرغم من استقلاله الذاتي وحريته وقدرته على المبادرة ومواهبه يبقى تحت تصرف إرادة الله، وهي إرادة لامتناهية، ومطلقة، وحكيمة ومدبرة في حين أنّ الإرادة الإنسانية على المستوى الدنيوي، متناهية، ونسبية، ومحدودة.

رابعاً: التوازن في تعدد النعم الإلهية مع المغفرة والرحمة: ___

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ويلاحظ التوازن

الجلي بين الذي يستبطن حقيقة بداية العد والعجز التام عن الوصول إلى نهايته، في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ﴾، وقوله: ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾؛ ليؤكد حقيقة اتساع النعم الإلهية بنحو لا يمكن الإحاطة بها مطلقا لصدورها من محض الكرم وهو الله سبحانه وتعالى، ولأنه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة في أداء الشكر للنعم الإلهية.

إنّ كثرة النعم الإلهية خارجة عن قدرة الإحصاء، وإن خروج النعمة عن حد الإحصاء جاء أي كثرة النعم متوازناً مع بركات اتصافه بصفتي المغفرة والرحمة؛ فالمغفرة هي أن يستر الله ما في الأشياء من نقص وقصور، وبرحمته يتم هذا النقص ويرفع الحاجة فيظهر فيها الخير والكمال ويحليها بالجمال، ويكتمل التوازن بذكر صفة ثالثة من أركان الربوبية وهو العلم، كما في الآية التي بعدها ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، فَإنّ الإله لو كان غير متصف بالعلم لاستوت العبادة واللاعبادة بالنسبة إليه فكانت عبادته لغوا، لا أثر لها.

خامسا: التوازن في قدرة الله مع اللطف والإحاطة:

كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، كلمة لطيف مشتقة من اللطف بمعنى العمل الجميل الذي يمتاز برقته لهذا يطلق على الرحمة الإلهية الخاصة لفظ (اللطف) وكلمة (الخبير) تعني المطّلع على الأمور الدقيقة وبلطفه تنمو البذرة تحت الأرض ثم ترتفع خلافاً لقانون جاذبية الأرض، وترى الشمس وتشم نسيم الهواء حتى تصبح نباتا مثمراً، فالآية تتحدث عن التوازن في أصل القدرة الإلهية غير المحدودة في إنزال الماء، فعملية الإنزال متوازنة مع حاجة الكائنات بجميع أشكالها للماء، وحياة الأرض بخضرة النبات فهو سبحانه

لطف بخلقه بحدث الإنزال الذي أنزله بقدرته وخبرته التي لا يضاهيها سواه، وبعبارة أخرى إنّ إنزال الماء من السماء جار بنحو من التوازن الجامع بين كمية الماء النازلة من السماء، وبين حاجة الأرض إليها، والتي تنعكس في صور الاخضرار والطبيعة الزاهية وما تتضمنه من أنواع الفواكه والخضر والحبوب.

سادسا: التوازن بين المغفرة والرحمة الواسعة والعقوبة الشديدة:

في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ إنّ كلمة (عِبَادِي) فيها من التشريف واللطافة ما يجذب كل إنسان، ويصل ذلك الجذب إلى أوج شدته المؤثرة عند ختم الكلام بـ (الْغَفُورُ الرّحِيمُ)، ليقودهم ذلك إلى الرجوع لحركة المسؤولية في الخط المستقيم من أنّ الخطيئة يمكن أن تذوب أمام المغفرة، ولتوجد التوازن بين مسألتي الخوف والرجاء في قوله: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، وخلق توازن في وعي الإنسان بين ما يفتح للقلب أبواب الرجاء، وما يفتح الضمير على أجواء الخوف ويمنعه من التمادي في العصيان، فإنّ تصور الرحمة يبعث في الإنسان والدافع للعمل، وتصور العقوبة يمنع ذلك الأمل من التغيير على الهدف ويضبطه من الانقلاب، وبذلك يتحقق نوع متكامل من التوازن البنّاء، الذي من شأنه أن يعطي سبيل الإنسان وطريقه في عالم الدنيا وصولا إلى الآخرة نحوا من الثبات والاستقرار الضامنين لسعادة الدنيا والآخرة، كما أنّ مفهومي الرجاء والخوف النابعين من مفهومي الرحمة والعذاب لهما دورٌ كبيرٌ في تنظيم سلوكيات الإنسان في عالم الدنيا، بشكل تتوازن معه الأمل

الحقوق والوجبات انطلاقا من مفهوم العدل الذي يمكن عده الوعاء الذي يحتضن هذا الشكل من التوازن.

التوازن في النبوة:

ويمكن بيانه على الشكل الآتي:

أولاً: النبوة في اللغة والاصطلاح

فالنبوة في اللغة من النبو: أصل صحيح يدل على ارتفاع في الشيء عن غيره ويقال إنّ النبي ﷺ اسمه من النبوة وهو الارتفاع.

وفي الاصطلاح: هي وظيفة إلهية وسفارة ربّانية، يجعلها الله تعالى لمن ينتجبه ويختاره من عباده وأوليائه الكاملين في إنسانيتهم، فيرسلهم إلى سائر الناس لغاية إرشادهم إلى ما فيه منافعهم ومصالحهم في الدنيا والآخرة.

ثانياً: الغرض من بعثة الأنبياء:

إنّ الغرض من بعثة الأنبياء جاء بنص القرآن الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ ويمكن بيان جملة من دواعي النبوة على النحو الآتي:

١ ـ هداية الإنسان، ودعوته إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وعبادته سبحانه.

٢ ـ تنزيه الإنسان وتزكيته من دون مساوئ الأخلاق، ومفاسد العادات.

٣ ـ تعليمه الحكمة والمعرفة.

٤ ـ بيان طرق السعادة والخير.

٥ ـ بلوغ الإنسانية كمالها اللائق بها، فترتفع إلى درجاتها الرفيعة في الدارين دار الدنيا والاخرة، وورد عن رسول الله ﷺ قوله: (ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من عقول أمته) وكذلك يشير أمير المؤمنين في خطبته فقال: (وليعقل العباد عن ربهم ما جهلوه، فيعرفوه بربوبيته بعد ما أنكروا، ويوحدوه بالإلهية بعد ما أضدوه)، وإن تعددت

أغراض البعثة للأنبياء فإنّها تتلخص بمهمتين صناعة الإنسان وتحريره من الدنيا وجعله متخلقا بالفضائل الإنسانية والأخلاقية، وإقامة المجتمع التوحيدي على وفق النظام الإلهي.

ثالثاً: صور التوازن في النبوة:

إنَّ جميع الأنبياء الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم رسلٌ منه سبحانه وتعالى، وعباد مكرمون بعثوا لدعوة الناس إلى الحق، وإنّ النبي لابد من أن يمتاز بجوامع الفضائل من الصدق والعدالة والسخاء والشجاعة، والورع والوفاء والأمانة، والصبر والزهد والعفة، وأن يكون ذا علم ومعرفة وكل الفضائل التي تسمو بالكمال الإنساني والروحي، والسؤال كيف مارس الأنبياء دورهم الرسالي في الحياة مع الأفراد في خلق الجو الاجتماعي المناسب والملائم للتربية والتهذيب والتزكية؟ والجواب: إنّه لا يخفى على الجميع أنّ ركيزة التوازن في النبوة هي استمرار الاعتقاد بالفطرة السليمة والتوحيد وعبادة الخضوع ضمن منظومة تكاملية للعقيدة، بعقلية أدركت معنى العقيدة الصحيحة وانعكس هذا على اعتقاد بأنّ الله لطيف وحكيم بعباده بإرسال أنبيائه لإنارة طريق الحق للبشرية، وإن للتوازن دورا كبيرا في إظهاره في ضوء التوازنات التي سيتطرق إليها البحث، وهي كالآتي:

١ـ التوازن بين بعثة الأنبياء وإقامة العدل:

إنّ كمال الشيء هو: حصول ما فيه الغرض منه، واستعمال الكمال في الدين يتحقق بعد تمامية الأجزاء إذا أضيفت إليها خصوصيات ومحسنات أُخر، فهي مرتبة بعد التمامية، وإنّ بعثة الأنبياء جاءت من أجل تكامل الإنسان والأخذ بيده وإعانته؛ لأنّ الواقع يؤكد أنّ هناك نقصاً في حياة الإنسان، ولا يستطيع الإنسان سواء كان فرداً أو جماعة ان يملأ ذلك الفراغ، إلا بمساعدة إلهية تتجسد في بعثة الأنبياء، كما أن من جملة موارد

التوازن في الآية الشريفة، هو إرسال الرسل بالبينات، أي الحجج الدامغة التي من شأنها إقناع الناس على الإيمان بالأنبياء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾، والآية واضحة الدلالة على أن الغرض من إرسال الأنبياء للام هو من أجل نشر موازين القسط والعدل، حتى تكون من شأن الناس ودينهم أن يقوموا بالقسط، كيما يكون العدل الحاكم والمهيمن على شؤونهم.

ولا يخفى ما في ذلك من حقيقة التوازن بين إرسال الأنبياء من جهة، وبين تحقيق الأهداف المنوطة بأنّ يقوم الناس بالقسط من جهة أخرى، وهو ما يؤكد حقيقة المهمة الرسالية لكل رسول وهي إقامة العدل، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.

كما أنّ التوازن من بعثة الانبياء يتجسد في قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾. يقول العلامة الطباطبائي (ت ١٣٤٤هـ) في شرح الآية: إنّ حاجة الناس ضرورية إلى الأنبياء؛ لأنّ النفس الإنسانية راغبة للكمال، وهي واقعة في طريق الاستكمال، وبما أنّ الله تمام الإفاضة، فإنّه يعطي إفاضة لكل نفس مستعدة بما يلائم استعدادها من الكمال، ويتبدل إلى قوة فعلية من الكمال الذي يسمى سعادة إذا كانت ذات صفات حسنة وأخلاق وملكات فاضلة معتدلة، ومن الذي يسمى شقاوة إن كانت ذات رذائل وأخلاق وهيئات ردية. وهذا يبعث أملاً واسعاً ودافعاً نحو تحقيق التوازن الذي يحتاجه الإنسان لسد

النقص المعرفي الموجود فيه، والأنبياء حققوا التوازن المعرفي للتكامل عن طريق التعاليم التي أرسلها الله بوساطتهم، التي لولاها لما استطاع الإنسان أن يحقق توازنه المعرفي نحو التكامل سواء كانت على مستوى الطاعات والعبادات أو على مستوى المعاملات، وفي ذلك إصلاح لحياتهم الفردية والاجتماعية من بدء الخلق إلى وقت الوفاة، وبيان لارتباط الناس بخالق الكون والعالم بعد الموت.

٢ ـ التوازن بين المعجزة النبوية والغاية منها:

لقد بيّن القرآن الكريم أسباب النزول، وذلك عن طريق عرض لون عال من التوازن الرابط بين القرآن الكريم معجزة النبي وبين الغاية التي من أجلها أُنزل قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ فالآية بصدد بيان التوازن القائم بين نزول القرآن والهدف المشخّص من نزوله والمحدد بالهدى والفرقان، ثم أنه سبحانه يدلنا على نوع آخر من التوازن ينتهي بالإنسان إلى الوقوف على حقيقة تلك المعجزة الإلهية الخالدة، من خلال إعمال التدبر قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، أي أنّ التدبر بآيات القرآن أشبه ما يكون ميزانا يوصل الإنسان، ويبعث في نفسه الاطمئنان على أنّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى على القطع؛ لأنه لو كان من عند غيره سبحانه لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، ويبسط القرآن صنفا جديدا من التوازن بين المؤمنين والظالمين، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾. فالقرآن يكون فيه شفاء ورحمة للمؤمنين، وكأنه توازن بين الفوز الخاص بالمؤمنين المتمثل بالشفاء والرحمة من جانب، وبين الخسارة

الخاصة بالظالمين من جانب آخر؛ لذا فلا عجب من أن يكون القرآن هو أحد الثقلين الذين أوصى بهما الرسول ﷺ حين قال: (إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما).

فالقرآن هو الحبل المتين الذي أحد طرفيه بيد الله سبحانه وتعالى وعلى الإنسان الإمساك بالطرف الآخر بقوة وإصرار، ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**﴾، وبقدر القوة التي يمسك بها الانسان يجنبه الله الأخطار ويقيه الأهوال والمصاعب، فإنّ القرآن الكريم يعمل على المحافظة على الفرد والمجتمع من كافة أنواع المخاطر بهذا الاتصال الدائم والمستمر مع الله سبحانه والتمسك والالتزام بما جاء به من قوانين.

ـ التوازن بين الطاعة للمكلف والجزاء الإلهي:

من دواعي بعثة الأنبياء هي قاعدة اللطف وهو ما يدعو المكلف إلى فعل الطاعة وترك المعصية بحيث يجعله أقرب إلى امتثال أوامر الله تعالى وأبعد عن ارتكاب نواهيه، وإنّ هداية الناس التي منحها الله للأنبياء هداية تشريعية في التعليم والتزكية والدعوة إلى الله وحده لا شريك له وتطبيق أوامره وإقامة حدوده، فالنبي يمثل مجرى فيض الخالق ومظهر لطفه الخاص، فكل ما يصل إلى الخلق من نعمة إنما هي من بركة وجود الأنبياء، وإنّ اللطف الإلهي الذي بعث الأنبياء ليقووا الرابطة بين العبد وربه ليزداد تقربا بالطاعة، فيقول جل شانه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾، والاستقامة للإنسان هي لزوم المنهج المستقيم، وإقامة الشيء:

توفيه حقه، وفي قوله (ثُمّ اسْتَقَامُوا) لزوم وسط الطريق من غير ميل وانحراف والثبات على القول الذي قالوه)، «إنّه خط التوحيد والاستقامة في اتجاهه بحيث لا ينحرف ذات اليمين وذات الشمال، التي تختصر الرسالة في كل تفاصيلها المتعلقة بالحياة والناس»، كما أن الآية تلفت الأنظار إلى شكل من أشكال التوازن، إذ يقرّر سبحانه حقيقة أنّ المؤمنين ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ يكون جزاؤهم عليه ـ جل شأنه جزاء متوازنا يتناسب مع استقامتهم وإقرارهم بالله ربّا؛ ليكون بتنزل الملائكة عليهم أمنا من الخوف والحزن والبشارة بالجنة التي وعدهم بها سبحانه، يقول تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، والاتجاه نفسه يكون التوازن بين الإيمان والتقوى، اللذين يمثلان أعلى درجات الطاعة عند الإنسان، وبين ما يترتب عليها من جزاء عظيم، قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وقال تعالى: ﴿إِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾، كما أَنّ ثمة توازناً توازناً آخر بين الطاعة من جهة والهداية من جهة أخرى جزاءً على الهداية، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

التوازن في الامامة:

تُعد الإمامة أصلا من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها، فهي رئاسة إلهية عامة وهي خلافة عن النبي الشاملة لأمور الدين والدنيا؛ لأن النبوة بداية حياة والإمامة استمرار وامتداد لتلك الحياة، وإنّ الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوما من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت، وهم معصومون عن السهو والخطأ والنسيان؛ لأنهم حفظة الشرع والقوامون عليه حالهم في ذلك حال

النبي، والعصمة بمعنى المنع، والحفظ والوقاية، وفي المصطلح العقائدي: «لطف يفعلُهُ الله تعالى بالمكلّف، بحيث تمنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليهما، وقيل أيضا هي ملكة اجتناب المعاصي مع التمكّن منها بمعنى أنّ الله حفظ أنبياءه ورسله والائمة من الوقوع في الذنوب والمعاصي، صغيرها وكبيرها، من حين الولادة حتى الوفاة، فلا تصدر منهم المعصية حتى سهوا ونسيانا، وكل ما ينطبق على النبوة تشترك فيه الامامة إلا أنّ الإمام لا يتلقى الوحي، ولا يختلف التوازن الذي بيانه في النبوة عنه في الامامة، وستبين الباحثة مفاهيم إضافية لأهمية الإمامة في تطبيق التوازن في الآتي:

أولاً: التوازن في وجود الإمام وحفظ الأمة من الانحراف: ___

الإمام هو الشخص المقتدى به في أفعاله وأقواله، في قوله: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾، نستوحي من ﴿**يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**﴾ القدوة في أفعال الإمام وأقواله في جانب التبليغ، وفي قوله: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾، جانب الشخصية القيادية التي تمثل الثبات في مواجهة المزالق، ما يجعلها في موقع المسؤولية والقدوة العملية، إنّ دور الإمام لا يقل أهمية عن وجود النبي، فالدليل الذي يوجب إرسال الرسل وبعث الأنبياء هو نفسه يوجب نصب الإمام، فلا يجوز أن يخلو عصر من العصور من إمام مفترض الطاعة منصب من الله تعالى، فقد روي عن أمير المؤمنين عند قوله: (لا تخلو الأرض من قائم الله بحجة، أما ظاهرا مشهورا، أو خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج الله وبيناته).

من هنا يتبين للبحث أنّ وجود الأئمة كونهم خلفاء للنبي، من شأنه

أن يُحدث توازنا بين وجودهم من جهة، وحفظ الأمة من الانحراف عن الجادة من جهة أخرى، وبين إتمام الحجة في قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ من جهة ثالثة.

وبتوجيه آخر إنّ وجود الأئمة لم يحقق التوازن أيضا بين عدم انحراف الأمة من جانب، وبين استمرارية الحجة الله على خلقه من جانب آخر، بل إنّ وجود الإمام مدعاة لبقاء الكون وديمومته واستقراره، فعن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله لا أتبقى الأرض بغير إمام؟ قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت) والرواية واضحة الدلالة بمدخلية وجود الإمام في حفظ التوازن الكوني، فضلا عن التوازن العقدي.

ثانيا: التوازن في الطاعة والولاية:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، والآية تخاطب المؤمنين وتأمرهم بإطاعة الله ورسوله الله وإطاعة أولي الأمر على صعيد واحد ومرتبة واحدة. ويمكن القول إنّ الآية تعكس توازنا عقائديا خلاصته أنّ الله يأمر المؤمنين بإطاعته ثم بإطاعة نبي الرحمة وأولي الأمر، ما يُوحي بأنّ طاعتهما توازن طاعة الله سبحانه، وقد ورد في تفسيرها ما يؤكد ذلك المعنى، إذ ورد في تفسير (وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)، قيل «أي والزموا طاعة رسوله الله أيضا وإنما أفرد الأمر بطاعة الرسول وإن كانت طاعته مقترنة بطاعة الله مبالغة في البيان و قطعا لتوهم من توهم أنه لا يجب لزوم ما ليس في القرآن من الأوامر.

والقيادة الشرعية وحدها لها حق الطاعة، «وهذا ما يريد الله سبحانه أن يخطّط للمسلمين ويدخلهم في أجواء النظام، على أساس النظرية والتطبيق معا، فيدعوهم إلى عدّ الطاعة لله وللرسول ولأولي الأمر قاعدة ثابتة،

ترتكز عليها الحياة العامة، في ما تمثله من السير على الخط الذي يرسمه الرسول في تخطيطه للمسار العملي في تفصيلات الأمور، وجزئيات القضايا، و حركة الصراع، وقيادة الأمة إلى أهدافها وتحريك الساحة نحو المواقف الحاسمة في مواجهة التحديات، وتفجير الطاقات في سبيل الإبداع والعطاء». أما ما يخص مفهوم الولاية فإن التوازن يأخذ بعدا أعمق وأوكد، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ إذْ انحصرت الولاية بين الله سبحانه ورسوله، بنحو متساو ومتوازن بينهم، الأمر الكاشف عن أهمية ومكانة ولاية الذين آمنوا وانها امتداد لولاية الله سبحانه، وكذا قد ورد في تفسيرها ما يؤكد ذلك، إذ ورد في تفسير هذه الآية أنها بدئت «بكلمة (إنما) التي تفيد الحصر، وبذلك حصرت ولاية أمر المسلمين في ثلاث: هم الله ورسوله، والذين آمنوا وأقاموا الصلاة وأدوا الزّكاة وهم في حالة الركوع في الصلاة، وأنّ المراد من كلمة (ولي) في هذه الآية، هو ولاية الأمر والإشراف وحق التصرف والزعامة المادية والمعنوية، خاصة وقد جاءت مقترنة مع ولاية النّبي وولاية الله حيث جاءت الولايات الثلاث في جملة واحدة.

ثالثاً: التوازن في شخصية الإمام القيادية:

كما أنّ من مهام الإمام ووظائفه والتي تمثل استكمالا للتوازن في المجتمع وحفظ الأمة من الانحراف، «فقد كان النبي حصن الحق وملجأ الأمة الفكري، والمانع من تطرق الانحرافات الفكرية والأخلاقية والعقائدية والسلوكية، ولابد من إمام يواصل هذا النهج ليحفظ الأمة من التشتت المذهبي والخلاف الديني والفكري، فوجود الإمام حافظ للأمة من الانزلاق في مهاوي هذه

الانحرافات في تطبيق التشريعات الإلهية التي أوجبها القرآن الكريم كما في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾، فالولاية الإلهية تمنح لمن فيهم الاستعدادات والتقدم في الإخلاص والعمل، ومن لهم القابلية في تطبيق الشريعة بحذافيرها، وقد اقتصرت الآية على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؛ لانهما كمال الإخلاص والانقطاع إلى الله ـ عز وجل ـ، وفيهما نبذ للشهوات وحب الدنيا، والفعل المضارع في (يُقِيمُونَ وَيُؤْتُونَ)، على الاستمرار والتكرار والتجدد، وكامل رغبتهم في الإحسان.

رابعاً: التوازن والانتظار

جاء في الحديث الشريف عن محمد بن الحسين، عن جعفر بن بشير، عن موسى بن بكر الواسطي، عن أبي الحسن عن آبائه عليهم السلام أنّ رسول الله ﷺ قال: (أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل).

إنّ مفهوم الانتظار يحدّد الرؤية الصحيحة والمتوازنة لمسيرة الإنسان والهدف منها، فكان المائز للمعتقد بالإمام المهدي فالانتظار هو الترقب، والتهيؤ، والامل المنشود، والانتظار ممارسة عبادية وشعور وجداني وحركة حضارية وتهيؤ نفسي وعقلي للتغيير والتطلع له، محورها الغيب والتوازن، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وهذا التغيير في ظل الانتظار يتخذ التوازن فيه بعدين في الحياة الإنسانية:

الأول: التهيؤ والاستعداد على مستوى الفرد، والثاني: التهيؤ والاستعداد على مستوى

الجماعة، وهذان البعدان لهما ركائز تحدد سير كُل منها المفاهيم الآتية:

١ ـ الولاء كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، قيل في الولاء بين المؤمنين إنهم ذوو كينونة واحدة متفقة لا تشعب فيها ولذلك يتولى بعضهم أمر بعض ويدبره؛ ولذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف وينهى بعضهم بعضا عن المنكر، ويقيمان ركنين وثيقين في الشريعة فالصلاة ركن العبادات التي هي الرابطة بين الله وبين خلقه، والزكاة في المعاملات التي هي رابطة بين الناس أنفسهم على أنّ إطاعة شرائع الله النازلة من السماء كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة والزكاة تتوازن مع إطاعة الرسول فإنّ الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوة إلى أصول الدين وفروعه، والرحمة هي نتيجة في القضاء الإلهي من شمول الرحمة الإلهية لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر.

٢ ـ **الصبر**: في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصابرين﴾، وصف الصبر في القرآن الكريم بأوصاف منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ مَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظَ عَظِيمٍ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

إن قدرة الانسان على الصبر والصلاة في ظروف انتظار الفرج تتوازن مع وجود الله وقيمومته مع الصابرين فعلى قدر الاستعانة يكون المدد الإلهي والمعونة الإلهية محيطة بالمؤمنين المنتظرين.

٣ ـ **الأمل** في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، (نَمُنّ) هنا العطاء من النعمة ما يثقلهم، وتمكينهم في الأرض

أي إعطاؤهم فيها مكاناً يملكونه ويستقرون فيه، والافعال المضارعة (نُرِيدُ) و (نَمُنّ) و (نَجْعَلَهُمْ)، هي دلالة على الاستمرارية والمستقبل.

إن عطاء النعم الكثير من الله سبحانه تتوازن مع استمرارية هذا العطاء وقدرة الجعل والتدبير الإلهي. وهكذا يستكمل التوازن دوره في بناء الشخصية المنتظر القادرة على تفعيل دورها في قيادة المجتمع في زمن الغيبة كما في قول الرسول صلى الله عليه وآله: (طوبى للصابرين في غيبته، طوبى للمقيمين على محجتهم، أولئك وصفهم الله في كتابه وقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالغيبْ﴾.

التوازن العبادي:

إنّ العبادة هي الانقياد والخضوع والعبودية هي إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الأفضال، وهو الله تعالى، والعبودية

الحقيقية: هي تطابق التعبد الاختياري التشريعي العبودية التكوينية، فإنّ التشريع لازم أن يطابق التكوين، وإلا يلزم التضاد فيما بينهما ويفوت الغرض المقصود من التكوين والخلقة.

ويُعدّ التوازن العبادي الدعامة الأساسية في بناء توازن الإنسان، وهو ترجمة عملية للتوازن العقائدي، فالإنسان يعتقد أولاً وبعدها يؤدي الطقوس العبادية طبقاً لمعتقداته، لذلك يُعدّ أعمق وأشمل توازناً، وأكثر تأثيراً في وجود الفرد والأمة.

ولكي يظل غرس العقيدة الإسلامية قوياً في النفس، لابد من أن يسقى بماء العبادة وبمختلف صورها وأشكالها، فبذلك تنمو العقيدة في الفؤاد وتترعرع، وتثبت أمام عواصف، ومهما ارتفعت درجات الناس بعض على بعض، فإنها لا ترتفع عن الحياة وزعازعها درجة العبودية لله تعالى؛ لأنّ امتيازاتهم الذاتية تتحرك في دائرة

العبوديـة والحاجـة اليـه للاسـتمرار، والتـوازن العبـادي يتخـذ أبعـاداً روحيـة وجسـدية سـواء كانـت قوليـة أم حركيـة ويمكـن بيانهـا علـى وفـق المطالـب الاتية:

التوازن في عبودية الانسان: ___

ويمكن بيانه على النحو الآتي:

أولا: التوازن في عبوديـة الإنسـان المطلقة والتسخير الإلهي: ____

إذا استشـعر الإنسـان فـي نفسـه عبودية مطلقة لله سبحانه وتعالى فإنها تكون عاصمة من عبادة أي شيء غير الخـالق، وتعصـمه مـن الغـرور والتمـرد والطغيان، والاستكبار في الأرض بغيـر حق، والعلـو فيهـا والفسـاد، ففـي قولـه تعـالى: ﴿إِنْ كُـلُّ مَـنْ فِـي السّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلّا آتِـي الـرّحْمَنِ عَبْـدَا﴾، هـو انقيادهم فـي وجـودهم وفـي طـاعتهم الله علـى أسـاس الإحسـاس بالعبوديـة والاعتراف بها بين يديه؛ ولأنّ الإنسان بعبوديته هذه كريم على الله، فيه نفخة من روح الله، ومكرّم في الكـون، حتـى يستخلف في الأرض ويسلط علـى كـل مـا فيهـا وتسـخر لـه، فيقـول تعـالى: **﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْـأَرْضِ جَمِيعًـا مِنْـهُ ۚ إِنَّ فِـي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**.

إنّ كـل الموجـودات السـماوية والأرضية مسخرة بإذن الله لنفع البشـر سواء كانت التي فـي قبضـته واختيـاره، ويستعملها برغبته وإرادته أو التي ليست تحت تصرفه واختياره، ولكنهـا تخدمـه بأمر اللـه جـل وعـلا كالشـمس والقمـر وغيرهـا، وبالصـدد نفسـه يمكـن أن يُسـتفاد مـن الآيـة مـوردا مـن مـوارد التوازن العبادي، يـتلخص فـي أنّ اللـه سبحانه سخر لنا ما فـي السـموات ومـا فـي الأرض، وأنّ هـذا التسـخير آيـات بينـات لمـن أعمـل نظـره فـي التفكـر والتـدبر، فالتسـخير لمـا فـي السـموات والأرض من جانب، وأنّها آيـات وبيّنـات من جانـب آخـر، يُشـكل التفكـر قطـب رحى التوازن بينهما.

ثانيا: التوازن بين طلب الدنيا وابتغاء الآخرة:

إنّ القرآن الكريم يعرض مميزات كل من الحياتين بشكل دقيق، ويوضح مجريات الحوار والجو الذي يسيطر عليهما، ويصف أنواع الثواب الحسي والمعنوي، والعقاب، لتكون الصورة واضحة تمام الوضوح ومؤثرة في تحقيق الغاية المنشودة من التوازن الذي له الأثر في عمل الإنسان وهدفيته، ومن الآيات القرآنية التي تصور الترابط والانعكاس الشديدين بين الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى**﴾، وقوله: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا**﴾، والآية واضحة الدلالة على أنّ الإعراض عن ذكر الله سبحانه وتعالى يُوازنه في الجانب الآخر وهو الجانب الدنيوي أنّ معيشته تكون ضنكا، والأخروي حين يُحشر في الآخرة أعمى، أي أن ذنب الإعراض عن ذكر الله، متوازن مع العقوبة والعاقبة الموضوعة من قبل الله في الدنيا والآخرة. وطلب الدنيا في القرآن الكريم تتخذ شكل حركة وحياة، فلا رهبانية متثاقلة، ولا تصوفا متكاسلا ساكناً، فلا يوجد انفصام بين العبادة والحياة، ولا انشطار بين والموضوع، وهو التوازن في الشخصية العقدية في الباطن والظاهر، والمخفي والمعلن، ففي قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾. ولا يخفى ما في الآية من توازن واضح يجمع بين طلب الدنيا والآخرة، وأن العبد المؤمن ينبغي أن يكون طلبه في كليهما متوازنا، فلا يستغرق في طلب الآخرة حتى ينسى الدنيا، ولا ينشغل في طلب الآخرة حتى يغفل عن الآخرة، وإنّما قدّم الخطاب القرآني الدار الآخرة في الآية الشريفة ـ بحسب تقدير الباحثة ـ؛ لأنّ

الدار الآخرة هي دار القرار وهي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

من هنا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام الا قوله: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا)، إذ يشير كلام أمير المؤمنين إلى حالة توازن فكري وروحي وعقدي فيما يتعلق بعلاقة الانسان بالدنيا والآخرة؛ لأنّ الدنيا بطبيعتها وماديتها تجعل الإنسان ينقاد إليها لإشباع رغباته مهما كانت وينسى أمر الآخرة، وأنّ هناك ميزاناً لأعماله من ثواب وعقاب، وفي الطرف الآخر هناك من يسعى إلى الآخرة فيعمل جاهدا وينكفئ عن الدنيا وينزوي بعزلته في جو من العبادة والذكر بما يجعله يعطل معالم حياته، وكلا الطرفين غير صحيح، بل الواجب هو حالة توازن بين متعلقات الدنيا، والأخذ بالأسباب، وبذل الوسع في تحصيل الرزق وعمارة الأرض والانتفاع الإنسان بها ومن يجيء بعده، كما انتفعت أنت بعمل من كان قبلك، وبين متعلقات الآخرة ودوام العمل والاستعداد لها.

ثالثا: التوازن بين الإيمان والعمل الصالح:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾.

يلحظ المتتبع لآيات القرآن الكريم مجيء قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مرات كثيرة؛ للتأكيد على ورود توازن قيمي بين الإيمان والعمل على النحو الذي لا يُتصور تخلف أحدهما عن الآخر، فالإيمان مرتبط بالعمل الصالح، والعكس بالعكس، وكلاهما يقدمان الأنموذج الصالح للمؤمن، وأنّ الكمال الحقيقي يكمن في الإنسان من الجمع السالم بين الحُسن الفاعلي مع الحُسن الفعلي؛ أي الروح المعتقدة والمتخلقة بالأخلاق، والبدن المشتغل بالامتثال

الذي يبين في العديد من الآيات بصورة الشرط اللازم للخلاص من مرارة عقاب المعاد وتذوق حلو ثوابه، ومن أبرز التوازنات للإيمان مع العمل الصالح هما الصلاة والزكاة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فبعد الترغيب بالحسن الفاعلي؛ الذي يتمثل بالإيمان بالمعارف الإلهية والمآثر السماوية، يأتي التشويق إلى الحسن الفعلي؛ المتمثل بتوطيد الرابطة العملية مع الله جل وعلا (الصلاة)، وتوثيق الارتباط الاقتصادي بضعيفي الحال ومحتاجي (الزكاة) والمحافظة على وحدة الأمة الإسلامية وعظمتها من خلال صلاة الجماعة، وأنّ العلاقة التلازمية بين الإيمان والعمل الصالح تحقق توازناً من نوع القول والفعل، فلا إيمان من دون عمل ولا عمل خالٍ من الإيمان، وهذه العلاقة ذات طبيعة اجتماعية حركية فاعلة، لا تفصل بين الدنيا والآخرة من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشريعة ـ على وفق الآيات آنفا ونحوها ـ تؤكد أن ثمة توازناً دقيقاً يحفظ الحقوق للذين آمنوا بين ما انعقد وجودهم في عالم الدنيا على الإيمان والعمل الصالح، وبين ما ادخّر لهم من أجر في عالم الدنيا يضمن لهم عدم الخوف والحزن.

رابعاً: التوازن في سماحة العبادة:

السماحة من السلاسة والسهولة، فيقال سمح له بالشيء، ففي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾، هذا الترخيص واليسر في العبادة هو روح التوازن في الشريعة الإسلامية في رعاية الانسان وجعله لا يتناقل في أداء العبادات في ظل الظروف الطارئة التي تواجهه، فلم ينزل الأحكام الإسلامية للإنسان لتعسيره، بل أراد له اليسر في

التكاليف، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، فهناك توازن بين تقوى الله سبيل لليسر والسهولة في الأمور، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وما يتضمنه من توازن بين العسر واليسر والتأكيد بوساطة التكرار، وسيأتي بيانه بأذن الله تعالى.

التوازن في فريضة الصلاة

الصلاة: هي الدعاء، والتبريك، والتمجيد، وهي من الأعمال العبادية ووسيلة الاتصال بالله ومظهر العبودية الخالصة؛ لأنها أكمل صورة من صور العبادة التي تربط القلوب بخالقها وتقترب منه وتتصل به، فهي (وفادة إلى الله تعالى)، والوفادة هي الضيافة الكريمة على الله، إنّ اقامة الصلاة بمواعيدها المحددة وأسلوب أدائها المتميز بحركاتها وأفعالها وأقوالها تدريب على حب النظام والاحترام والالتزام به في جميع شؤون الحياة، وقد وردت الصلاة بـ (الاقامة (بدلا من (صلوا)؛ لأنّ فيها إشارة إلى إقامة وإحياء الصلاة في المجتمع والإتيان بحقها عن طريق التقييد بشروطها الظاهرية والباطنية من حضور القلب وخشوعه مما يمثل الصلاة، روح وهي وسيلة التطهير والمواظبة عليها تربي عند المصلي الضمير الحي الذي يبعث الخير ويمنع الشر. ويتخذ التوازن في الصلاة أبعاداً عدة منها:

أ ـ التوازن في مقدمة الصلاة:

الوضوء هو مقدمة الصلاة لتحصيل الطهارة الظاهرية، ويكون الطهور أما بالماء أو التراب، وكلاهما أصل منشأ الحياة ومصدرها، فلا ينبغي أن نتصور أن الوضوء مجرد غسل الاعضاء المخصوصة بالماء ومسحها، بل إنّ الماء منشأ الحياة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾، الجعل بمعنى الخلق، وللماء دخل في وجود ذوي الحياة، ويشكل الجزء الأكبر من بدن الإنسان، وفي قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ

﴿مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾، ومعنى الآية يتضمن معنى من معاني التوازن، فإنزال الماء من السماء يقابله الطهارة وذهاب رجز الشيطان بقرينة تخلف عدم العلة عن المعلول، فعلة نزول الماء في الآية هو التطهير وإذهاب رجز الشيطان، ولا يمكن أن نتصور قصور العلة عن المعلول لوجود توازن مطلوب بينهما.

ب ـ التوازن في الجهر والإخفات:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، إنّ الآية لا علاقة لها بالصلوات الجهرية والإخفاتية في اصطلاح الفقهاء، بل إنّ المقصود منها يتعلق بالإفراط والتفريط في الجهر والإخفات فهي تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحيث يشبه الصراخ، ولا أقل من الحد الطبيعي بحيث تكون حركة شفاه وحسب ولا صوت فيها؛ لأنّ جو الصلاة يفرض التوازن في طريقة التلفظ بكلمات القرآن أو الدعاء أو التسبيح، فإنّ ذلك يسهم في استيعاب المضمون بطريقة هادئة روحية، لا تجعل الكلمة تغيب في الهمس، ولا تصرخ في الجهر، بل تتحرك في وعي السمع بما يضمن نفاذها إلى القلب وانسيابها في الروح، وهذا التوجيه مبدأ لنا في كل أعمالنا، وبرامجنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ونكون في جميع هذه الأمور بعيدين عن الإفراط والتفريط، إذ الأساس هو: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

ج ـ التوازن في حركات الصلاة مع التربية الإيمانية:

إنّ الصلاة ليست مجرد حركات رياضية للجسد، وليست توجهاً صوفياً بالروح، بل هي مظهر لنشاط قوى الإنسان الثلاث الجسد، العقل، الروح؛ تتوجه إلى خالقها في توازن وترابط واتحاد يجعلها قياما وقعودا وركوع وسجودا، لتحقيق توازن نشاط الجسد، ويجعلها تدبرا وتفكرا وقراءة في المعنى

والمبنى تحقيقا لنشاط توازن العقل، ويجعلها خشوعا واستسلاما الله تعالى تحقيقا لنشاط توازن الروح، وقد ورد ذكر حركات الصلاة في آيات عدة منها؛ ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، وفي قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، إنّ المراد بالركوع والسجود هنا الصلاة وهو تسمية الشيء باسم أعظم أجزائه، وخصهما الله سبحانه وتعالى من بقية أفعال الصلاة لأنهما أعظم الأفعال، وبهما يحصل الخشوع والإرغام التام، وهما من أركان الصلاة تبطل بتركهما عمداً أو سهواً.

د ـ التوازن في صلاة الجماعة:

الجماعة من جمع وتعني الكثرة، والجمع هو تأليف المفترق، وصلاة الجماعة يؤدي فيه المصلون فرضهم مجتمعين في صفوف مستقيمة وحركات منتظمة خلف أمام يصلي بهم يشترط فيه الإسلام والإيمان والعدالة، وفيها روح النظام والطاعة واستحباب إقامتها فيه الثواب الكثير.

قال تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾، في الآية ثلاث وظائف، عبادية، الصلاة على ما قررتها الشريعة، والزكاة الوظيفة الاجتماعية من بذل المال والسعي في الحوائج، والأخير الأمر بالركوع مع الراكعين؛ لأن العبادة الاجتماعية أهم من العبادة الفردية؛ لأنّ فيها حفظ الانسجام، فالمعية الظاهرية للتساوي والتشابه في صفوف الصلاة تشكل أرضية لتطبيق العدالة، فهي تؤمن المواساة والمساواة الاجتماعية، وإنّ الاختلاف الظاهري يكون سببا للحقد والقهر والحسد وانعدام الرأفة بين الناس. فتكون صلاة الجماعة مدعاة لتربية الإنسان على التوازن عن طريق التعويد على النظام والانضباط الاجتماعي في المواظبة على أداء الصلاة في وقتها، وهي تعزيز للحالة الدينية الاجتماعية

التي يكون فيها ظهوراً جلياً لوجه الدين وروح الإسلام، وهذا ما أشار إليه الإمام الرضا: إنّما جعلت الجماعة لئلا يكون الإخلاص والتوحيد والإسلام والعبادة لله إلا ظاهرا مكشوفا مشهورا؛ لأن في إظهاره حجة على أهل الشرق والغرب الله وحده، كما أنّ صلاة الجماعة تُحدث توازناً اجتماعياً مطلوباً فهي لا تختص بفئة دون أخرى، ولا بجماعة دون جماعة، بل كل أفراد المجتمع وبمختلف توجهاتهم، وبصرف النظر عن مناصبهم ومراتبهم مدعوون للالتحاق بصلاة الجماعة، ومن اثره فهي من أسباب ما يمكن تسميته بالتوازن الاجتماعي، الذي لا يمكن أن يتحقق إلا بها وبسواها من العبادات الجماعية.

التوازن في فريضة الصوم:

الصوم هو: الإمساك عن الشيء والترك له، وقيل أيضاً هو الإمساك عن أشياء مخصوصة وهي الأكل والشرب والجماع، في زمن، مخصوص، بشرائط مخصوصة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾، واقترنت التقوى بالحرف المشبه بالفعل (لَعَلّ)؛ لأنّ البدء في أي عمل يكون متعلقاً بنتيجته والنتيجة هنا غير واضحة، فلربما لا يُوفّق العامل بالانتهاء من عمله أو يتوفاه الله قبل بلوغه النتيجة أو يلوث عمله بالنفاق والرياء، لذلك كان البدء ب (لَعَلّ)، فإذا أنهى العامل عمله على أتم وجه وبإخلاص، فإنّ الحكم الصادر سيكون حتما التقوى الحقيقية.

إنّ العبادات عموما، والصوم خصوصا؛ هي مواسم للمراجعة والتجديد، واستعادة الفاعلية والعودة إلى حالة التوازن التي تكاد تفتقد في غمرة الحياة بدوافعها، ونوازعها، وهي مراكز للتدريب العملي على المفاهيم الإسلامية، فالصوم عبادة لها دورها في توازن شخصية الإنسان المسلم،

وله أثرٌ بارز في عملية تهذيب النفوس، فعن الإمام الصادق عليه السلام قال: (إنّ الصوم ليس من الطعام والشراب، إنّما جعل الله ذلك حجاباً مما سواها من الفواحش من الفعل، والقول يفطر الصوم، ما أقل الصوّام وأكثر الجواع)، ويبرز دور الصوم في توازن الإنسان في الأمور الآتية:

أولاً: التوازن في التقوى بين الآداب المعنوية والباطنية للصيام:

أمرنا الله سبحانه بالتقوى، وبيّنها في القرآن الكريم على سبيل ذكر التقوى الاجتماعية ـ السياسية في مسألة القصاص، في قوله: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾، والتقوى المالية في موضوع الوصية بالثلث في قوله: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ**﴾، والتقوى العبادية في مسألة الصيام في قوله: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾، ولو تتبعنا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾، لوجدنا لوجدنا أنّ فرض الصيام على عباده يستبطن نحوا من التوازن، فالمولى سبحانه كتب الصيام كما كتبه على الأمم السابقة.

وحتى تتحقق التقوى؛ لابد للصائم من الامتناع عن الكذب والحسد والغيبة وكل ذنب من شأنه أن يدخله في دائرة الآثام والذنوب، كما يمتنع عن الطعام والشراب وباقي الممنوعات، ويطهر قلبه من الوسواس والأحقاد، وفي حديث للإمام الصادق لا يقول: (إذا صمتم فاحفظوا ألسنتكم عن الكذب، وغضوا أبصاركم، ولا تنازعوا، ولا تحاسدوا، ولا تغتابوا، ولا تكذبوا، ولا تظلموا فاذا فعلت ذلك كله فأنت صائم الله بحقيقة صومه صانع لما أمرك، وكلما نقصت منها شيئا مما

بيّنت لك فقد نقص من صومك بمقدار ذلك)، فتتحقق ملكة التقوى لآدابها المعنوية وهي صوم الجوارح وهو كف الجوارح عن المعاصي، والصوم عن الشهوات وترك كل ما تشتهي النفس من الطعام والشراب، والصوم عن الأخلاق السيئة بالابتعاد عن الرذائل الأخلاقية.

ثانيا: الصوم يحقق توازنا أخلاقياً

تتربى لدى المسلم الصائم مجموعة من القيم الأخلاقية منها الصبر الذي وهو النفس عن الهوى، مع مراعاة تكليف المولى، أي تحمل ما تكرهه نفس الإنسان، وهذا المعنى يشمل كافة موارد الصبر، كالصبر على المصيبة، والصبر في الطاعة، والصبر عن المعصية، وقد اقترن الصبر في الصلاة بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾، وقيل: إنّ تفسير الصبر بالصوم في بعض الروايات هو من قبيل تطبيق المفهوم على أحد أبرز مصاديقه؛ فالصوم هو من أهم أسباب كسر الشهوة.

ويمكن القول: إنّ الآية يُستبطَنُ فيها توازن شرعي قائم على أساس التوازن بين الصلاة والصوم، وأنّهما مجتمعان يرتقيان بآداب الفرد المسلم وأخلاقه؛ ولأنّ الصوم إمساك وك النفس عن المفطرات، ففي الرواية عن الإمام الصادق لا قال: (الصبر الصيام، وقال إذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم، فإن الله عز وجل يقول ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ يعني الصيام، إنّ بناء شخصية الإنسان المسلم في الجانب العملي يتحقق عند ارتباط الجانب العبادي في الصوم وتأكيده بالعناصر النفسية الأخلاقية في الصبر، فيخلق توازناً بناءً في الجانب العملي عند الفرد من خلال إبعاده عن أجواء الانحراف الفكري والعملي، وتتكون لديه قوة الاندفاع في الجانب العملي، يعينه على مواصلة الطريق المستقيمة.

التوازن في الزكاة:

الزكاة هي: «أصل يدل على نماء وزيادة، ويقال الطهارة زكاة المال» في الشرع «عبارة عن إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص لمالك مخصوص، وقد وردت في القرآن الكريم مقرونة بالصلاة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾، وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وفي قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وغيرها من الآيات التي قاربت الخمسين آية تحث على إيتاء الزكاة، والزكاة هنا مطلقة؛ بما هو أعم من الزكاة المالية والبدنية من إزالة الفقر والاحتياجات المادية والاقتصادية التي ترتفع بإعطاء الزكاة.

ولعل من جملة الآيات التي احتوت مفهوم التوازن في طياتها قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

إذ تلمس الباحث الآتي:

أولاً: أنّ هناك توازنا بين كلمة البر وهو التوسع بالخير، وبين أفعال الخير ومن جملتها الزكاة هذا أولا.

ثانياً: أنّ القرآن يحقق التوازن بين نفي البر وإثباته، فأكّد أنّه ليس من البر أن تولّي وجهك قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من قام بجملة أفعال تبدأ بالإيمان، الذي هو أُس الأعمال وأساسها، فهو ينطلق من القلب،

وينتهي بالصبر على البأساء والسراء، ومن جملتها الزكاة ويعود البحث ليلتمس توازنا بين الإيمان وسائر الأفعال ما يدفع العبد المسلم لأن يوجد في نفسه توزانا بين نواياه وأفعاله.

ولو أمعنا النظر في تلكم الآيات وسواها لوجدنا التوازن الشرعي ـ إن جاز التعبير ـ

بين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، الأمر الذي يوقفنا على الآتي:

أ ـ إنَّ الأمر لفريضة الصلاة جاء بفعل الأمر (أقيموا)، ولم يأت بفعل الأمر (صلوا)، كما أن الأمر بالزكاة جاء بفعل الأمر (آتوا)، ولم يأت بفعل الأمر (زكّوا)، وهو ما يكشف عن توازن قرآني صريح، ودقة عالية في انتخاب المفردات الملائمة للتكاليف الشرعية.

ب ـ طالما جاء الأمر بالصلاة مقترنا بالأمر بالزكاة، وهو ما يكشف عن توازن بين لونين من ألوان العلاقات الاجتماعية الأولى: تُوفّره الصلاة وهو علاقة الفرد بربه، والثاني: تُهيئه الزكاة وهو علاقة الفرد بمجتمعه، وهو ما يخلق توازناً وتناغماً اجتماعياً بين جانب العبادات وجانب المعاملات.

إنّ إعطاء الزكاة لمستحقيها يحقق توازنات منها؛ التوازن في اعتدال للثروة وتأمين حاجات المعوزين، وتنمية للمال وتكاثره، ومن هنا جاءت تسمية الزكاة بـ (النمو)، والتوازن الآخر معنوي من حيث طهارة روح المعطي للزكاة وإزالة الرين والعيب وعنه سميت الزكاة ب (الطهارة)، في قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ بها، ومن معطيات الإنفاق تطهير النفس عن رذيلة البخل والشح، فالإنفاق تطهر روحه منها، وطهارته بقدر بذله من العطاء، وبقدر فرحه واستبشاره بهذا الصرف، توازن في الشكر للنعمة الممنوحة من الله لعباده وإدامتها.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ**

الرّازقينَ﴾ فقوله في صدر الآية: **﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ للإشارة إلى أن أمر الرزق في سعته وضيقه إلى الله سبحانه لا ينقص بالإنفاق ولا يزيد بالإمساك ثم قال: ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ قليلا كان أو كثيرا وأيا ما كان من المال ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾** ويرزقكم بدله إما في الدنيا وإما في الآخرة **﴿وَهُوَ خَيْرُ الرّازِقِينَ﴾** فإنه يرزق جودا ورزق غيره معاملة في الحقيقة ومعاوضة. ولا يخفى إنّ هذا التوازن بين الإنفاق والخلف في الرزق على من أنفق بل وأضاف تعالى في اشارة إلى الزيادة والجود في الخلف فهو خير الرازقين.

التوازن في الحج

إنّ الصلاة والحج أمران عباديان يشتركان في أنّ لهما أوقات مخصوصة، وكيفيات بحركات مخصوصة يباشرهن الإنسان بنفسه ليتحقق الأثر البنائي المتوازن في العقيدة والاخلاق والاجتماع لجوانب الحياة العملية، إذ يلتقي الإنسان مع الله سبحانه وتعالى في أكثر من موقف في حياته.

هو إنّ أصل الحج هو القصد مع عمل مخصوص وحركة، وهي المناسك، وهذا المعنى الخاص هو الحقيقة الشرعية كالصلاة والزكاة، والحج من العبادات الإسلامية التي أوجبها الله تعالى على الناس لمن استطاع اليه سبيلا في قوله تعالى: **﴿وَلِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سبيلا﴾**، ويسهم في إيحاءاته ورموزه وأجوائه الروحية من تحقيق النظرة الشاملة لقضية الإنسان في الحياة، في تنمية الشخصية الإنسانية من الجانب التأملي والعملي والروحي، فيما القصد والزيارة، وهو: القصد الملازم للحركة والعمل والحج إذا عاشها الانسان من موقع الوعي المسؤول، فيمكن أن يعود من رحلته إنسانا جديدا في أهدافه ومنطلقاته

وخطواته، وآية الحج تفرض توازنا تكليفيا واضحا، بين الأمر العام بالحج

على كل الناس، وبيّن وجوبه على المستطيعين فحسب، وهو ـ بلا شك ـ ضرب من ضروب الألطاف الإلهية، وقد ورد في الحديث عن الصادق عليه السلام لا قَالَ: (الْحُجّاجُ يَصْدُرُونَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ يُعْتَقَ مِنَ النّارِ، وَصِنْفٌ يَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَهَيْئَةِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، وَصِنْفٌ يُحْفَظُ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ فَذَاكَ أَدْنَى مَا يَرْجِعُ بِهِ الْحَاجُ)، ثم إن المولى سبحانه قال في محكم كتابه الْحَجّ أشهرٌ مّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنّ الْحَج فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَىٰ وَاتّقُونِ يَا أُولِي الألْبَاب).

ويلمس المتتبع لتلكم الآيات كيف يكون لفريضة الحج دورٌ كبيرٌ في تربية الإنسان نفسيا، عبر محطات التهيئة النفسية، إذ لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج، وهي أوامر إلهية تسعى إلى تطهير الإنسان ذات الانسان تطهيرا داخليا عن طريق تجنب الرفث والفسوق، وخارجيا يتمثل في عدم الجدال مع الآخرين؛ احتراما لتلكم الفريضة وتعظيما لبيت الله العتيق، ثم يعود القرآن الكريم ليُذكر الفرد المسلم بأنّ ما يفعله من خير يعلمه الله، وهذا التذكير بحد ذاته يُنشئ توازنا يبعث على الاطمئنان النفسي بعظمة الأعمال في موسم الحج.

خلاصة القول، إنّ هذه الأوامر تشكّل منظومة أخلاقية وتربوية توازنية تعطي شخصية الفرد المسلم ثباتا واستقرارا على الهدى. وتتخذ أعمال الحج أبعادا توازنية على النحو الآتي:

١ـ التطهير الروحي:

وذلك بإحرام التلبية للدخول في ملكوت الحج فيقول بوحدانية الله ولا وجود لشريك للخالق بـ (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك).

يقول السيد السبزواري (ت١٤١٣هـ) في هذا المقام إنّ الحج كسائر العبادات، منه ما هو ظاهري مسقط للتكليف كحج عامة الناس، ومنه واقعي يوجب نيل أقصى الكمالات والفوز بأعلى المقامات في ما إذا أراد بإحرامه ترك جميع ما يلهيه عن ربه

٢ـ الطواف سبعة أشواط:

إنّ محورية الكعبة المكرمة والدوران حولها عكس عقارب الساعة، بأن يجعل حاج البيت الحرام على يساره في طوافه هذا الطواف هو رمز لحركة الأجسام المادية في الكون، فحركة الكواكب حول النجوم، والالكترونات حول النواة في الذرة كلها عكس عقارب الساعة أيضا، ولو ألقينا نظرة من مكان مرتفع لاتضحت رؤية حركة الأفواج من الحجيج في طوافها حول البيت بشكل دائري وهم يشكلون صورة من صور التوازن.

٣ـ التوازن الزماني والتوازن المكاني في الحج

إن للحج موسماً يحدد بأشهر معلومة، وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وتتم المناسك في أماكن محددة كذلك منها الإحرام من الميقات والطواف حول الكعبة، والصلاة خلف مقام إبراهيم لا، والسعي بين جبلي الصفا والمروة، والتقصير، بعدها الحج الأكبر، وهو الوقوف بعرفة من بعد صلاة الظهرين لغاية مغيب الشمس، والحضور بالمشعر الحرام ما بين الطلوعين، ورمي الجمرات استعدادا بعدها لنحر الهدي والتجرد من المخيط لاستقبال عيد المسلمين، التوازن الحاصل في اتحاد عامل الزمن مع العامل المكاني في عملية حركة الأفواج وأداء المنسك نفسه مع روحية الأفعال وأخلاقيات المناسك في قوله تعالى: ﴿**فَلا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**﴾، ويضفي على الحج تنظيم الوجود بروحية المكان مع كثرة

الأعداد البشرية الهائلة.

التوازن في حركة التغيير:

إنّ الحج عبادة ذات مضمون عملي وروحي، يحقق للإنسان الارتفاع والسمو الروحي ما يساعده على تغيير الواقع عن طريق تغييره للإنسان انطلاقا من الوحي القرآني الذي يُعد الإنسان أساس التغيير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وبذلك تدخل العبادة في عمق حركة الحياة، ولا تبقى حالة طارئة طافية على السطح؛ لأن ما يختزنه الفرد من الطاقات الروحية التي يستمدها من أجواء الحج كفيلة بإحداث تغيير في مجرى تفكير الفرد وشعوره وتحوله إلى عنصر فاعل واع في حركة الإسلام في الدعوة والعمل.

إنّ العبادة في الإسلام هي التجربة الكبرى القائمة على توازن فذ عجيب بين الأخذ والعطاء، والإنسان يبلغ قمة إنسانيته عندما يصل إلى تلك النقطة التي يحقق فيها ذلك التوازن؛ فنجده يبلغ أقصى درجات الانسجام، والتوحد الباطني، والحيوية الحسية، والنشاط الروحي، والتفتح العقلي، والحركات الجسدية ويسهم هذا في أن يكون المحتوى الداخلي للإنسان مطابقا مع سلوكه الخارجي، ويحقق توازنا بين الشخصية وبين القيم والمبادئ السامية، إنّ هذا الدين يدعو إلى الرفعة والسمو والطهر والنظافة بما فيه من حدود وتكاليف، لكنّه في الوقت نفسه لا يتغافل عن ضعف الإنسان وقصوره، ولا يتجاهل عن فطرته وحدودها ودوافعها، ومختلف طرق حياته ومنحنياته الكثيرة، ومن ثم وضع برامجه على أساس من التوازن في السماح واليسر والسعة فكان التوازن العادل بين التكليف والطاقة، وبين الدوافع والزواجر وبين الترغيب والترهيب، وبين التهديد بالعقاب والتطميع في الثواب؛ الأمر الذي

تتجسد فيه حكمته تعالى في الأمر بالطاعة والأطماع في العفو والمغفرة

وبعد أن استعرض البحث التوازن العبادي يتبين للباحثة أنه يؤطر لنوعين من التوازن؛ الأول: هو توازن للعلاقة ما بين العبد وربه، وقد تمثلت بالممارسات العبادية في فريضة الصلاة والحج والصيام والزكاة، وتشريعاتها في مواقيت معينة زمانية ومكانية، والتوازن الآخر في هذه العلاقة العبادية هو الدور الاجتماعي التي تؤديه بين الناس، فصلاة الجماعة هي تحول من العبادة الفردية إلى عبادة جماعية، وفريضة الحج هي عملية جماعية كبيرة، والصيام وارتباطه بعيد الفطر وهو الوجه الجماعي له، والزكاة ودورها الاجتماعي والاقتصادي.

الشيخ إبراهيم حسين
باحث وكاتب/ حوزة النجف الأشرف

نظريّة حق الطاعة
ـ مطالعة في جُذور النشأة ـ

توطئة

إنّ حَقّ الطّاعةِ للمولى يقتضي لزوم الاحتياط العقلي في التكاليف المحتملة، سواء كانَ ذلك في الشّكِّ البَدْوِي أم المُقْتَرِن بالعلم الإجمالي، مالم يرد ترخيص شرعي ينفي الوجوب، ويأذن في المخالفة، فيُعْمَلُ حينئذٍ بمقتضاه، وإلا فما يقتضيه حكم العقل العملي هو لزومُ الاحتياط سواء كان منشأُ الشّكّ ظناً أو احتمالا وإذْ نرومُ في هذا المطلب بيانَ إذا كان لنظرية حق الطاعة منشأ عندَ الاخباريين وهل كان لعلمائهم آراء في تأصيلها، ينبغي التعرض إلى بعض مبانيهم العامة في الاستنباط، وهو ما تميزت به المدرسة الإخبارية عن المدرسة الأصولية في آلية استنباط الأحكام الشرعية، ومِنْ ثُمّ نتعرّفُ على رأيِهِم في الاحتياط العقلي الذي تستلزمه نظرية (حق الطاعة).

ولبيان ذلك ينتظمُ على ما يأتي:

منشَؤُها عند الاخباريين

أوَّلاً: المبـــاني العامـــة عنـــد الاخباريين

١ـ يُعَدُّ العملُ بالقواعد الأصولية تعطيلاً للنُّصوص الشرعية.

٢ ـ لا ينهض العقلُ كدليل مستقل في قبالِ النُّصوص الشريفة.

٣ ـ مصادر الاستنباط، منحصرة في الكتاب والسُّنّةِ الشّريفَةِ المُتَمَثْلَةِ بِالنّبِي وأهل بيته. وفي ذلك دلالة صريحة في أَنّهُم لا يبسطون للعقلِ مساحةً في استنباط الأحكام الشرعية.

ثانيـــاً: حُجِّيـــة العقـــل في الاستنباط عند الإخباريين

ممّا لا شَكٍّ فيه أنّ أحداً لا يُنكرُ حجية العقلِ بما هو قوة عاقلة وهبها للإنسان ليُدْرِكَ بها حاجاته الأساسية في الحياة وما يَجِبُ عليه القيام به في سبيل ذلك، وإنّهُ المرآة التي تَعْكِسُ حقائق الأشياء لديه.

وإنّما الكلام في دليلية العقلِ وحُجِّيتِهِ في استنباط الأحكام الشرعية، فهل يرى الإخباريون العقل دليلاً على معرفة الأحكام أم لا يرون ذلك؟

سَبقَتِ الإشارة إلى عدم قبولهم وبشكلٍ واضح، على دخول العقلِ ضمن مصادر التشريع التي حصروها بالأخبار فحَسْب، وهذه جملةً من كلماتهم في حجية العقل في عملية الاستنباط:

١ـ محمد أمين الاسترابادي (ت: ١٠٣٣هـ): قال: وسمعت من بعض المشايخ أنه لمّا عيرت جماعة من العامة أصحابنا بأنه ليس لكم فن كلام مدون، ولا أصول فقه كذلك، ولا فقه مستنبط وليس عندكم إلا الروايات المنقولة عن أئمتكم، تصدى جماعة من متأخري اصحابنا لرفع ذلك فصنفوا الفنون الثلاثة على الوجه المشاهد، وغفلوا عن نهيهم أصحابهم عن تعلم فن الكلام المبني على الافكار العقلية، وأمرهم بتعلم فن الكلام

المسموع منهم وكذلك عن القواعد الاصولية الفقهية غير المسموعة منهم وصرحوا: «علموا أولادكم أحاديثنا قبل ألفة أذهانهم بما في الكتب غير المأخوذ عنا».

فيشير الاسترابادي وبوضوحٍ إلى أنّ اعتماد الأفكار العقلية في عملية الاستنباط؛ جاء بمثابة ردة فعل لمقابلة ماعابه جماعة من العامة على أصحابنا بأنّهم:

- لا فن لهم في كلام مدون.
- ولا أصول فقه.
- ولا فقه مستنبط.

كما يَصِفُ التصنيف في هذه الفنون الثلاثة بِأَنّهُ غفلةٌ لأصحابهم بتعلم الكلام المبني على الأفكار العقلية والقواعد الأصولية.

٢ ـ حسين بن شهاب الدين العاملي (ت: ١٠٦٧هـ): عدّ العاملي العقل دليلاً على الاحتياط، وذلك بقوله: (إنّ وجوب الاحتياط يطابق عليه العقل والنقل، أما العقل فلدفع الضرر المتوقع من تركه....).

٣ ـ يوسف البحراني (ت: ١١٨٦هـ): يُذْهَبُ المُحدِّثُ البحراني إلى إمكانية حُكْمِ العقلِ

بالبديهيات بدون الأحكام الفقهية من عبادات ومعاملات لأنّها توقيفية، إذ قال: (إن الأحكام الفقهية من عبادات وغيرها توقيفية تحتاج الى السماع من حافظ الشرع، لقصور العقل المذكور عن الاطلاع على أغوارها نعم يبقى الكلام على ما يتوقف على التوقيف فنقول: «إن كان الدليل العقلي المتعلق بذلك بديهياً ظاهر البداهة الواحد نصف الاثنين، فلا ريب في صحة العمل به».

يتّضِحُ ممّا تقدّمَ أَنّ الْمُحَقّقَ البحراني لا يمنع من دليلية العقلِ الكاشف عن الأحكام البديهية، وإنّما يمنع من قبولِ أحكامه في العبادات والمعاملات لأنّها توقيفية من الشارع المُقدّس.

فنسْتَنْتِجُ من جميع ما تقدم ما يأتي:

١ـ اختلافُ المباني الاستنباطية للأحكام الشرعية بين الاخباريين والأصوليين.

٢ ـ صرح بعضُ علمائهم بأنّ وجوبَ الاحتياط مما يُصرّحُ به العقلُ والنقل، ولكن من دون تفصيل في كيفية حُكْمِ العقل بذلك، وإنّما بين الداعي لحكم العقل في ذلك، وهو لزوم دفعِ الضّررِ المتوقع من تركه أي الاحتياط، وهنا نجد إشارات واضحة الى نظرية (حق الطاعة).

٣ ـ لا يمنع الاخباريون من الاستدلالات العقلية في القضايا البديهية مثل الواحدِ نصفُ الإثنين.

٤ـ التفصيلُ بين الشبهات الوجوبية فلا يعملون فيها بالاحتياط، وبين الشبهات

التّحريمية فيعملون به، وإلى هذا أشار الشيخ يوسف البحراني بقوله: «في الاحتياط وقد اختلف أصحابنا رضوان الله عليهم في وجوبِهِ فالمجتهدون على الثاني، والاخباريون على وجوبه واستحبابه في بعض المواضع».

والذي يَظْهَرُ من كلماتهم أيضاً، أنّهم يذهبون إلى الاحتياط الشرعي إذا خُلّي المكلفُ ونفسه ولم يَبْلُغْهُ الخطاب، فلا ينفون الأحكام الشرعية بالبراءة واستدلوا بأدلة كثيرة منها:

أولاً: التوقف عن الفتوى فيما لا نصَّ فيه عن الأئمة والعمل بالاحتياط الشرعي، وحينئذ فلا يؤخذ بالبراءة، وذلك لتصريح الائمة بأن الله في كل واقعة حكماً معيناً ثابتاً، فيجب علينا طلبه منْهم، وأما الحكم بالبراءة في الشبهات الوجوبية، فلا يعني عدم وجود حكم واقعي فيه وإنما عدم وصول الحكم الينا، ولزوم التكليف مع عدم العلم منفي بالحرج.

ثانياً: صحة الأحاديث تعم جميع الاحكامِ الابتلائية، فالحُكْمُ بالبراءة قليلا لجدوى، سيما إذا شَهِدَ بصحة الأحاديث الشريفة مثل الكليني (ت: ٣٢٩هـ) والصدوق (ت: ٣٨١هـ) مع علمهِمْ بالجَرْح والتعديل.

منشؤها عند الأصوليين

لم يتخذ علم الأصولِ في مساره التاريخي نهجاً واحداً، ذلك أن فقهاء الأصول طَوّروا عَبْرَ مراحلَ مُختلفة ومُتباطئة بعضَ الشّيء الأفكار الأصولية وعمقوها، وتُعَدُّ نظرية (حق الطاعة) واحدة من النظريات التي تناولها الأصوليون الإمامية بتعبيرات مُختلفة وشكل رتيب، غير أنّ مَفادها يكاد يكون واحداً في الجميع.

وقد هُذّبَ البحث ووسّعَتِ المطالبُ في هذه النظرية على يَدِ السّيدِ مُحمّد باقر الصدر (ت: ١٩٨٠م)، وعَبْرَ مُراجَعة لمؤلفاتِ المُتَقَدِّمِينَ من عُلَمائِنا لم نجد تصريحاً واضحاً حول هذه القاعدة نظير ما طرحه السيد الصدر في بحوثه الأصولية وَإِنّمَا هناك إشاراتٌ تَتّحِد مع جوهر نظرية حق الطاعة في تحديد وظيفة المكلف عند عدم ورود دليل من الشرع مثل:

١- أصالة الحظر.

٢ - أصالة الوقف.

و يلاحظ هذهِ النّظريات في كُتُبِ المتقدمين كـ (التذكرة بأصول الفقه) و (العدة في أصول الفقه) وغيرها، وإن أبعد إشارة تعود الى ذاتِ المُصطلح - حق الطّاعة تُحدّدُ في القرن السابع للهجرة، لكنّها لم تَرِدْ ضِمْنَ بحثٍ أصولي في مقامِ صياغة قاعدة أصولية أو تعيين وظيفة شرعيه أو ما شابه، وإنّما جاءَتْ في كتابِ شرح لنهج البلاغة خطه ابنُ ميثم البحراني (ت: ٦٧٩م). وفيما يلي نستعرضُ بعضاً من كلمات الأصوليين في هذه النظرية على اختلاف في ألفاظها كما قَدّمْنا.

أولاً: الشيخ المفيد: (ت: ٤١٣ هـ)

قال: (إنّ العقول لا مجال لها في العلم بإباحة ما يجوز ورود السمع بإباحته، ولا وحظر

بحظر ما يجوز وروده فيها بحظره، ولكن العقل لم ينفك قط من السمع بإباحة ولو أجبر الله تعالى العقلاء حالا واحدة من سمع لكان قد اضطرهم الى

مواقعة ما يقبح في عقولهم من استباحة ما لا سبيل لهم الى العلم بإباحته من حظره وألجأهم الى الحيرة التي لا تليق بحكمته، فقد ناقش المفيد عدم إمكانية العقول للقول بحظر الأشياء أو اباحتها.

ثانياً: الشيخ الطوسي (ت: ٤٦٠ هـ)

يذهبُ الطوسي الى مقالة المفيد من أنّ الأصل في الأشياء هو التّوَقُفُ إذْ قالَ: وذهب كثير من البغداديين وطائفة من أصحابنا الى أنها الأشياء على الحظر. وذهب أكثر المتكلمين... وكثير من الفقهاء الى أنها على الإباحة... وذهب كثير من الناس إلى أنها على الوقف ويجوز كل واحد من الأمرين فيه، وينتظر ورود السمع، وهذا المذهب كان ينصره شيخنا ابو عبد الله رحمه الله وهو الذي يقوى في نفسي.

ويظهرُ للباحث أنّ مرادهم ـ المفيد والطوسي ـ من الوقف الذي يكون أصلاً في الأشياء دون الحظر أو الإباحة هو التخيير إلى أن يرد نص في ذلك، والسبب في ذلك أنّ الثابت في العُقولِ أَنّ الإقدام على مالا يُعْلَم قُبْحُه يساوي الإقدامُ عَلَى مَا يُعْلَمُ قُبْحُه، كمن يُخْبِرُ بشيءٍ وهو لا يعلم صحة مَخْبَرِه فإنّه يجري في القبح مجرى من أخبر وهو يعلم كذب مخبره.

وقد بينَ الطوسي دقة ما ذهب إليه في أصالة الوقف في الأشياء بقوله: (وربما لم يتصور كثير ممن يتكلمون في هذا الباب ما بيناه، ومتى تأمله من يضبط الأصول وقف على وجه الصواب في ذلك، وبهذا يتضحُ أنّها من مختصات الفقيه الذي يحدّد بدوره الوظيفة الشرعية للمكلفين، ضمن القواعد الأصولية المعتمدة في عملية الاستنباط الشرعي. في حين يرى المرتضى (ت: ٤٣٦ هـ) أَنّ الأصل فى الأشياء الإباحة دون الحظر والوقف، كما أنّ المُحقق الحلي (ت: ٦٧٦ه) يرى بأنّ: (مع عدم الدلالة الشرعية

يجب بقاء الحكم على ما تقتضيه البراءة الشرعية)، فكلامه صريح بعدم إجراء حُكْمِ عقلي بالاحتياط، ومثله العلامة الحلي (ت: ٧٢٦هـ) إذ يرى أنّ: «الأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة، لأنها نافعة خالية عن أمارة المفسدة، ولا ضرر على المالك في تناولها فكانت مباحة».

ثالثاً: الشيخ ضياء الدين العراقي (ت: ١٣٦١هـ)

ذكر الشيخ العراقي أن العقل يقبح العقاب بلا بيان واصل الى المكلف وهذا ممّا لا شَكٍّ ولا اختلاف في كبراه بين الاصوليين والاخباريين، وانما الكلام في عدم جدوائية التمسك بهذه الكبرى المسلّم بها بين الفريقين فالنزاع بين الاخباريين والاصوليين في صغراها حيث يدعي الاخباريون منع الصغرى وذلك ببيانية أدلة الاحتياط من

١ ـ العلم الاجمالي.

٢ ـ الاخبار.

ويُمْضِي المُحقّقُ العراقي: ما ذهب اليه الاخباريون من بيانية الاحتياط بالعلم الاجمالي والاخبار بقوله: (.... نعم لو أغمض عن ذلك لا يرد عليها ما توهم من معارضتها مع قاعدة وجوب دفع الضرر المحتمل بل ورود القاعدة الثانية على الأولى).

كما ذهب المحقق العراقي وغيرُه مثل المحقق الأصفهاني (ت: ١٣٦١هـ) أيضاً إلى: (أن العلم الإجمالي يستدعي وجوب الموافقة القطعية كما يستدعي حرمة المخالفة القطعية).

رابعاً: السيد محمد باقر الصدر (ت: ١٩٨٠م)

تتّسِقُ الصّيغَةُ الفنية الكاملة لنظرية حقّ الطّاعة عند السيد الصدر، وذلك لأنّهُ أولاها الاهتمام البالغ في كُتُبِهِ الأصولية، وبغيةَ فَهْم نظريته سيتم عرض الباحث الى تحديد منهج السيد الصدر في نظرية (حق الطاعة) وبيان أدلتها، وكيف أَنّهُ وظّفَ هذهِ

القاعدةَ في تحديد وظيفة الشاك.

ونشير هنا إلى بعض كلماته في هذهِ النّظرية إذ يقول: (ولكي ندرك أن العقل هل يحكم بقبح معاقبة الله تعالى للمكلف على مخالفة التكليف المشكوك أو لا؟ يجب أن نعرف حدود حق الطاعة الثابت الله تعالى، فإذا كان هذا الحق يشمل التكاليف المشكوكة التي يحتمل المكلف أهميتها بدرجة كبيرة ـ كما عرفنا ـ فلا يكون عقاب الله للمكلف إذا خالفها قبيحاً، لأنه بمخالفتها يفرط في حق مولاه فيستحق العقاب). بينما يرى الشيخ السبحاني أنّ المرجع في الشُّبُهَاتِ الحُكْمية هو البراءةُ العقلية، فإذا شكّ شيءٍ أو حرمتهِ بعد الفحص في مظان الدليل، يحكم العقلُ بعدم المكلفُ في وجوب وجوبه وحرمته ظاهراً مستنداً إلى (قُبْحِ العقاب بلا بيان).

وأبرز القائلين بنظرية حق الطاعة تلامذة السّيد محمد باقر الصدر إذ يرى السيد محمود الهاشمي ﷺ والذي بحث نظرية حق الطاعة بجوانب عدة، أنْ لا مجال في عدم قبولها فقد قال: (ومظنوني انه بعد الالتفات إلى ما بيناه لا يبقى من لا يقول بسعة مولوية المولى الحقيقي بنحو تشمل حتى التكاليف الموهومة من هنا نحن لا نرى جريان البراءة العقلية).

كما أنّ السيد كاظم الحائري يذهب الى ثبوتِ حقٌّ المولوية بمجرد احتمال التكليف وفي ذلك قال: (إذ نحن نقول بثبوت حق المولوية بمجرّد احتمال التكليف مع احتمال اهتمام المولى به إلى حدّ لا يرضى بفواته في فرض الشك، وعدم ثبوت هذا الحق عند القطع بعدم اهتمام المولى به إلى هذا الحد....).

خامساً: الشيخ جعفر السبحاني: يُعد الشيخ السبحاني من القائلين بنظرية (حق الطاعة) بعنوانها العام، لكنه لا يرى منجزيتها في التكاليف المظنونة و المشكوكة، إذ قال: لا شكّ أنّ للمولى حق الطاعة على عبده

ولكنّه يتحدّد بقضاء العقل الفطري، بما إذا تمت الحجة عليه من جانب المولى ببيان ما وظيفته بأحد الوجهين، وبالتالي يتحدد بصورة القطع بالوظيفة الواقعية أو الظاهرية، ولا يشمل صور الظن بالحكم أو الشك فيه).

وإنّ تحديدَ التّكاليفِ بصورةِ القَطْعِ بحيث لا يَشْمُلُ الظّنّ بالحكمِ أَو الشّكَ، لا يُعَدُّ تحديداً من قِبَلِ العَقْلِ لِحَقِّ الطّاعةِ أو تقييداً مِنْهُ لمولوية المولى، وإليه أشار السبحاني بقوله: (وليس تحديد العقل موضوع الطاعة في المقام بمعنى حكومته على المولى سبحانه وتحديد مولويته بصورة العلم بالحكم بل هو كاشف عن واقعية ثابتة، وذلك بالنظر إلى ما للمولى سبحانه من صفات ككونه حكيماً عادلاً، إلى غير ذلك الصفات الكمالية نظير حكم العقل بعدم صدور القبيح منه فحكم العقل بعدم الصدور بمعنى استكشافه ذلك منه بالنظر إلى ما للمولى سبحانه من صفات تستلزم من ذلك).

تعقيب:

على ضوء ما تقدّمَ من كلامِهِ فَإِنّ السُبحاني يعدُّ مُصَوِباً لنظرية (حق الطاعة) في صورة القَطْعِ بالتكليف ناقداً إياها في صورتي الظّنِ والشّكَ بالتكليف، كما أنّه ذو رأي آخر.

الشيخ د. حيدر نجم عبّود
باحث وكاتب/ العراق

حُجّية الأثر الاجتماعيّ للنص وأثره عند الفقهاء

تمتلك الموضوعات المعرفية قيمتها الاعتبارية في الشريعة الإسلامية من خلال أدلتها الرصينة، ومن هذه الموضوعات الفهم الاجتماعي للنص الشرعي، إذ لا يمكن للفقهاء أن يعتمدوا عليه في فهم النصوص الشرعية، مالم ذلك الفهم معتبر وحجة في مقام العمل، لذا يتناول هذا المبحث البحث عن حجية الفهم الاجتماعي والنظر في أدلة اعتباره، ثم البحث عن مناشئه المكوّنة له، وبعد ذلك استقرأ الباحث أثر الفهم الاجتماعي لدى الفقهاء، وبيان ذلك في الآتية:

حجية الفهم الاجتماعي في الاستنباط الفقهي:

أشارت النصوص المتعددة الواردة عن أهل بيت العصمة وما وردّ عن الفقهاء على أن للفهم الاجتماعي بجميع مظاهره والتي أبرزها العرف والعادة والسيرة العقلائية والمتشرعية والزمان والمكان والثابت والمتغير دوراً واضحاً في فهم النصوص الشرعية وتغيير الأحكام الفقهية؛ إمّا لتبدُّل موضوعاتها تبعاً لتغير العرف، أو لكشف ملاكِ أوسع من الملاك الموجود في عصر النص، أو غير ذلك من المؤثرات الأخرى ولذا نستدل على حجية الفهم الاجتماعي من خلال ما يأتي:

روايات النبي الأكرم والأئمة الأطهار:

أولاً ـ ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: سُئِلَ الإمام عليه السلام عن قول الرسول صلى الله عليه وآله: «غَيّروا الشيّبَ ولا تشبّهوا باليهود»؛ فقال: «إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قل، فأما الآن وقد اتّسع نطاقه، وضرب بجرانه فأمرؤ وما اختار».

وجه الاستدلال: إنّ عنوان التشبه كان قائماً بقلّة المسلمين وكثرة اليهود، فلو لم يُخضّب أحدٌ من المسلمين شيبته وكانوا في أقليّة صار عملهم تشبهاً باليهود وتقويةً لهم، وأما بعد انتشار الإسلام في أقطار الأرض على نحو صارت اليهود هم الأقلية، فلا يصدق التشبه بهم إذا تُرك الخضاب وغيره. وعليه صار الإنسان بالخيار بين الخضاب.

من خلال ما تقدم نلاحظ أنّ هناك أحكاماً جاءت ضمن مرحلة معينة يظهر من خلالها أثر الفهم الاجتماعي لتلك المرحلة الزمنية والظرفية، فقد تكون الأحكام ناظرة للأوضاع ولأسلوب الحياة عند صدور التشريع بحيث يكون الحكم وثيق الصلة بتلك الأوضاع، مثل حد الطريق سبعة أذرع حيث لا سيارات وشاحنات ولا مدن تغص بالملايين، ومثل قول مشهور الفقهاء «من أتلف كتاب غيره فعليه قيمته لا مثله؛ لأنَّ المثل متعذر آنذاك حيث لا مطابع وتصوير، أما اليوم فالكتاب المطبوع أو المصور فهو مثلي لا قيمي»، فإنّ مثل هذه الاحكام تكون تابعة للحياة الاجتماعية للناس.

وقد ورد أيضاً في وصيّة أمير المؤمنين عليه السلام في حق قاتله (عبد الرحمن بن ملجم) أنّه أوصى أن لا يمثل بقاتله، وقال: «فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إيّاكم والمثلة ولو بالكلب العقور».

فقد استدل الفقهاء على حرمة التشريح بهذا الحديث، ونقل صاحب الجواهر الاجماع على حرمته، في كونه من أقسام المثلة بل من أشدها، حين

يرى بعض الفقهاء أنّ ملاك التحريم هو التشفي؛ إذ أصبح اليوم زرع الأعضاء أمراً ضرورياً يستفاد منه في نجاة حياة بعض المشرفين على الموت فالملاك يتبدل.

وجه الاستدلال: أنّ حاجة الإنسان وصلت إلى حد الضرورة الاجتماعية فتغيير ملاك الحرمة من التشفي والمثلة إلى الضرورة العلمية والاجتماعية لإنقاذ حياة الناس مما جعل الحكم يتغيّر تبعاً لحاجة المجتمع العقلائية.

ثانياً ـ ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام: روى محمد بن مسلم وزرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنّهما سألاه عن أكل لحوم الحمر الأهلية، فقال: «نهي رسول الله صلى الله عليه وآله عن أكلها يوم خيبر، وإنّما نهى عن أكلها في ذلك الوقت لأنّها كانت حمولة الناس، وإنّما الحرام ما حرم الله في القرآن». وما أورده الشيخ الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١هـ) في كتابه المقنع، قال: قال رسول الله «وكل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير والحمر الإنسية حرام».

وهذه على الرغم من ضعفها السندي بالإرسال إلا أن في الراوي ات ما يدل على صحتها ومفادها صدور النهي عن النبي عن أكل لحم الحمير، وهي بالتالي دالة على التحريم.

وجه الاستدلال: إنّ الحديث يُشيرُ إلى أنّ نهي رسول الله صلى الله عليه وآله عن أكل لحومها، كان لأجل أنّ ذبحها في ذلك الوقت يُورث الحرج، لأنّها كانت سبباً لحمل الناس والأمتعة من مكان إلى آخر، فإذا ارتفعت الحاجة في الزمان الآخر ارتفعت الحرمة تلاحظ أنّ الإمام عليه السلام قد ربط الحادثة بواقعها الاجتماعي الذي صدر فيه الحديث وعللها بحاجة الناس إليها.

توجد مقدمة كبرى لقضية، مفادها وجود بعض الروايات المحكومة بظروف بحيث تتبع الأحكام المثبتة بواسطتها لهذه الظروف فتتعطل بتبدلها، أو قد يتسع الحكم أو يضيق حسب النظرة الاجتماعية المساهمة في صناعة

النص وتشكيله.

ثالثاً ـ ما جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: روى حماد بن عثمان، قال: كنت حاضراً عند أبي عبد الله جعفر بن محمد صلى الله عليه وآله، إذ قال رجلٌ: أصلحك الله، ذكرت أنّ علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم، وما أشبه ذلك، نرى عليك اللباس الجيد، قال: فقال له عليه السلام: «إنّ علي بن أبي طالب كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر، ولو لَبِسَ مثل اليوم لشهر به، فخير لباس كلّ زمان لبس أهله».

وجه الاستدلال: إنّ الأحكام تختلف من زمانٍ لآخر باختلاف موضوعاتها. حصيلة هذه الروايات الثلاث هو التأكيد على أهمية ملاحظة ال فهم الاجتماعي في زمن صدور الروايات وبيان الأحكام، وخير دليل وشاهد هو ممارسة الأئمة واشاراتهم المتكررة لبيان دور المجتمع وحاجاته الضرورية وطريقة فهمه للموضوعات وهناك الكثير من الشواهد والدلائل على حجية الفهم الاجتماعي وأهميته عند اصدار الأحكام الشرعية، يذكر الباحث قسماً منها، وهي:

١ ـ **حديث الرسول صلى الله عليه وآله: «خالفوا المشركين، احفوا الشوارب واوفوا اللحى»**.

٢ ـ **حديث نهي النبي صلى الله عليه وآله عن حبس لحوم الأضاحي**: روى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنّ النبي صلى الله عليه وآله نهى أنْ تُحبس لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام من أجل الحاجة، فأما اليوم فلا بأس به».

٣ ـ **رواية الإمام الصادق عليه السلام في حكم الدية**: روى الحكم بن عتيبة عن أبي جعفر قال: إنّ الديّات إنّما كانت تُؤخذ قبل اليوم من الإبل والبقر والغنم، فقال عليه السلام: «إنّما كان ذلك في البوادي قبل الإسلام، فلما ظهر الإسلام، وكثر الورق في الناس، قسمها أمير المؤمنين عليه السلام على الورق»؛ قال الحكم قلتُ: أرأيت من

كان اليوم من أهل البوادي ما الذي يؤخذ منهم في الديّة اليوم؟ إبل أم ورق؟ فقال عليه السلام: «الإبل اليوم مثل الورق؛ بل هي أفضل من الورق في الديّة، إنّهم كانوا يأخذون منهم في دية الخطأ مائة من الإبل يُحسب بكل بعير مائة درهم فذلك عشرة آلاف» فقلت له: فما أسنان المائة بعير؟ فقال: (ما) حال عليه الحول ذكران كلها».

٤ ـ **رواية الإمام الصادق عليه السلام حول إخراج لحوم الأضاحي من منى:** روى محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن إخراج لحوم الأضاحي من منى؟ فقال «كنا نقول: لا يخرج منها بشيء لحاجة الناس إليه، وأما اليوم فقد كثر الناس فلا بأس بإخراجه». ولا شك أنّ جميع هذه الروايات ناظرة إلى الأمة الإسلامية ككل فهي تأخذ بعين الاعتبار حاجة المجتمع ووضع المجتمع وأمن وسلامة المجتمع وهكذا. ومن ذلك يتضح أنّ عمل المعصومين بهذه الكيفية من الفهم لحاجات الأمة وأبناء المجتمع خير دليل على الحجية.

أسئلة المكلفين وأجوبة الأئمة:

يرى الشيخ مغنية أن أحد مؤيدات المنهج الاجتماعي في فهم النصوص الشرعية، هو أن الأئمة صلى الله عليه وآله كانوا يتبعون طريقة خاصة في بيان الاحكام الشرعية، إذ أنهم لم يكونوا البادئين بالكلام مع اصحابهم، إذ كان الاصحاب يسألون الإمام عليه السلام فيأتي جواب الإمام وفق سؤال السائل، آخذين بنظر الاعتبار وضع السائل والظرف الاجتماعي ومختلف الجو السائد آنذاك. لذا فإن الأسئلة التي كانت تُوجّه إليهم كانت تطوي في بعض الأجواء، ويعتمد عليها حين عرض السؤال.

وقد استدل سماحته على هذه النقطة في موسوعته الفقهية الاستدلالية بما ورد عن الأئمة قائلاً: «جاء عن أهل البيت روايات كثيرة

تنهى عن أكل الطين، وتشدد في النهي عنه، مما يكشف أن قلة في ذاك العصر كانوا يأكلون الطين، وإلا فأي معنى لتخصيص الطين، مع العلم إنّ أكل التراب وما اليه محرم». هذه الروايات التي تشغل مساحة واسعة من المنظومة الحديثية والروائية نُقلت من دون الإشارة إلى ظروفها إذ ليس بالضرورة أن يُنقل الجو العام معها، فقد يتركه الراوي اعتماداً على وضوحه وعدم التفاته إلى احتمال اختفائه بعد أن تحوّل النص المروي إلى نص مكتوب ولعل ذلك أحد الأسباب التي دعت الشيخ مغنية أن يأخذ بعنصر الفهم الاجتماعي ليفقه النص ضمن اجواء صدوره وظروفه ملاحظاً الابعاد الاجتماعية لأحكام الشريعة.

حجية الفهم الاجتماعي من خلال حجية الظهور

ذكر الشهيد الصدر أنّ حجيّة الفهم الاجتماعي تشترك مع نفس حجية الظهور، لذا قال: (أما المبرّر للاعتماد على الارتكاز الاجتماعي في فهم النص فهو نفس مبدأ حجية الظهور؛ لأنّ هذا الارتكاز يكسب النصّ ظهوراً في المعنى الذي يتّفق معه، وهذا الظهور حجّة لدى العقلاء كالظهور اللغوي؛ لأنّ المتكلّم بوصفه فرداً لغويّاً يفهم كلامه فهماً لغوياً، وبوصفه فرداً اجتماعياً يفهم كلامه فهماً اجتماعياً، وقد أمضى الشارع هذه الطريقة في الفهم)، إذ للعرف دور مهم في تنقيح ظهور الدليل من خلال المناسبات والمرتكزات الاجتماعية المرتبطة بفهم النص... وحجية هذه الدلالة العرفية ليست بحاجة إلى دليل؛ لدخولها في كبرى حجية الظهور، إلا أنها تختلف عن تنقيح الموضوع في كونها بحاجة إلى المعاصرة لزمن المعصوم عليه السلام.

يظهر من ذلك أمرين:

أولاً ـ أنّ الشهيد الصدر قد جعل حجية الفهم الاجتماعي بمستوى حجية الظهور، وإنّه المُسوغ لعمل

الفقيه بهذه الطريقة واعتماده في مجال فهم النصوص وادخاله كعنصر مهم في عملية الاستنباط لا يعدو أن يكون عملاً بظهور الدليل.

يرى الشيخ مغنية أنّ العرف بهذا المعنى يُعد أداة لفهم النص الشرعي وليس مصدر أساسي يُعتمد عليه لاستنباط الأحكام الشرعية، إلا إذا كان العرف في عهد المعصوم عليه السلام وبمرأى ومسمع منه، ولم ينه عنه.

لذلك أورد الشيخ أنّ: (العرف العام يرتكز عليه القضاء والعديد من الأحكام الشرعية، وترسم الحقوق والواجبات وبه وعليه تدور عجلة الخطابات والفهم والإفهام، ولولاه ما انتظم شيء من الحياة الاجتماعية).

يظهر من ذلك أنّ العرف العام الصحيح أحد العناصر المكونة للفهم الاجتماعي وأهم مصادره، لذا كان العرف من أبرز مظاهر الفهم الاجتماعي في مجال فهم النصوص الشرعية عند الشيخ مغنية وغيره من الفقهاء، ويكون هذا النوع من العرف حجة في المصداق لا في الحكم، إذ يُعلّل الشيخ مغنية ذلك بقوله: «لأنّ الأحكام الشرعية لا تؤخذ من عرف الناس وعاداتهم، أجل يرجع إليهم في معرفة الموضوع الخارجي الذي تعلق به الحكم الشرعي».

الثاني: السيرة العقلائية: أما مصطلح السيرة العقلائية أو ما يسمى أحياناً بالبناء العقلي، فتعرف بأنها: الميل العام عند العقلاء من البشر نحو سلوك معين دون أن يكون للشرع دور إيجابي في تكوين هذا الميل، كالميل العام لدى العقلاء نحو الأخذ بظهور كلام المتكلم وعَرّفها الشيخ مغنية قائلاً: هي عبارة عن استمرار عمل العقلاء على شيء بما هم عقلاء، بصرف النظر عن الدين والتدين، حتى أن الملحدين يدخلون فيها، وهي المعبر عنها بالعرف، وبهذا التعريف يتضح أن سيرة العقلاء لا تختلف عن العرف الاجتماعي العام، بل إن العرف

والعادة والسيرة وبناء العقلاء أسماء أربعة تهدف إلى معنى واحد.

يبدو أن سيرة العقلاء تتناسب مع أحد أقسام العرف، وهو العرف العام، وهذا هو المستفاد من عبارة الشيخ مغنية عند تعريفه لسيرة العقلاء بأنها العرف الاجتماعي العام.

فإذا سكتت الشريعة عن هذا الميل الاجتماعي ولم تنفيه أعتُبِرَ أصلاً يصح الاستناد إليه، ولذا يصح الاعتماد على السيرة العقلائية التي لم يردع عنها الشارع المقدس، والشريعة الإسلامية أقرّت هذا النوع من السيرة، ولم تنه عن طريقة العقلاء في معاملاتهم الاجتماعية، بل تركت الناس يتعاملون في قضاياهم المالية وما أشبه بالطريقة العقلائية العامة بحيث أجرى الشارع العقلاء على طريقتهم، سواء أكان مما موجوداً في زمنه أو مما يستحدثه الناس بنحو يكون حالة عامة. ولذلك أشار الشيخ مغنية قائلاً: «أن المعاملات ليست من صنع الشارع، وليس له فيها حقيقة شرعية كالعبادة، ولا هي ثابتة راسخة في نفسها كموضوع العقيدة، وإنما عادات وقواعد عرفية اصطلح الناس عليها، والتزموا بها في التعاون والتعامل هي كالبيع والشراء والرهن والايجار ونحوه، والشارع أقر بعضها كما هي، وألغى بعضاً من الأساس، وقلّم وطعم البعض الآخر في نطاق المصلحة وحدود الله تعالى وحرامه».

فيظهر مما تقدم أن السيرة العقلائية عبارة عن متعارف اجتماعي عند العقلاء، تظهر صورته الشرعية من خلال موافقة الشارع له، إذ أن الميل الموجود عند العقلاء نحو سلوك معين يعتبر قوّة دافعة لهم نحو ممارسة ذلك السلوك، فإذا سكتت الشريعة عن ذلك الميل الاجتماعي ولم تردع عن الانسياق معه كشف سكوتها عن المقدسة قبولها وعن انسجام هذا السلوك مع التشريع الإسلامي.

ومثاله: سكوت المعصوم عن الميل

العام عند العقلاء نحو الأخذ بظهور الكلام وعدم ردعه عنه، فإنّه كاشف عن رضاه واعتباره حجة وقاعدة لتفسير ألفاظ الكتاب والسنة فضلاً عن ذلك هناك مناشئ اخرى للفهم الاجتماعي، قد لا يُتفق عليها بنسبة كبيرة، ولكن لا مجال لنفي دورها في تشكيل هذا الفهم وأثرها الواسع في إيجاده، منها أثر الزمان والمكان في اختلاف موضوعات الأحكام الفقهية، ومنها الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية، وأثر هذه العناصر في تشكيل الفهم الاجتماعي بسبب أثرهما الواضح على المنظومة المعرفية الفقهية للمجتمع الإسلامي. في حين كانت مناشئ الفهم الاجتماعي عند علماء الجمهور تستند على مصادر ضعيفة وهي: الاستحسان والمصالح المرسلة، والعرف الموازي للكتاب والسنّة والتعبير عن العرف بالعرف الموازي للكتاب والسنّة، أي أن مشهور فقهاء مدرسة الصحابة يعتبرون العرف دليلاً مستقلاً قائماً بذاته في مقابل القرآن والسنة.

أثر الفهم الاجتماعي للنص عند الفقهاء

بعد أن فرغنا من بيان حجية الفهم الاجتماعي، وتحديد مناشئه، لزم بيان أثر الفهم الاجتماعي لدى الفقهاء، من خلال عرض كلماتهم الموضحة لذلك، وينتظم ذلك في مقصدين، وكما يأتي:

المقصد الأول: ما ورد لدى فقهاء الامامية:

أولاً: الشيخ الصدوق (ت٣٨١هـ):

روى الشيخ الصدوق عن النبي ﷺ أنه قال: الفرق بين المسلمين والمشركين بالعمائم ثم قال الشيخ الصدوق في شرح هذا الحديث قائلاً: «ذلك في أول الإسلام وابتدائه»، وقد نقل عنه أيضاً أنه أمر بالتلحي ونهى عن الاقتعاط. وقال الفيض الكاشاني: التلحي إدارة العمامة تحت الحنك، والاقتعاط إدارة، وسنة التلحي متروكة اليوم في أكثر بلاد

الإسلام كقصر الثياب في زمان الأئمة، فصارت من لباس الشهرة المنهي عنها.

يبدو من خلال النصّ المتقدم أنّ هناك أحكام صدرت عن النبي مجتمع المسلمين عن غيرهم، وذلك يُعد من الاحكام الاجتماعية العامة.

ثانياً: العلامة الحلي الحسن بن المطهر (ت٧٢٦هـ):

أورد العلامة ما نصه بأن: (الأحكام منوطة بالمصالح، والمصالح تتغير بتغيّر الأوقات، وتختلف باختلاف المكلفين، فجاز أن يكون الحكم المعيّن مصلحة لقوم في زمان فيُؤمر به، ومفسدة لقومٍ في زمان آخر فيُنهى عنه). فما من وجوب إلا وله مصلحة، وما من حرمة إلّا وفيها مفسدة، وهذه المصالح تعود إلى الناس أنفسهم، وإلا عُدّ التكليف عبثاً، وفعله عزّ وجلّ لغواً، وهو خلاف الحكمة الإلهية.

يبدو أنّ كلام العلامة الحلي حول تبعية الأحكام الشرعية للمصالح والمفاسد في متعلقاتها، يُغاير ما ذهب إليه علماء الجمهور حول المصالح المرسلة إذ (المصلحة التي يتبعها الحكم عند الإمامية تتسم بوجود المصلحة الواقعية تكويناً التي يتوصل العقل إلى بعضها، مثل الحسن والقبح والملازمات العقلية، وتتسم كذلك بالعلم بوجود هذه المصلحة، ولذا تكون حجة، بخلاف المصلحة المرسلة عند الجمهور إذ هي متوهمة أو متصورة، وهي في الحالتين مظنونة، لذا لا تكون حجة). فيظهر من كلام العلامة الحلّي حول مصالح الأحكام الشرعية أن ذلك من أوسع مجالات الاهتمام بقضايا المجتمع العامة ورعاية مصالح الأمة.

ثالثاً: الشهيد الثاني محمد بن مكي العاملي (ت٧٨٦هـ):

يقول الشيخ: (يجوز تغير الأحكام بتغير العادات كما في النقود المتعاورة المتداولة، ونفقات الزوجات والأقارب فإنها تتبع عادة ذلك الزمان الذي وقعت فيه ومنه الاختلاف بعد الدخول في

قبض الصداق، فالمروي تقديم قول كان عليه السلف من تقديم المهر على الدخول). ومن ذلك أيضاً أشار الشيخ مغنية إلى تحكيم العرف الاجتماعي وعادة أهل البلد: إذا قدّم بشيء قبل الدخول كان مهراً إذا لم يسم غيره، تبعاً لتلك العادة فالآن ينبغي تقديم قول الزوجة، واحتساب ذلك من مهر المثل، فقد أشار بقوله: ينبغي تقديم قول الزوجة إلى مسألة التنازع بينهما إذا ادعت الزوجة بعد الدخول بعدم تسلم وادعى الرجل تسليمه إليها، فقد روى الحسن بن زياد، قال: إذا دخل الرجل بامرأته، ثمّ ادعت المهر وقال: قد أعطيتك فعليها البينة وعليه حملوا الرواية على ما إذا كانت العادة الإقباض قبل الدخول وإلا فالبينة.

رابعاً: المحقق الأردبيلي أحمد بن محمد (ت: ٩٩٣هـ):

قال الشيخ الأردبيلي: (لا يمكن القول بكلية شيء؛ بل تختلف الأحكام باعتبار الخصوصيات والأحوال والأزمان والأمكنة، والأشخاص وهو ظاهر، وباستخراج هذه الاختلافات والانطباق على الجزئيات المأخوذة من الشرع الشريف، امتياز أهل العلم والفقهاء، شكر الله سعيهم....

خامساً: الشيخ مرتضى الأنصاري (ت١٢٨١هـ):

ذكر الشيخ الأنصاري عند بحثه موضوع الضمان المثلي والقيمي: (بقي الكلام أَنَّهُ هل يُعدّ من تعذر المثل خروجه عن القيمة كالماء على الشاطئ إذا أتلفه في مفازه والجمد في الشتاء إذا أتلفه في الصيف أم لا؟ الأقوى بلّ المتعيّن هو الأوَّل؛ بل حُكي عن بعض نسبته إلى الأصحاب وغيرهم، والمُصرّح به في محكي التذكرة ولإيضاح ولدروس قيمة المثل في تلك المفازة ويحتمل آخر مكان، أو زمان يخرج المثل فيه عن المالية).

سادساً: الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (ت١٣٧٣هـ)

قال الشيخ كاشف الغطاء في

تحرير المجلة في ذيل المادة (٣٩): (لا ينكر تغيّر الأحكام بتغيّر الأزمان، قد عُرفتْ أنّ من الأصول مذهب الإمامية عدم تغيير الأحكام إلا بتغيّر الموضوعات، أما بالزمان والمكان والأشخاص، فلا يتغيّر الحكم ودين الله واحد في حق الجميع لا تجد لسُنّة الله تبديلاً...).

سابعاً: الشيخ محمد جواد مغنية (ت١٤٠٠هـ)

يركّز الشيخ مغنية على جانب الثبات في المبادئ العامة للأحكام ويشخص مواضع التغيّر فيها قائلاً: (أنّ مبادئ الحرية وحقن الدماء وصيانة الفروج والأموال وعدم الضرر وحفظ النظام... والأخذ بالعرف مع عدم وجود النص المعاكس والمساواة بين الناس جميعاً وما إلى ذلك مِمّا تستدعيه الحاجة، ويفرضه الظرف ويقرّه المنطق السليم، إنّ هذه المبادئ هي الأُسس الثّابتة للتشريع الحديث والمصادر الأولى التي يستقي منها المشرع العصري أحكامه وآراءه، وأُسّس راسخة لا تتغير بتغيّر الزمن... إنّما تتطور الأسباب والحاجات التي تُمثل هذه المبادئ، فقبل عصر الآلة كان العرف يعتبر قيوداً وشروطاً في البيع، واليوم لم تكن تلك القيود مرعية عنده فالمعول على العرف الذي يختلف باختلاف الزمن) وأشار في موضع آخر إلى عدم الاعتماد الكلي على فهم السابقين وأن يكون لنا فهمنا، لأنّ ظروفهم تختلف عن ظروفنا وأفهامهم عن أفهامنا، فكيف نطبّق حياتهم على حياتنا وليس بينهما ادنى شبه.

ثامناً: السيد الشهيد محمد باقر الصدر (استشهد ١٤٠٠هـ): ___

تحدث السيد الصدر بخصوص الاجتهاد في الأبواب الفقهية لمن سبقوه (ذاك الواقع الساكن المحدود الذي كان يعيشه الشيخ الطوسي أو المحقق الحلّي، ذاك الواقع كان يفي بحاجات عصر الشيخ الطوسي والمحقق الحلّي، لكن كم من باب من

أبواب الحياة فتحت بالتدريج؟ لا بدّ من عرض هذه الأبواب على الشريعة، إذا أردنا أنْ يستمر الاتجاه الموضوعي في البحث الفقهي لا بد وأن نمدده أفقياً على مستوى ما استجد من أبواب الحياة).

يظهر من كلام الشهيد الصدر أنّه يدعو إلى معرفة الواقع الاجتماعي وعرضه على الشريعة الإسلامية لمعرفة الاحكام الشرعية، وذلك يشبه نظريته في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

تاسعاً: السيد الخميني (ت١٤٠٩هـ):

تحدث عن الفقه قائلاً: إني على اعتقاد بالفقه الدارج بين فقهائنا وبالاجتهاد على النهج الجواهري، وهذا أمر لا بد منه، لكن لا يعني ذلك ان الفقه الإسلامي لا يواكب حاجات العصر، بل ان العنصري الزمان والمكان تأثيراً في الاجتهاد، حكم مسألة معيّنة عما كانت عليه في الماضي بفعل تغيّر الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

يتبين من خلال كلمات الفقهاء العظام دور الفهم الاجتماعي بكل ابعاده وأثره الواسع في فهم النصوص الشرعية، ودخول الفهم الاجتماعي عنصر اً مهماً في عملية استنباط الاحكام الفقهية.

ما ورد لدى فقهاء الجمهور

أولاً: ابن القيم الجوزية (ت٧٥١هـ):

عقد فصلاً تحت عنوان (تغير الفتوى واختلافها بحسب الأزمنة والأمكنة والأموال والنيات والعوائد ذكر فيه قائلاً: (هذا) فصلاً عظيم النفع ووقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة، وتكليف ما لا سبيل إليه، ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد)

ثانياً: أبو إسحاق الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)

قال في كتابه (الموافقات): «المسألة العاشرة: إنّا وجدنا الشارع قاصداً لمصالح العباد والأحكام العادية تدور معه حيثما دار، فترى الشيء الواحد يُمنع في حال لا تكون فيه مصلحة فإذا كان فيه مصلحة جاز».

ثالثاً: محمد علاء الدين ابن عابدين (ت١٢٥٠هـ):

قال: (اعلم أن المسائل الفقهية إما أن تكون بضرب اجتهاد ورأي، وكثيراً منها ما يبينه المجتهد على ما كان في عرف زمانه بحيث لو كان في زمان العرف الحادث لقال بخلاف ما قاله أولاً، ولهذا قالوا في شروط الاجتهاد انه لا بد فيه من معرفة عادات الناس، فكثير من الاحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله).

رابعاً: الأستاذ مصطفى أحمد الزرقا (ت١٤٢٠هـ):

تطرق في كتابه: «المدخل الفقهي العام إلى مسألة تغير الأحكام بتغير الظروف واختلاف الزمان، قائلاً: الحقيقة أن الأحكام الشرعية تتبدل بتبدل الموضوعات مهما تغيرت باختلاف الزمان، فإن المبدأ الشرعي فيها واحد وليس تبدل الأحكام إلا تبدل الوسائل والأساليب الموصلة إلى غاية الشارع، فإن تلك الوسائل والأساليب في الغالب لم تحدد في الشريعة الإسلامية بل تركتها مطلقة لكي يختار منها في كل زمان ما هو أصلح في التنظيم نتاجاً وأنجح في التقويم علاجاً».

خامساً: سيد سابق (ت١٤٢٠هـ):

يقول: «إنّ ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالعقائد والعبادات، جاء مفصلاً تفصيلاً كاملاً، وموضحاً بالنصوص المحيطة، فليس لأحد أن يزيد فيه أو ينقص منه، وما يختلف باختلاف الزمان والمكان: كالمصالح المدنيّة والأمور السياسية، والحربية،

فجاء مُجملاً، مع مصالح الناس في جميع العصور ويهتدي به أولوا الأمر في إقامة الحق والعدل».

سادساً: الدكتور وهبة الزحيلي (ت١٤٣٦هـ):

قال: من أنَّ الأحكام قد تتغير نتيجة تغير العرف ومصالح الناس أو مراعاة لضرورة، أو لفساد الأخلاق وضعف الوازع الديني، أو لتطور الزمن وتنظيماته المستحدثة، فيجب تغيّر الحكم الشرعي لتحقيق المصلحة ودفع المفسدة وإحقاق الحق والخير».